سنوات في جنوب السودان

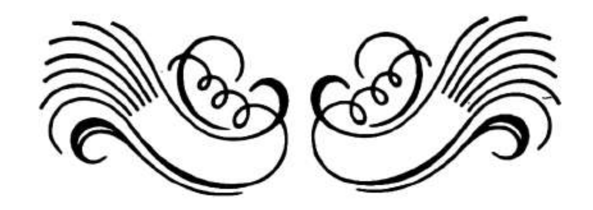


د. عبد الله السريع

سنوات فى جنوب السودان

د. عبد الله السديع

سنوات في جنوب السودان





الطبعة الأولى

١٩٨٦





بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

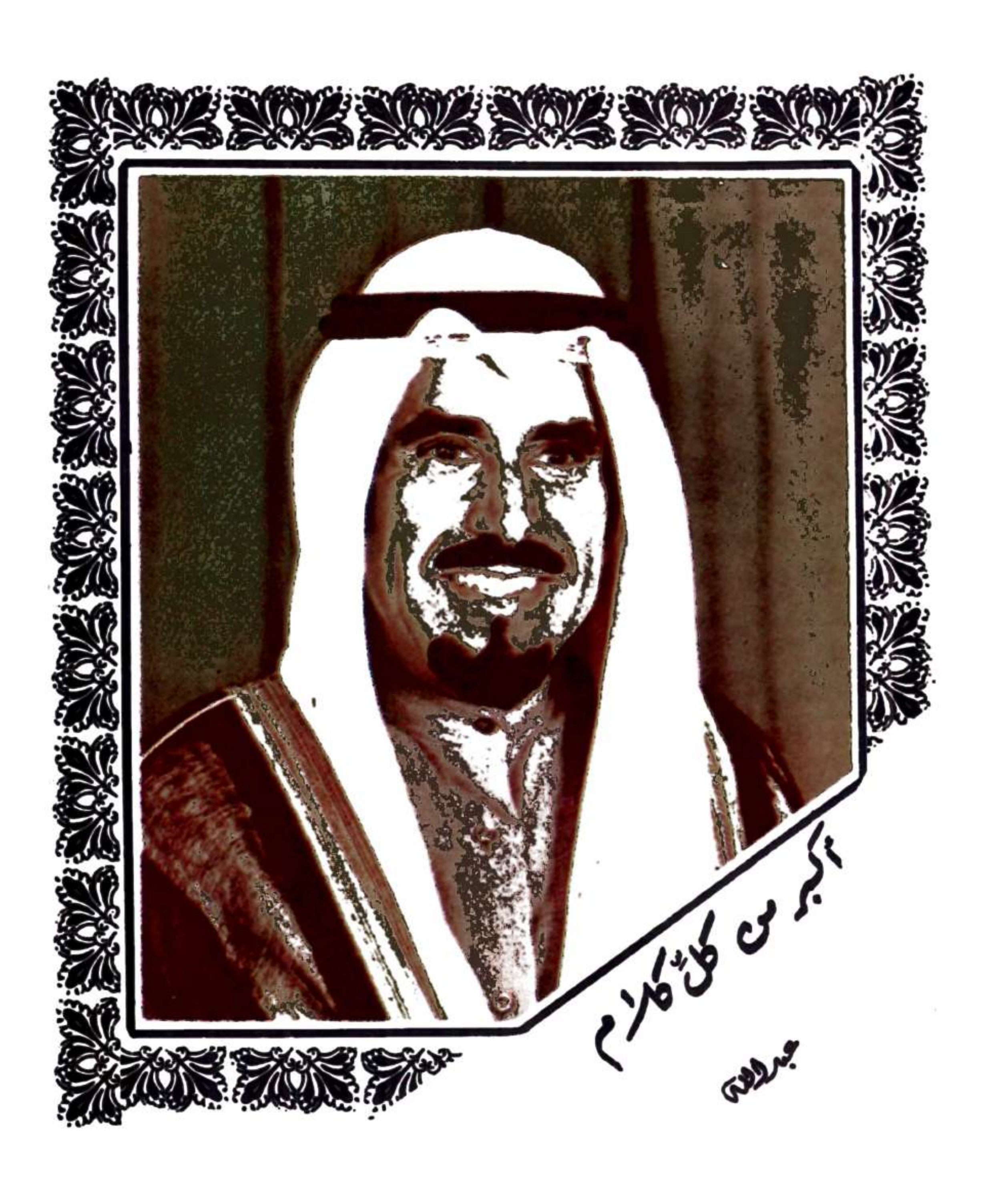
* إلى حضرة صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير البلاد الذى لولا أنه طلب مني العودة إلى مقر عملى لما حصلت على شهادة الدكتوراه الفخرية ولما رأى هذا الكتاب النور، لأننى ما كنت فكرت فيه أصلاً ، وعندما عدت إلى جوبا فى أواخر عام ١٩٨٠ برزت فى رأسى فكرة كتابة مشاهداتى بهدف أن يتعرف المواطن العربى على جزء من عالمه العربى الأفريقى من خلال حياة مواطن عاش فيه عشر سنوات .

* وإلى والدتى ــ رحمها الله ــ التى كانت تقول لشقيقاتى ، عندما يلححن عليها ، بأن تطلب مني ترك العمل فى جنوب السودان والعودة للعيش معهم ، طالما هو راغب فى الاستمرار فلن أُكْرِهَهُ ليعود .

* وإلى زوجتى التى تحملت تربية أو لادى فى أصعب مراحل نموهم وماشكت يوماً ، حتى عندما خاطبها الطفل ذو الأربعة أعوام سنة ١٩٨٣ بقوله .. كل الأطفال عندهم آباء ، «يفسّحونهم» ، و يشترون لهم الهدايا إلا هو.. دمعت عيناها وما أبلغتنى .

فإليكم ياصاحب السمو واليكِ ياسيدتى الوالدة ــ رحمك الله ــ واليك يا رفيقة دربى وربيع عمرى ، أهدي وبكل الامتنان والحب والعرفان بالجميل مشاهداتى فى جنوب السودان .

المؤلـــــف


أكبر من كلّ كلام
عبدالله



رحمك اللّه يا أُم عبد اللّه.. فقد غبت عنا جسَداً وروحك صَعدت إلى بارئها، أما إسمك فسَيبقى يُرَدَّدُ دائماً (أم عبَد الله) على البئر التى حفرتها باسمك فى جوبا، ليرتوى من مائها العشرات يَومياً، ثوابه وأجره لَك إن شاء اللّه..





إنّي لكِ ..



اللّه أعلم بماذا كنت أفكر ..

المؤلف 



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة أولـــى:

عـادة إذا مـا نـويـت عملاً، أكتبه أو أنجزه بسرعة، إلا في هذا الكتاب؛ فقد بـدأته تسجيلا فى مارس ١٩٨١ وماظهر مكتوباً على الورق إلاّ فى يونيو (حزيران) ١٩٨٥، وقد شد أزري فى إنجازه السيد صلاح عبد اللطيف(١).

لـقـد ظننت أن ماسوف أكتبه عن جنوب السودان لايزيد فى محتواه على عدد مـن الـصفحات، لاتصل إلى عدد أصابع اليدين، ولكن عندما بدأت، شعرت أن الـكـلـمـات تـتـسابق متدافعة من فَمي كحبات المطر المنهمر، حتى خُيِّل إليّ أننى أغرق فى وسطها.

وأخـيراً انتهى العمل به كمسودة، فذهبت به إلى الأستاذ البروفيسور محمد عمر بـشير(٢) وهـو غـنـي عن التعريف، فله مؤلفاته وشهرته على مستوى العالم العربى والأجنبى، كأحد المفكرين العرب.

كـنـت قـد أعـددت الكتاب من جزءين.. الأول عن فترة إقامتى التى دامت فى جـنـوب الـسودان عشر سنوات، والثانى عن عادات بعض قبائل الجنوب، وقد

---

(١) صلاح عـبـداللـطـيف مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط فى الخرطوم حاصل على ماجستير من جامعة القاهرة عن الاعلام الأفريقي.

(٢) محـمـد عـمـر بـشير: أستاذ الدراسات الأفريقية بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم تلقى دراساته فى جامعة الخرطوم وفى جامعة اكسفورد، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة هل ومن جامعة جوبا وعمل سكرتيراً أكاديمياً لجامعة الخرطوم ووكيلاً لها وسفيراً بوزارة الخارجية السودانية وله عدة مؤلفات عن السودان وأفريقيا والعالم العربى.

اخترت قبائل الإقليم الاستوائى ، حيث يوجد مكتب دولة الكويت ، واقترح الأستاذ بشير أن يكونا كتابين بدلاً من كتاب واحد ، ذلك أن الجزء الأول ، وصفه بأنه قصة حياة يمكن للمرء أن يقرأها فى أىّ مكان وحتى قبل النوم ، أما الجزء الثانى فهو علمى بحت ، سوف يستفيد منه الباحثون ، إلا أني فضلت أن أجمعها فى كتاب واحد .

إن أكثر ما شدنى خلال تلك الفترة بساطة الانسان السودانى .. فهم رسميون جداً فى عملهم ، دقيقون في مواعيدهم ، أما بعد ساعات العمل ، فلاتستطيع أن تميز بين كبيرهم وصغيرهم ، ومن ذلك أنهم فى غير أوقات العمل يسمون الناس بأسمائهم ، حتى إنى ألفت مناداتى هناك ، عندما يحيينى بعضهم بقوله .. إزيّك أبوعَبدَه . (أى كيف حالك) .

لقد طالت إقامتى حتى خُيِّل للبعض أننى لن أغادر جوبا فلقبونى بعمدة المودعين والمستقبلين .. فكلما يُنْقَلْ شخص نذهب جميعا ، نحن الذين عرفناه ، لتوديعه ، وكذلك نستقبل بديله ، وحصل كثيراً أن ودعت شخصاً واحداً واستقبلته ثانية أكثر من مرة ، وطوال فترة إقامتى لم أحاول طلب بناء بيت لى ، أو حتى تغيير الأثاث القديم ، ذلك كي لاأميِّز نفسى عن باقى المسئولين ، إلى أن سكن المسئولون الجنوبيون « الفلل » ذات الطابقين ، فطلبت إنشاء بيت ، فلم تتردد الهيئة واعتمدت المبلغ اللازم ، ويشاء الله ألاّ أسكنه .

كما أسعدنى أن أسمع من كل مسئول ووزير يتسلم وظيفته وألتقي به بقوله : حبذا لوكل إخوانكم العرب ، يفتحون لهم مكاتب كهذا المكتب . إنى أعتبر هذا ثناءً ودليلاً على نجاح أعمال مكتب الكويت وخاصة فى حياده من السياسيين الجنوبيين الذين يتنافسون على السلطة .

إن أي انسان اذا ماعاش فى بلد ما ، وفى مدينة معينة منه ، تصبح جزءاً من حياته ، وهذا هو شعوري بالنسبة لمدينة جوبا ، فلن أنساها أبداً ، فلقد تعلمت منها الكثير .

المؤلف

مقـــدمــــــة ثانية :

لا أعـرف دبـلـومـاسيـاً عـربـيـاً أو غير عـربى ، تفاعل مع المواطنين فى جنوب الـسودان ، شـمـالـيين أو جنوبيين ، مثلما تفاعل عبدالله السريع ممثل الكويت فى جوبا لمدة لاتزيد على ثلاثة أعوام .

عـرفه الـصفـوة فى جـوبـا ، خـاصـة أولـئك الذين يعملون فى دواوين الحكومة الإقليمية ، وغير الصفوة خاصة من الذين ارتبطوا ، بحكم عملهم ، بالمشروعات التى كان ينفذها باسم دولة الكويت .

لم يـكـن أحدُ يناديه بغير عبدالله جوبا ، ولم يكن مستحيلاً حين تذكر اسمه أو لقـبـه حـتـى يدلوك عليه . تميز عبدالله السريع أو عبدالله جوبا ، خلافاً لكثيرين غيره ، كانوا يقومون بأعمال مماثلة ، تميز عبدالله بأنه كان يعمل فى الشمس متنقلاً مـن مـنـطـقـة إلى أخـرى فى جنوب السودان ، ومن موقع إلى آخر فى جوبا ، يبحث ويـكـتـشـف كـل يوم أمراً جديداً . ولقد أثمرت الرحلة والتجربة هذه الذكريات الـفـريـدة لـدبـلـومـاسى لم تشغله الوظيفة ، كما يحدث عادة للدبلوماسيين عرباً وغير عرب ، عـن هـذا الـتـفـاعل المستمر مع مجتمع ، لايمكن أن يوصف بأي حال بأنه مجتمع يشبه المجتمع الذى عاش فيه من قبل .

الـتقيت بعبدالله جوبا لأول مرة فى ديسمبر ١٩٨١ ، حيث منحته جامعة جوبا درجـة الـدكـتوراه الفخرية ، تقديراً شخصياً له ، وتقديراً لحكومة الكويت لما قدمته مـن عـون ومـسـاعـدة وتأييد لحكومة الإقليم الجنوبي ، فى وقت أحجم الآخرون فيه عـن تـقـديم عـون مماثل للإقليم الجنوبى ، وفى وقت هو فى أشد الحاجة الى مساعدة وعون .

وعندما وقف عبدالله السريع ليستلم درجة الدكتوراه الفخرية ــ وكان واحداً من خمسة آخرين ــ صفق الحاضرون طويلاً ، وارتفعت الأصوات تنادي عبدالله جوبا .

ولم يفت على الحاضرين مغزى التكريم ، إلاّ أن هذه كانت المناسبة الأولى من نوعها فى جوبا ، وفى تاريخ الجامعة ، وليس هذا فحسب ، بل إن الدرجات الفخرية الأخرى التى منحت كانت تشير إلى أكثر من معنى ، **نيلسون مانديلا** المناضل فى سجون جنوب أفريقيا منح درجة الدكتوراه الفخرية وقد تسلم الدرجة نيابة عنه من المؤتمر الأفريقي سفير دولة تنزانيا . أبيل ألير أول رئيس للحكومة الإقليمية فى جنوب السودان منح الدكتوراه الفخرية . جوزيف لاقو الذى قاد حركة الأنيانا وأصبح فيما بعد رئيساً للحكومة الاقليمية فى جنوب السودان ، منح درجة الدكتوراه الفخرية . بيتر جات كوت الذى كان نائباً لرئيس الحكومة الإقليمية ووزيراً للمالية منح درجة الدكتوراه الفخرية . هيلاري بول لوقالي الوزير فى الحكومة الإقليمية ورئيس مجلس الجامعة منح درجة الدكتوراه الفخرية . سر الختم الخليفة رئيس الوزراء السابق والذى ارتبط اسمه بالإقليم الجنوبى منح درجة الدكتوراه الفخرية . البروفيسير محمد عمر بشير الأستاذ بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية الذى عمل سكرتيراً فى مؤتمر المائدة المستديرة منح درجة الدكتوراه الفخرية .

لم يفت على الحاضرين أن عبدالله السريع ، الدبلوماسي الكويتى ، قد حظي بتكريم لم يسبقه إليه أحد ، لا فى السودان ولا فى خارجه .

كان هذا التكريم بالنسبة لى أمراً أفخر به ، وخاصة أنه جاء من جامعة جوبا التى أعتز بها ، وأنّه مع نخبة جعلتنى زميلاً لمناضلين ووطنيين ورجال دولة ورجال تعليم أعطوا الكثير ومنحوا الكثير، وسعدت كثيرا لأنى وعبدالله السريع قد أصبحنا زميلين ننتمى للجامعة الوطنية ، الجامعة التى قامت ، بعد أن أصبح السلام أمراً واقعاً ، بعد سبع عشرة سنة من الحرب والاقتتال بين أبناء الوطن الواحد .

وكان طبيعياً ولازماً عليَّ أن أسأل الإخوان فى جوبا فيما بعد عن هذا الدبلوماسى ، الذى نجح فيما عجز الآخرون عن تحقيقه ، ومنذ ذلك التاريخ وأنا

أقول للآخرين: لكي تكون المعلومات إيجابية وناجحة، فهى تحتاج إلى رجال ذوي قدرات فى التعامل مع الآخرين. وبالطبع لم تكن التنمية أمراً ممكناً فى غياب السلام الذى تحقق بعد اتفاقية أديس أبابا ــ الإنجاز الكبيرــ ليس بالنسبة للسودان فحسب، ولكن لأفريقيا والعلاقات العربية والأفريقية.

قلت أيضا إنَّ ما تحقّق فى الجنوب من مشاريع الكويت، كان بسبب عبدالله السريع، الذى أصبح كما ذكرت عبدالله جوبا، وأصبح بيته ملتقى القادة والسياسيين والأكاديميين والإداريين من الجنوب والشمال ومن خارج السودان. وكان هؤلاء جميعا فى حاجة ماسة إلى مكان يلتقون فيه جميعا، يتحاورون ويتفاكرون ويفرحون ويحزنون إن دعا الأمر. وهذا ماوجدوه فى بيت الصديق الغريب، دون أن يكون هناك حرج، ولعل هذه اللقاءات والأحاديث هي التى دفعت الكاتب بأن يكتب هذه الفصول التسعة التى تُكَوِّن فى مجملها، رواية شخصية لمجتمع زاخرٍ بالحياة وبالتناقضات وبالأفراح إلى جانب الأحزان.

والمجتمع ــ موضوع هذا الكتاب ــ لايقتصر على جنوب السودان، ولكنه يمتد إلى يوغندا وكينيا، وأبطاله كثيرون وعلى رأسهم أمير الكويت الذى جاء زائراً لساعات قليلة.

والقارىء لهذه المذكرات لابد أن يقف عند بعض المحطات، من السالمية إلى جوبا، ثم الأيام الأولى وفيها الحديث عن سوق الملكية، ومحلات بقالة أصحابها شماليون وبجانبهم جنوبيون يفترشون الأرض وأكثرهم سيدات بصدورهن العارية وهن يرتدين نصف الملابس، والسهرة الأولى بجوبا، ثم الزيارة لوزير الإسكان.

وقد تبدو الرحلة إلى نيروبى ويوغندا وممبسا أمراً عادياً، ولكنها ليست كذلك لدبلوماسى عربي تطأ أقدامه ــ لأول مرة ــ أرضاً أفريقية، ويقول لنا إن العرب لايعرفون عن هذه الأرض إلاّ القليل. والفصول التالية تأكيدٌ للتفاعل مع الأحداث ومع الحيوانات والأفاعى ومع الجيران ومع كبار الزوار، إلى جانب القضايا الخاصة.

إنّ الذى كتبه الزميل والصديق عبدالله ــ فيما أعلم ــ أمر لم يسبقه إليه عربى أو دبلوماسى آخر، والذى كتبه الأوربيون لايشبه هذا الذى كتبه، إذ أن التجربة تختلف، وكذلك التفاعل مع الأحداث. إنّنى على يقين، بأن الذى كتبه الصديق عن السودان والسودانيين، وعن الجنوبيين والشماليين، والاهتمام والمودة التي عبر عنها فى كثير من أحاديثه ولقاءاته وكتاباته، فى هذه المذكرات، وفى الجزء الآخر عن المجموعات والقبائل فى جنوب السودان، إنّنا لنأمل أن تكون هذه الدراسة المرتكزة على التجربة حافزاً لآخرين، كما نأمل أن يتواصل الجهد والعطاء أكثر.

يكفي أن أقول شكراً أيها الزميل، شكراً أيّها الأخ الكريم، شكراً ياعبدالله الكويت، ياعبدالله جوبا.

البروفسير محمد عمر بشير
الخرطوم فى ١٤ أغسطس ١٩٨٥



مقـــدمـــة ثالثة :

تعرفت على الأستاذ عبدالله السريع لأول مرة ، فى مدينة جوبا عاصمة إقليم الاستوائية ، فى شهر يناير « كانون ثان » عام ١٩٨٣ ، يومها كنت فى زيارة للمدينة ضمن جولة فى جنوب السودان مع وفد مصرى سافر إلى هناك لمعاينة المواقع التى ستقام عليها بعض المشروعات ، منها إنشاء جسر على نهر السوباط فى أعالى النيل ، وإقامة فندق بمدينة جوبا ، ومستشفى بمدينة نيمولي القريبة من الحدود السودانية الأوغندية .

كنت قد لاحظت ونحن فى مدينة جوبا تعدد المكاتب الأجنبية مثل مكتب الأمم المتحدة ومنظماتها والمراكز الأوربية المختلفة ، فسألت عن حجم التواجد العربى فى الجنوب ، فقيل لى على الفور: لا يوجد هنا سوى مكتب الكويت ، وهي الدولة العربية التى تكاد تكون وحيدة ، تقوم بمشروعات إسكانية لخدمة أبناء الجنوب ، عند ذلك طلبنا أن يتضمن برنامج الجولة زيارة هذه المشروعات .

توجهنا إلى منطقة المشروع ، وعندما اقتربنا منها لاحت مساكن حديثة لم يكتمل إنشاؤها بعد ، تقع على منطقة ضخمة تكاد تشكل حيا مستقلا من مدينة جوبا ، وفى داخله مبنىً خشبىٌ ذو سلالم خشبية ، التقينا بمدير المكتب الذى جاء لاستقبالنا وهو الدكتور عبدالله السريع ، كان المبنى صغيراً ، من تلك المبانى التى تقام عادة بجوار مواد البناء .

راح الدكتور عبدالله يشرح لنا نشاط مكتب الكويت ومشروعاته ، يتحدث بهدوء و يعرف كيف يستقبل زائريه .

خطر ببالنا خاطر ونحن نستمع اليه ، وهو كيف يعيش هذا العربى القادم من الكويت فى ذلك المكان النائي من عالمنا العربى ، وشعرنا بألفة صادقة نحوه .

خاصة أنه يتمتع بشعبية وسط الجنوبيين ، يتعاملون معه كأنه واحد منهم ، ينادونه باسمه مجرداً وأحيانا بالدكتور. وعرفنا أنه حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة جوبا .

تركت زيارتنا لمنطقة مشروعات الكويت أثراً طيباً فى نفوسنا . وحمدنا الله أن هناك دولة عربية لم تنس جنوب السودان ، تلك المنطقة البعيدة التى هي جزء من دولة عربية توجد فى أفريقيا ، تسعى قوى كثيرة لصنع حاجز بين أبنائها وبين العالم بأساليب ونشاطات متعددة .

خلال زيارتنا القصيرة للجنوب والتى لم تستمر أكثر من أسبوع ، ظلت شخصية الدكتور عبدالله السريع العربى الكويتى باقية فى خاطرنا ، وتمنيت لو أمضيت معه أياما لنكتشف معاً ، مافى الجنوب السودانى من أمورغامضة علينا فى عالمنا العربى ، خاصة حياة الناس وعاداتهم ، فقد التقينا بمثقفين جنوبيين ومسئولين ، وشاهدنا طبيعة ساحرة ، ورأينا أيضاً أناساً يمشون أنصاف عرايا وبيدهم الحراب ، ولا شك أنه عالم رحب ، ووراءه الكثير الذى يستحق الدراسة والتسجيل ، وأدركت أن مجرد أيام لا تكفي لدراسة الجنوب .. إن الباحثين الغربيين من المعاهد العليا التى تهتم بالدراسات الأفريقية ، ترسل بين وقت وآخر، باحثين من طلبة وطالبات يتكبدون مشاق السفر بمفردهم ويقيمون شهوراً فى الأكواخ مع القبائل ليسجلوا حياة القبائل ليحصلوا على درجة علمية .

وكم تمنيت لوتتاح لباحث عربى هذه الفرصة .

لم يمض زمن بعد هذه الزيارة ، حتى علمنا أن صديقنا الدكتور عبدالله السريع قد عين سفيرا للكويت فى الخرطوم ، وكم كانت سعادة الجميع فى السودان بهذا الخبر فالرجل معروف لدى الجنوبيين والشماليين ، وسمعته طيبة ، وليس غريباً على الشعب السودانى والمسئولين جميعهم . كان ذلك اختياراً موفقاً .

ومرة ثانية التقيت به فى منزله بالخرطوم كسفير للكويت . كانت المناسبة هي توديع السفير المصرى أحمد عزت عبداللطيف الذى ارتبط بصداقة معه . فى هذه الزيارة المنزلية تركنا الصديق الكويتى يتحدث عن بعض ذكرياته فى الجنوب .

كان حديثه مثيراً ومسلياً ، فشد الجميع إلى سماعه . وهنا تذكرت ماكنت أفكر فيه عندما التقيت به فى جوبا فى العام الماضى ، فقلت له « لماذا لاتكتب هذه التجربة الفريدة ، إنك تكاد تكون العربى الوحيد فى جيلنا ، الذى أمضى فى جنوب السودان عشر سنوات ، ولا شك أن لديك الكثير مما يجهله الكثير من عالمنا العربى عن الجنوب .

أدركت أنه سبقنى فى التفكير ، إذ قال لى إن لديه أشياء أكبر مما أتصورها ، وطالما فتحت هذا الموضوع فلتكن رفيق مشوارى فى هذا العمل ، فقد سجلت عادات وتقاليد القبائل ولم يبق إلا تفريغها وإعدادها .

وهكذا التقينا .

اتفقنا على البدء ، وظلت الفكرة تدور بيننا لمدة ثلاثة أشهر وسط مشاغل عمله الدبلوماسى وعملى الصحفى .

وكان يوم ٢ ديسمبر ١٩٨٤ ، وهو اليوم الأول لكتابة الكلمة الأولى فى هذا الكتاب ، ولم يكتف صاحبنا بتسجيل تجربته الشخصية ، ولكنه أصر على أن يتضمن الكتاب فى الجزء الثانى تسجيلا لحياة تسع من القبائل ، تغطي أكثر سكان قبائل إقليم الإستوائية .

وهكذا أمضيت معه ثمانية أشهر فى إعداد هذا الكتاب ، تخللتها فترة تعرض فيها صاحبنا لعلة صحية داهمته بينما كان فى إحدى زياراته للكويت ، عاد بعدها متماثلا للشفاء . لكنه لم يهمل الكتاب . كان دائما يقول : لاأريد أن أفقد حماسى ، فلو تكاسلت يوماً واحداً لن يخرج هذا الكتاب إلى النور . وبالفعل كان أحيانا يزداد حماسه وأحيانا يفتر ، لكن شعوره بأهمية الكتاب جعله يضاعف الجهد لأنه أول كتاب باللغة العربية يعطي صورة عن الواقع للحياة فى جنوب السودان . كنت أكتب ماسجله ، ويعود لتقييم ماكتبته ، فيغير ويحذف ويضيف وأعود فأكتب من جديد ، وذلك كله حرصاً على أن يخرج الكتاب مفيدا للناس ، وكم حاولنا فهم مايقوله أبناء الجنوب ، وأحيانا كان الدكتور عبدالله السريع يعود الى

شخصيات من الجنوب معروفة بثقافتها وعمق تفكيرها يراجعها فيما كتب و يستوضح منها ماغمض عليه فهمه.

الواقع أن الجهد كان يبدو كبناء عمارة من تلك العمارات التى بنيت بالحديد والأسمنت فى الجنوب، ليخرج الكتاب بأساس متين يمكث فى الأرض و ينفع الناس.

الخرطوم ــ يوليو (تموز) ١٩٨٥م

صلاح عبداللطيف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمــــــــة تعريفية :

إن جمهورية السودان الديمقراطية ، واد فسيح يرويه نهر النيل وروافده ، فى مساحة قدرها مليون ميل مربع ، وبينما يقطن حوالى واحد وعشرون مليون نسمة ، على كل هذه المساحة ، **نجد أن أكثر من خمسة ملايين نسمة تقطن الجزء الجنوبى** منه ، حيث إنّ الغالبية من سكان ذلك الإقليم يدينون بأديان محلية ، إذ نجد أنّ نسبتهم تصل الى ٦٥٪ بينما يمثل المسيحيون ١٧٪ والمسلمون ١٨٪ .(١)

ونتيجة لهذا الإتساع والإختلاف فى الظروف المناخية يقسم السودان إلى ثلاث مناطق مناخية هي :ـ

(١) المنطقة الشمالية وتمتد من خط عرض ٢٢° شمالا إلى خط عرض ١٥° شمالا .

(٢) المنطقة الوسطى وتمتد من خط عرض ١٥ شمالا إلى خط عرض ١٠° شمالا .

(٣) المنطقة الجنوبية وتمتد من خط عرض ١٠° شمالا إلى خط عرض ٣° شمالا ، شمال بحيرة ألبرت فى يوغندا .

والجنوب يتألف من ثلاثة أقاليم إدارية هي :

(١) إقليم الاستوائية وعاصمته جوبا ومساحته ١٩٨١٢٠ كم٢(٢) .

---

(١) دراسة ميدانية قام بها الباحث محمد عمر موسى من معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية ـ جامعة الخرطوم ـ مايو ١٩٨٥م .

(٢) رئاسة المديرية الاستوائية جوبا أضواء على المديرية الإستوائية ـ جوبا ـ فبراير ١٩٧٢ .

(٢) إقليم بحر الغزال وعاصمته واو، ومساحته ٢١٣٧٥١ كم٢ [١].

(٣) إقليم أعالى النيل وعاصمته ملكال ومساحته ٢٣٦١٨٠ كم٢ [٢]

وأهم مايميز حدود الجنوب أنها حدود ليست فاصلة بين السلالات السكانية، فنجد مثلا بعض القبائل التى تقطن السودان الجنوبى كالزاندي والآشولي واللاتوكا والطرقانا والأنواك والمادي، تتخطى الحدود وتمتد إلى الأقطار المجاورة، كما تتخطى بعض القبائل فى الأجزاء الشمالية من مديريتي بحر الغزال وأعالى النيل (خط عرض ١٠° شمالا) ويمتد سكانها إلى الشمال.

فمساحة الإقليم الجنوبى تبلغ ٦٤٨٠٥١ كم٢، حوالى ربع المساحة الكلية للسودان، ويمتد داخل إطار المنطقة المدارية، وأمطاره قليلة تتراوح بين ٤٠٠ مم قرب الرنك بأعالى النيل، و١٦٠٠ مم عند خط تقسيم مياه الأمطار بين النيل والكنغو، وتهطل الأمطار عادة بين شهري فبراير ونوفبر من كل عام، وتبلغ غزارتها في شهر أغسطس. وبهذا ينقسم الجنوب إلى إقليمين (نباتيين) هما: إقليم الفيضان، والإقليم الاستوائي، تتوزع فيها المراعى الفسيحة والمستنقعات والسدود والغابات والأدغال.

وقد أدت هذه الظروف الطبيعية والجغرافية فى الجنوب إلى إيجاد أنماط متعددة لحياة السكان كالاعتماد على تربية المواشي أو زراعة المحاصيل وصيد السمك والحيوان أو جمع الفاكهة البرية والنبات الغابى كنوع من أشكال النشاط الاقتصادى.

وتعتمد اقتصاديات الجنوب الحالية على الزراعة المتنقلة، بينما الزراعة الآلية توجد بمنطقة الرنّك باقليم أعالى النيل، وتتنوع المحاصيل التى تزرع من منطقة إلى

---

(١) وزارة الثقافة والاعلام السلام والبناء ـ مديرية بحر الغزال الخرطوم أبريل ١٩٧٤م.
(٢) وزارة الثقافة والاعلام مديرية أعالى النيل ـ الإنسان والطبيعة ـ الخرطوم مارس ١٩٧٤م.

أخرى ، كالذرة والدخن والفول السودانى والسمسم والبطاطا والبطيخ والقطن، وتشكل الماشية جزءا هاما فى اقتصاد الجنوب ، وتتعذر تربيتها فى المناطق التى تنتشر فيها ذبابة التسي تسي . (التى تسبب مرض النوم) .

ويلاحظ تأخر الإقتصاد النقدى هناك لأمد طويل نتيجة لتلك المسافات الشاسعة التى تفصل مديريات الجنوب عن الأسواق الرئيسية مما يسبب عجز أو قلة أو انعدام وسائل المواصلات الجيدة ، بجانب انعدام وسائل التسويق المناسبة ونقص الأموال والأيدى العاملة الفنية .

ولقد قام علماء الأجناس بتصنيف سكانه ــ تبعا للغّة والتكوين الجسدى والأصل التاريخى ــ إلى ثلاث مجموعات هي :ــ

(١) النيليون : كالدينكا والنوير والشلك والأنواك .
(٢) النيليون الحاميون : كالمورلي والتابوسا واللاتوكا والديدينجا والبويا .
(٣) القبائل السودانية وهي تضم عددا من القبائل الصغيرة والتى تسكن المناطق الغربية والجنوبية من جنوب السودان ، وأهمها قبيلة الزاندي .

وهناك قبائل أخرى كالباري والمنداري واتياجورا وفوجولو والمورو ولولوبا ، وهي خليط من القبائل النيلية والنيلية الحامية والسودانية ، وليس بينها قبيلة لها من القوة مايجعلها نواة تتجمع حولها القبائل الأخرى ، أو مايمكنها من السيطرة عليها أو احتوائها[١] .

إن الفوارق فى السلالة بين القبائل المختلفة أدت إلى استخدام لغات مختلفة (نيلية :ــ بارية ، ديدنجية ، مادِيَّة ، والزاندية) ونشوء فوارق فى المؤسسات السياسية والدينية .

---

(١) محمد عمر بشير جنوب السودان ــ دراسة لأسباب النزاع ــ مصر ١٩٧١ ص ٢٤ .

ويمثل تعدد اللغات عائقاً فى طريق تحقيق الوحدة الوطنية، إذ لم تستطع لغة من بينها أن تصبح بعينها اللغة السائدة، فلذا وجدت اللغة العربية الدارجة طريقها بين تلك القبائل كلغة تخاطب مشتركة

والغالبية من السكان تدين بأديان محلية تؤمن بوجود إله قدير، بجانب الاعتقاد بأرواح السلف التى تلعب دوراً هاماً فى حياتها أكبر من دور آلهتها، إذ يسود الاعتقاد بأن تلك الأرواح تتجسد فى الأجيال المتعاقبة من صانعى الأمطار والرؤساء الروحيين، وهم أشخاص يجمعون عادة بين السلطة السياسية والسلطة الدينية.

وتختلف التنظيمات السياسية فى الجنوب من قبيلة إلى أخرى كالرثّ مثلاً عند الشلك، وصانع الأمطار عند الدينكا والبارى ... الخ

والمجتمع فى الجنوب مجتمع قبلي، و يشكل جماعة بشرية مازالت تنقصها عوامل الوحدة وتتميز بالآتى :ــ

(١) الولاء لزعامة القبيلة.
(٢) تعدد اللغات.
(٣) هيمنة الأديان المحلية وقيمها الاجتماعية.
(٤) انخفاض مستوى الدخل بالنسبة للفرد.

ومما تقدم ذكره، ورغم التباين فى المجموعات وتعدد الثقافات واللغات والعادات والتقاليد الخ.. فإن الأمل معقود فى أن ينهض أبناء الجنوب بأقاليمهم المختلفة، التى تتميز بتربتها الخصبة وأمطارها الغزيرة وثرواتها الغنية وطاقاتها الفتية وذلك لن يتأتىــ بالطبعــ بسهولة إلا فى إطار التخطيط السليم والاستقرار التام.

محمد عمر موسى

دراسة بمعهد الدراسات الأفريقية والاسيوية ١٩٨٥م.

الجزء الأول



الفصل الأول

من السَّالمية إلى جوبا



كـان ذلـك فى أحـد أيـام شـهـر سـبـتمبر (أيلول) عام ١٩٧٤ ، عندما وجدت نـفسى لأول مـرة فـى الخرطوم قادماً إليها من الكويت عن طريق القاهرة ، لأبدأ أول مـهـمـة لى بعيداً عن الوطن ، ولم تكن الخرطوم هي نهاية الرحلة ، وإنما كانت مجـرد محطـة أتـوقـف فيهـا يـوماً أو يـومين لأواصـل الـرحلة إلى هناك .. إلى جنوب السُّودان .

كـانـت المـهمة التى كلفت بها ، هي أن أكون مديراً لمكتب دولة الكويت فى جوبا .

ولم تـكـن لديَّ أيّة فكرة عن السُّودان ؛ شماله أو جنوبه ، كل ما سمعته أننى سـأرى عَـالَـمـاً بـدائـيـاً ، ومع هذا فقد قبلت المهمة . كانت بنفسى دوافع متباينة جـعـلـتـنـى لاأتـردد .. دوافع عامة وأخرى خاصة ، فقد علمت أن ليس هناك ثمة وجـود عـربـى فى جـنـوب الـسـودان ؛ لا فى شـكـل قـنـصلية ، أو حتى بعثة عربية مقيمة ، سوى مكتب دولة الكويت .

إذاً سـوف أتـعـرف هـنـاك على جزء من وطننا العربى الذى لانعرف عنه نحن أبناء الخليج العربى إلا القليل . وكنت فى شبابى من هواة مشاهدة أفلام طرزان ، وهـأنـذا سـوف أرى بـعـد أيـام قليلة غابة طرزان على الطبيعة . أما الدوافع الخاصة فـكـانت بالنسبة لى أهم من الأولى ، ذلك أن مرتبى سوف يتضاعف مما سيخفف عـنـى أعـبـاء ديون أثقلت كاهلى ، وهذا فى حد ذاته فرج من الله لايجب التفريط فيه .

وهـكـذا وجـدت نـفـسـى فى الخـرطـوم ، بـعـد غـروب شـمـس يوم الثانى والعشرين مـن سـبـتمبر (أيلول) عام ١٩٧٤ ، قادماً إليها من القاهرة ، ولأول مرة أجد نفسى

فى عالم جديد، مبتدئاً حياة لا أعرف معالمها بعد، وفيما كانت سيارة سفارة الكويت، وهي تعبر بنا شوارع الخرطوم الهادئة ــ أنا وزميلين من أعضاء السفارة هما أحمد الدواس ومحمد الصانع ــ إذ بى أجد نفسى مع سكون الأشجار ومنظر النيل وقد انعكست على صفحته الاضواء، أستعيد ذكرى سنوات الكفاح فى الكويت منذ أن ولدت عام ١٩٣٤ فى منطقة الصالحية بالقبلة.

* * * * *

كان جَدِّى ــ رحمه الله ــ يمتلك بيتاً كبيراً فى منطقة الصالحية، يعد من البيوت الكبيرة المعدودة فى ذلك الوقت. تربيت بين يدي أمى ــ رحمها الله ــ ووالدى أطال الله فى عمره، وفى الخامسة من عمرى ألحقنى بمدرسة (المُلاَّ محمد الخنيني)، التى يُدَرِّسُ فيها بنفسه القرآن الكريم ومادّتَيْ العربى والحساب، وقد استطعت خلال فترة وجيزة لاتتعدى ثمانية أشهر تلاوة القرآن تلاوة سليمة، ولم أكن أحفظه بل أقرأه جيداً. وكان هناك تقليد، وهو أنه بعد أن يتم الولد الصغير قراءة القرآن، يطوف به أستاذه وزملاؤه الصغار فى الحي، بعد أن يلبسوه ملابس الرجال (العقال المقصب والعباءة والبشت) و يردّدون عبارات هي (الحمد لله الذى هدانا، بالدين والإسلام اجتبانا، سبحانه من خالق سبحانه، أول ماعلّمنا هَجّانا، علّمنا معلم ماقصّرا، ردّده فى درسه وكررا .. إلخ)، وألبسونى تلك الملابس وطافوا بى وسط زغاريد النساء، ثم ألحقنى والدى بعد ذلك بكتّاب آخر أكثر تطوراً، إسمه مدرسة (مُلاَّ مَرشد)، وقد عُرِفَ مديرها بالشدة والقسوة، و يستعمل (الَفلَقَة) كثيراً فى تأديب التلاميذ، وكان معى تلاميذ من الأحياء المجاورة، هم الآن من رجالات الكويت. وفى هذه المدرسة درست إلى جانب القرآن، الفقه والتوحيد وتعلمت الحساب والكتابة والقراءة فى فترة وجيزة قبل أن أتم الثامنة من العمر.

علمت فيما بعد أن جَدِّى قد تُوفِّيَ وعمرى عامان. فباع والدى المنزل لأول مجلس شكِّل لمعارف الكويت (وهو بمثابة وزارة التربية والتعليم)، كان المنزل كبيراً يضم أكثر من عشرين غرفة، به قسم للضيوف وآخر للسكن ومرافق صحية

كثيرة ، باعه بخمسة آلاف روبية هندية .[1] وحوّله المجلس إلى مدرسة ابتدائية ومتوسطة للبنين سُمِّيَ بالمدرسة (القبلية) ، بعد ذلك نقلنا والدى إلى منزل فى المرقاب بجوار مسجد الحُمُود ، وفى خلال ست سنوات تنقلنا إلى ثلاثة منازل ، كلها لاتبعد كثيراً عن المنزل الأول . تزوج والدى خلالها امرأة ثانية ، ثم انتقلنا إلى بيتٍ بناه فى منطقة الرميثية المعروفة الآن ، ولم يكن بها سوى بَيْتَيْن اثنين ، هما :ــ

بيت محمد بن رشيد ،

وبيت أبى ، الذى أقام بجانبه مزرعة كبيرة تنتج كل أنواع الخضار . وأذكر أنّى وشقيقاتى الأربع (أكبرنا كانت فى العاشرة) شاركنا فى بناء ذلك البيت ، الذى كانت مادة بنائه الرئيسية من الطين ، لأن والدى كان فى أيام الجمعة (العطلة الأسبوعية) يشغل وقت فراغه فى البناء ، حيث يقضى العمال الحقيقيون عطلة ذلك اليوم مع ذويهم .

كان قد مرّ على افتتاح المدرسة القبلية (بيت جَدّى) سنتان . فألحقنى والدى بها كي أستفيد من الأسلوب التربوى الحديث ، وفقاً لمنهج وزارة المعارف فى ذلك الوقت (التربية حالياً) .

فوالدى ميسور الحال ، يمتلك بيوتا وسيارة فورد من طراز ٣٦ صالون تندة ، وعدداً من الحمير ، ومزرعة كبيرة وأراضى كثيرة . وكان يُفَضِّلُ أحيانا ركوب الحمار بدلاً من السيارة ، لينقله من الرميثية ، إلى الكويت ، ليوصلنى إلى المدرسة وهو فى طريقه إلى عمله بإدارة الأيتام ، والمشهد الذى لايغيب عن ذهنى حتى الآن ، هو أنه عندما كان والدى يركب حماره ، يدعنى أهرول خلف الحمار ، لمسافة أربعة عشر كيلو متراً كل صباح ، وهي المسافة بين الرميثية والعاصمة ، وأذكر أنه فى أيام الشتاء القارس كنت أرى زملائى الطلاب يرتعدون من البرد ، بينما أجلس أنا فى مدخل المدرسة وسط التيار الهوائى لأجفف عرقى بعد تلك الهرولة .

---

(١) فى ذلك الوقت كان يمكن للمرء أن يشتري داخل العاصمة أرضاً أو منزلا صغيراً بثلاثمائة روبية فقط (عشرون ديناراً) .

واصلت دراستى حتى الصف الخامس الابتدائى، الذى يعادل فى هذا الوقت الثالث المتوسط، وبعد امتحان نصف السنة أصبت بحروق فى قدمى اليسرى، أقعدتنى شهرين عن الدراسة وعن السير، وظللت حبيس المنزل. وبعد أن شفيت وجدت أبى قد صرف نظره عن استكمال دراستى، رغم أن ترتيبى كان الأول دائماً. وقد ذهب الأساتذة محمد زكريا ـ الذى كان مديراً للمدرسة ـ وابراهيم عبدالملك وبدر السيد رجب الى والدى وحاولوا معه.. ولكن دون جدوى لأنه أراد لى أن أكون مساعداً لسائق سيارته اللورى التى اشتراها لتعمل على نقل الركاب بين العاصمة الكويت والقرى المجاورة لها، مثل النقره، حولّي، السالمية، (كانت تسمى الدمنه) الرَّاسْ، البِدِعْ والنْجِفَهْ، وهي قرى متناثرة حول الكويت، أكبرها حَوَلّي، وكان بها نحو خمسمائة منزل، تليها السَّالِمِيّة، التى غالبية سكانها من قبيلة العوازم(١)..

كانت مهمتي هي جمع الإيراد من الركاب، وتعلمت من السائق فنون إصلاح السيارة وفك أجزائها وإصلاحها. ثم بدأت أسوق سيارة والدى الصغيرة الخاصة خِلسةً عندما ينام ظهراً، وكان عمرى حينها أربعة عشر عاماً. ولأنى قصير القامة، فقد كنت أضع خلف ظهرى وتحتى مخدتين، لكي تصل قدماي إلى المِدْوَسَيْنْ حتى يظهر رأسى خلف المقود، فتعلمت بسرعة. وبدأت أيضاً أقود اللورى. واشترى والدى سيارة (دودج بيك أب وانيت) لينقل بها ركاباً فى أوقات فراغه، فَأُصِيْبَ يوماً حيث وقع على قدمه برميل فارغ من السيارة، قطع حذاءه وأصبع قدمه اليمنى الكبير. أقعده ذلك الحادث عن عمله ستة أشهر، حيث وجدت نفسى مضطراً أن أعمل بتلك السيارة لنقل الركاب، وعمرى لم يصل بعد السادسة عشرة، ومع هذا لازلت أضع تحتى وخلف ظهرى مخدتين كبيرتين، لأتمكن من الجلوس والقيادة براحة تامة، وكثيراً ماأوقفتنى الشرطة لصغر سنى وعدم وجود رخصة قيادة معى، فكتب لى والدى رسالة إلى الشيخ صباح السالم أمير الكويت الراحل ـ رحمه الله ـ الذى كان رئيساً للشرطة عام ١٩٥٠.

---

(١) من القبائل الكبرى فى الكويت.

عندما رأى الشيخ صباح قِصَرَ قامتي وصغر سنِّي، أشَّر على طلب والدي أنه عليَّ أن أراجع بعد سنتين، فما كان مني إلاَّ أن عدت لمقابلته بعد أسبوع واحد فقط، وكان يجلس معه في مكتبه كل من عبدالله المُلاّ وعبدالله السديراوي وسعود اليوسف(١)، وبادرني بقوله: ـ ألم أقل لك عد لمراجعتي بعد سنتين...؟ فرددت عليه بعفوية تامة قائلا: ـ بالنسبة لي لقد مرت السنتان.. فاستغرب، وسأل كيف؟ قلت ببراءة: ـ إذا كنت تستطيع أن تصرف على بيتنا حتى يشفى والدي، أنتظر حتى عشر سنوات، أما في ظروفنا الحالية هذه، فأنت تعلم أن والدي مصاب، وأنا كبير الأسرة، وشرطة المرور تضايقني لعدم وجود رخصة قيادة معي. هنا تدخل عبدالله المُلاّ في الحديث موجهاً كلامه لي: ـ

ـ أنت مازلت قصيراً ولاتستطيع حتى أن تطول مِدْوَسْ السيارة.
ـ رددت: ـ أنت أيضاً قصير، ولكنك أطول مني بإسمك.
ـ فوقف المُلاّ بجواري ليتحقق مما قلته، ولم يكن يزيد طوله عني كثيراً.
ـ ضحك السديراوي وقال: ـ لقد انتصر عليك. وسعود اليوسف قال: ـ امتحنوه.
والمُلاّ بعد أن جلس قال: ـ إذا نجحت، تعال اشتغل عندي بـ٢٠٠ روبية في الشهر.

كان السديراوي هذا، رغم مكانته الاجتماعية، هو الذي يمتحن السواقين الجدد بدون مقابل. يقوم بهذا بحكم صداقته التي تربطه بالشيخ صباح. وأجرى لي وستة آخرين امتحاناً صعباً اجتزته بنجاح، وأصبحت سائقاً معترفاً به يحمل رخصةً رسمية من إدارة البلدية(٢).

---

(١) توفاهم الله جميعاً وكانوا من كبار شخصيات الكويت.

(٢) إدارة البلدية هي التي كانت تقوم في ذلك الوقت بصرف إجازات القيادة بعد أن تنتهي جميع الإجراءات في ادارة الشرطة.

بما لوالدى من علاقة حميمة مع الشيخ[1] عبدالعزيز حمادة قاضى المحكمة فى ذلك الوقت ، الذى كان فى حاجة لسائق يعمل مع أسرته ، فقد بعث بى لأعمل سائقاً ليلاً ونهاراً ، وكان ذلك سنة ١٩٥٠ ، وقد رعتنى تلك الأسرة الكريمة كأحد أبنائها .

لم أكن أذهب إلى بيتنا إلا قليلاً ، وقد أتاح لى وجودى فى منزل المرحوم القاضى القراءة ، لوجود مكتبة كبيرة لديه ، فاستفدت منها كثيراً ، وبقيت فى هذا العمل لمدة عشرة أشهر ، ألحقنى والدى بعدها بعمل فى الإدارة التى كان يعمل بها (إدارة الأيتام) كمساعد كاتب ، كان والدى يعد من كبار محاسبى الكويت حتى أنه فتح مدرسة ليلية يعلّم فيها الحساب ومسك الدفاتر ، و يتميز بخط جميل وأسلوب جيد ، وكان أيضاً يستطيع حل المسائل الحسابية بسرعة لفتت الأنظار إليه ، لذلك كان التجار يلجأون إليه عندما يعجزون عن حل مسائلهم التجارية ، حتى المحاكم كانت تستعين به لحل مثل تلك المشاكل . ثم ألحقنى بوظيفة بإدارة المعارف فى الشهر السادس من عام ١٩٥١ .

فى صبيحة أحد أيام ربيع عام ٥٢ ، وعمرى نحو سبعة عشر عاماً ، وفيما كنت أستعد للذهاب إلى العمل كالعادة ، إذ بوالدتى تقول لى :ـ

ــ عد من عملك اليوم مبكراً .

ــ لماذا يا أمى ؟ !!

ــ لأنك سوف تتزوج هذه الليلة .

ــ هذه الليلة ؟ !!!

ــ ومن ابنة عمك صالح ..

ــ رددت بعصبية :ــ ابنة عمى صالح ؟ !! هذه التى لم تبلغ بعد من العمر اثني عشر عاماً .. ؟ !!

ــ ردّت بهدوء ، وهي تبتسم :ــ وأنت كم عمرك ؟ ثم إن هذا ماقرره والدك .

---

(١) كل قاضٍ فى الكويت يلقب أو يطلق عليه إسم شيخ وكذلك أفراد الاسرة الحاكمة يلقبون بذلك حتى لوكانوا صغاراً فى السن .

ولم أكن رأيت ابنة عمي منذ أن كانت فى السابعة ، لأن التقاليد فى ذلك الوقت تقضى بعزل البنات عندما يبلغن هذه السن ، حيث يمنعن من الخروج ولا يلتقين بالأولاد أو الرجال أو حتى النساء الغريبات ، فربما تكون إحداهن قد جاءت خاطبةً ، ويسمح لهذه الطفلة فقط برؤية النساء والفتيات من نفس العائلة ، وعندما كنت أذهب الى منزل عمى[1] قبل وفاته ـ رحمه الله ـ لاتتاح لى رؤيتها فهي تختفى دائماً بمجرد أن تعلم أنى فى المنزل .

كنت صغيراً بلا شنب .. مجرد خط أخضر كزغب يعلو الشّفة العليا ، وكنت محباً للقراءة وخاصة الكتب التى تصوِّر البطولات مثل قصة عنترة وعبلة ، وأبى زيد الهلالى ، والزير سالم ، كما قرأت ألف ليلة وليلة ، وقصص أرسين لوبين التى كانت شائعة فى ذلك الوقت . وعكفت على قراءة مايكتبه الأدباء من عرب وأجانب . وفى المساء كنت أستعين بضوء لمبة الجاز . ثم تطورت قراءاتى لتشمل الشعر العربى والفلسفة والفقه وعلم النفس والتاريخ العربى والاسلامى ، وقد وجدت فى القراءة تعويضاً عما افتقدته فى الدراسة .

كانت وظيفتى الجديدة فى مدرسة (ثانوية الشويخ) التى كانت تحت الإنشاء ، مسئولاً مع آخرين عن تسجيل نحو ألف عامل من الذين يعملون فى بناء تلك المدرسة ، وكان العمل يمتد من بعد صلاة الفجر إلى ماقبل الغروب أحياناً ، وأعود فى المساء إلى بيتنا الجديد الذى بناه والدى فى السالمية حيث أجد مهاماً أخرى فى انتظارى .

إن هذا البيت الذى يمتلكه والدى كبير جداً وقد فتح فيهِ محلات تجارية لحسابه ، منها محل بقالة وجزارة ومخبز ، بالإضافة إلى المَزارِعْ التى يمتلكها ، والعمل الذى يشغله فى إدارة الأيتام وسيارات نقل الركاب . وفى هذا العام ـ ٥٤ ـ تزوج للمرة الثالثة . لذا فقد تضاعفت مسئولياتى ، فقد كنت بعد صلاة العشاء أقوم بإعداد الشاى والقهوة لضيوفه الذين اعتادوا زيارته فى ديوانه ، ثم أحاسب

---

(١) توفي رحمه الله فى ربيع عام ١٩٥١ إثر حادث ، حيث صدمه حصان هائج يجر عربته خلفه فى وسط صفاة الكويت ، أى أن زواجنا تم بعد وفاته بسنة .

العمال فى المحلات التجارية والسواقين . وفى أوقات فراغى أعمل ميكانيكياً لسيارات والدى مع السواقين؛ أنظف « البلاتين والبوجيهات » وأغيِّر الزيت ، وأذهب بمن يمرض من الأهل إلى المستشفى للعلاج ، لذا كنت آوى إلى فراشى متأخراً ، وأستيقظ مبكراً مع آذان الفجر، لأبدأ برنامج يومي التالى . وحتى زوجتى كانت لاتقل عنى تعباً ، فهي مثلى مشغولة طوال اليوم فى أعمال المنزل ، لذا لم أكن أراها إلاّ يوم الجمعة (العطلة الأسبوعية) .

كان طبيعياً أن يكون لهذا الجهد آثاره على صحتى ، فشحب وجهى وهزل جسدى .

إزاء ذلك كان لابد من تغيير هذا الواقع ، فاستأذنت والدى فى مساء يوم من أيام شهر أكتوبر عام ١٩٥٤ بأن أخرج من البيت وأستقل بنفسى ، وخرجت من عنده ، ولم يكن فى جيبى فلس واحد أدفعه حتى للمواصلات .

كانت الساعة حوالى التاسعة والنصف مساء يوم من أيام شهر أكتوبر ١٩٥٤ ــ أوقفت سيارة أجرة جاءت إلى المنطقة مصادفةً ، وركبت مع آخرين ، وكان عليَّ أن أدفع روبية هندية (تعادل خمسين فلساً كويتياً) قيمة الأجرة ، فقد كنت ذاهباً إلى منزل عمتى فى الكويت . طلبت من السائق بعد أن أوصل الآخرين إلى محطة الوقوف ، أن يوصلنى الى المنزل مقابل ضعف الأجر . طرقت باب عمتى ، وكانوا نياماً ، فاستيقظوا ، وأخذت منهم الأجرة وأعطيتها للسائق ، وأقمت معهم . وكان عليَّ بعد هذا أن أستأجر بيتاً خاصاً فتوجهت إلى منزل زوج أختى الكبرى ، وكان به ديوان ملحق ببيته فأخلاه لى وأقرضنى مبلغا من المال فاستأجرت سيارة أحضر بها زوجتى من بيت والدى الى البيت الجديد .

وبعد انتقالى إلى بيتي المستقل ، اقترضت ثلاثة آلاف روبية من إدارة المعارف ، واشتريت أثاثاً ، كما اشتريت سيارة مستعملة بالأقساط ، حيث حولتها الى سيارة أجرة ، فكنت بعد العمل الحكومى أعمل عليها حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً ، وبذلك استطعت أن أوفر للبيت احتياجاته وأسدد الأقساط .

بهذا تحقق لي نوع من الاستقرار والاستقلالية، وتفرغت لعملى وللقراءة ولتربية ابنتى وابنى، وانتقلت بعد ذلك إلى منزلى الحالى فى السالمية عام ١٩٦٠.

* * * * *

فى أثناء ذلك وجدت نفسى رياضياً دون أن أعلم، فلم يكن لدي ميل لأي نشاط رياضي، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن كرة القدم، بل كنت أندهش لماذا يهتم الناس بالكرة إلى هذا الحد. وذات يوم فى صيف عام ١٩٦٣ فوجئت بعدد من الأصدقاء الشباب يطرقون باب بيتى بعد صلاة المغرب، ليخبرونى أنهم قرروا إنشاء ناد رياضى فى منطقة السالمية، وأنهم اختارونى لأكون أحد المؤسسين، ضمن مجموعة من الشباب بلغ عددهم سبعة عشر شاباً، حاولت الاعتذار متعللاً بعدم درايتى بالرياضة، فلم يفلح اعتذارى، فأصبحت واحداً من مؤسسى نادي السالمية، ووجدتنى أتابع تسجيل وإشهار النادى لدى وزارة الشئون الاجتماعية. ثم عقدنا أول اجتماع فى منزلى للمؤسسين، بعد إشهاره فى الجريدة الرسمية. وفى هذا الاجتماع تشكّل أول مجلس إدارة للنادى، فاختار المجتمعون الشيخ(١) سالم الصباح رئيساً فخرياً، وعبدالعزيز الرشيد رئيساً للنادى، وجاسم الوقيان أميناً للصندوق، وأنا أميناً للسر.

كانت بداية النادى هكذا بلا لاعبين، بلا إمكانيات، بلا مقر، ورغم ذلك كان على النادى أن يشارك فى الموسم الرياضى بعد ثلاثة أشهر، وقد تم ذلك.

لم يقتصر نشاطى فى ذلك الوقت على نادى السالمية، فقد كنت مشدوداً إلى عالم المسرح، ووجدت أنّ حصيلة ماأقرأه، من كتب قد أثمرت فى داخلى إحساساً بعالم الفن والأدب، ووجدتنى أتعرف على الفنانين من كُتّاب ومخرجين وممثلين، وكتبت ثلاث مسرحيات من ثلاثة نصول، وثلاث أخريات من فصل واحد، كما كتبت للإذاعة حلقات أُسبوعية، وأعددت نصوصاً مسرحية إعداداً إذاعياً.

---

(١) كلمة الشيخ فى الكويت لاتعنى الرجل كبير السن، بل تطلق على كل فرد من الأسرة الحاكمة حتى لوكان عمره سنتين.

لم يمنعني انخراطي في الحركة المسرحية من الإستمرار في وظيفتي، أو يحجبني عن النشاط الرياضي الذي استوعبته تماماً وأحببته، فرشحت من قبل الأندية لأن أكون عضواً باتحاد كرة السلة، وانْتُخِبْتُ أميناً لصندوق الاتحاد، كما انْتُخِبْتُ عضواً في اللجنة الأولمبية الكويتية وأميناً لصندوقها.

كانت هذه المرحلة بالنسبة لي مرحلة انطلاق، وبها بدأت أعرف طريقي. لكن الرياح أتت بما لاتشتهي السفن، فقد أُصيبت زوجتي في عمودها الفقري في يونيو ١٩٦٧ وهي في ساعات الولادة. كانت أخبار الهزيمة التي لحقت بالأمة العربية، تصل إلى أسماعها، وهي في أدقّ اللحظات التي تمر بها أي سيدة في ساعات المخاض، وقد أثَّر ذلك على نفسيتها وعلى حالتها، فأصيبت في عمودها الفقري، وعلى الفور نقلت إلى مستشفى العظام، وبقيت فيه لمدة ستة أشهر لاتنزل من سريرها إلا قليلاً، فتقرر علاجها على نفقة الحكومة في لندن، وذهبت مرافقاً لها، وأجريت لها عملية جراحية هناك لم يكتب لها النجاح، وأقمت معها أربعة أشهر، ثم عدنا إلى لندن في العام التالي لاستكمال العلاج، وبقيت معها أربعة أشهر أخرى، ثم انتقلت معها إلى باريس، فأنفقت كل مامعي، وتكاثرت عليَّ الديون، رغم أن علاج زوجتي كان على نفقة الحكومة، إلا أني كنت أنفق على أكثر من جهة؛ بيتي الذي فيه والدتي وأبنائي في الكويت، وزوجتي التي في المستشفى، وعلى نفسي.. مسكناً ومأكلاً ومواصلات..

وفي عام ١٩٧٢ انتقلت من وزارة التربية والتعليم، التي كنت رئيساً لأحد الأقسام فيها، إلى وزارة التخطيط مراقباً للشئون الإدارية. مكثت فيها عامين، انتدبت بعدها للعمل لدى الهيئة العامة(١) للجنوب والخليج العربي. وكنت قبل ذلك وقبل أن تفاجئني أزمة ١٩٦٧، أعتذر عن قبول وظائف خارج الكويت، لأسباب، منها صغر سني. ورغبة والدتي ــ رحمها الله ــ بالبقاء في الكويت. ومن هذه الوظائف التي اعتذرت عن قبولها؛ أمين

(١) رشحني لهذا العمل الأستاذ عبدالوهاب الزواوي الذي كان يشغل في ذلك الوقت مديراً لإدارة النشاط المدرسي في وزارة التربية.

خزينة البعثة الكويتية فى القاهرة عام ١٩٥٨ ، كما اعتذرت عن قبول وظائف كثيرة لأنها تتعلق بالخزينة منها أمين صندوق لوزارة الشئون الاجتماعية ، وأمين صندوق لوزارة الخارجية عام ١٩٦١ ، وأمين صندوق لوزارة المواصلات . فكنت أبتعد عن هذا العمل لحساسيته ، لأنه عرضة للنقص ، أو الزيادة ولأنه لامجال فيها للترقية إلى الأعلى .

كنت حريصاً ــ رغم كل هذه المتاعب ــ على أن أستكمل دراستى والتحق بالجامعة ، فعدت إلى الدراسة الليلية عام ١٩٦٤ ، وحصلت على الثانوية العامة (منازل) من بيروت بعد ثلاث سنوات ، وعندما قدمت أوراقى للالتحاق بجامعة القاهرة طلب مني أن أعيد الثانوية العامة فى القاهرة ، فانتسبت لإحدى المدارس المصرية عام ٦٨ ، لكن الإمتحان أُلغىَ فى هذا العام الدراسى ، بعد أن أشيع أن بعض الأسئلة قد تسربت ، ومرة أخرى عاودت الحصول على الثانوية العامة عام ١٩٧٣ من البحرين . وفيما أنا أواصل تعليمى ، جاءني هذا العرض للعمل خارج الكويت ، فلم أتردد وأسرعت بقبوله ، كمدير لمكتب دولة الكويت فى سلطنة عمان ، ولم يتم فتح المكتب ، وبقيت بالهيئة ثلاثة أشهر ، كُلِّفت خلالها أن أقوم بأعمال أمين الخزينة (الصندوق) ، فتذكّرت الوظائف السابقة التى عرضت عليَّ ورفضتها ، وجدت نفسى محاصراً بِقَدَرى ، كارهاً غير راغب ، ورغم أنها أقل بكثير من وظيفتى فى وزارة التخطيط ، إلا أنِّى قبلتها لأنها مؤقتة . بعدها بشهرين استدعانى الأستاذ السقاف العضو المنتدب إلى مكتبه ، وعرض عليّ السفر إلى جوبا فى جنوب السودان ، كان ذلك فى أوائل سبتمبر (أيلول) عام ١٩٧٤ .

كان مدير المكتب هناك قد طلب إعفاءه بعد أن عمل فترة ، فلم أتردد .. ووافقت على الفور ، حتى لوكان فى مثل تلك المنطقة النائية ، التى لا أعرف عنها شيئاً ، وإزاء قبولى المفاجىء ، أطلعنى على مجموعة صور ، فرأيت فيها أناساً عراة ، وحراباً ، وغابات ، وعششاً متناثرة ، وصغاراً يقضون حاجتهم حولها ، وأكواماً من القمامة ، ومستنقعات ، فلم تُثْنِنى . ورحت أهيىء نفسى للمستقبل القادم ، وأسأل من لديه فكرة ولو بسيطة عن جنوب السودان ، ليطلعنى على جوانب الحياة هناك .

كان هناك واحد من الذين زاروا مكتب الكويت فى جوبا ، هو المهندس عبدالمنعم عرفه[1] ، فى نحو السبعين من عمره ، من أبناء مصر ، قال لى إن المنزل الذى سأسكن فيه عبارة عن قصر كبير ، تراه من الجو كما لو كان البيت الأبيض الأمريكى ، فسألته : كيف هو؟ قال إنه يشبه الشاليهات الكويتية على الخليج لقضاء العطلة الأسبوعية ، وهو عبارة عن خمس غرف ؛ اثنتان منها للمكتب ، وثلاث للسكن ، وسقفه من الزنك المبّطن من الداخل بقماش (الدّمورية) كي يعزل الحرارة ، نوافذه واسعة وكبيرة ، وقضبانه متباعدة ، فقلت له : — كيف يكون إذن بيتاً كبيراً وأنت تصفه هكذا ، فقال : — لأنه البيت الوحيد المبني فى جوبا حيث لاتجد سوى الأكواخ والعشش ، وهناك تنتشر الأمراض ، مثل الملاريا ، والدوسنتاريا ، والجذام ، والبلهارسيا ، ومرض النوم ، وأضاف قائلاً : — إنَّ قضبان النوافذ الحديدية متباعدة ، ويمكن أن يقفز منها نمر إلى داخل البيت ليلاً ، فسألته وهل توجد نمور تقفز على الناس فى الليل هكذا .. ؟! قال : — نعم ، إنها موجودة بكثرة ، وهناك وأنت فى المنزل ، تسمع زئيرَ الأسود .

كل ماسمعته لم يُغَيِّر من موقفى ، بعد أن اتخذت قرارى بقبول العمل هناك .. حجزت لى الهيئة مقعداً للسفر إلى القاهرة ، ومنها إلى الخرطوم ، حيث وصلتها مساء الخميس ٢٢ سبتمبر ١٩٧٤ . وفيما كنت أطل من نافذتى على حياتى ، إذا بأحد الزميلين يقطع عليَّ ذلك ، و يطلب مني النزول فقد وصلنا إلى الفندق .

كان عليَّ أن أقضى يومين قبل سفرى إلى جوبا ، فى انتظار إذن بالسفر من وزارة الخارجية السودانية ، لأنه لم يكن يسمح بالسفر فى ذلك الوقت إلى الجنوب إلاّ بتصريح مسبق . بعد ساعة رنّ جرس الهاتف فى غرفتي بالفندق ، وكان المتحدث محمد سالم البلهان ، سفيرنا فى الخرطوم ، وعرفت أنه يتحدث من صالة الاستقبال ، وأنه جاء يدعونى لمرافقته لنتناول العشاء معاً فى مكان آخر ، وكانت هذه أول مرة أتعرف عليه فيها .

(١) أصبح من أعز الأصدقاء وكم من ليلة سهر معى فى جوبا حتى الصباح أمام طاولة الشطرنج فعلمت منه أنه إنما قال ذلك لى كى يثبِّط من عزيمتى حتى أرفض ، لأنه كان يحب المدير السابق و يتمنى استمراره .

فى صبيحة اليوم التالى ، وكان يوم الجمعة ، خرجت إلى الشارع كي أتعرف على المدينة ورحت أتأمل الجانب الآخر من النيل الأزرق . كان المنظر غاية فى الجمال الطبيعى الهادىء ، وقد ظهرت بعض الجزر فى النيل ، وبان من مكان غير بعيد إلتقاء النيلين الأزرق والأبيض ، وأمام مدخل الفندق امتلأ المكان بالباعة الذين يفترشون الأرض ، يعرضون سلعهم على النزلاء والسائحين ، وهي سلع تلفت نظر أي قادم من بلد أجنبى ، لأنها تعتمد على مصنوعات يدوية تعكس آثار البيئة مثل جلد الأصلة (أفعى ضخمة) والتماسيح والنمور وحيوانات مصنوعة من العاج وبيض النعام ، كلها أشكال جميلة ذات طابع أفريقى . وذكّرتنى سلع الباعة بما سمعته عن جنوب السودان المليء بالأفاعى والنمور والفِيَلَة ، فتذكرت أننى سوف أرى هذه الحيوانات حيّة على الطبيعة غداً السبت ، لأن الإذن بالسفر إلى جوبا ، كانت السفارة قد استخرجته لى قبل وصولى .

وفى الطائرة كانت عبارات المهندس عرفة تطنّ فى رأسى ، فلم أكن أتصور كيف يقفز نمرٌ إلى داخل البيت ، أو كيف تكون الحياة مليئة بالحيوانات الوحشية والغابات ، حتى خُيِّل إليّ أن جنوب السودان مجرد غابات مثل تلك التى نراها فى أفلام طرزان ، أشجار كثيفة لايتخللها ضوء الشمس ، والقِرَدَةُ تقفز على أغصانها ، والحيوانات الوحشية تمرح فيها . ولعل هذه الصورة التى فى ذهنى ، جعلتنى أختار مقعداً مجاوراً لنافذة الطائرة الزجاجية ، لأرى العالم من الجو .. الطائرة من طراز فوكرز، ذات محركين هوائيين ، وسعتها لاتزيد على أربعين راكباً ، تقطع المسافة من الخرطوم إلى جوبا فى ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وهي مسافة تقدر بنحو ألف وستمائة كيلو متر .

رحت أتأمل الأرض من الطائرة ، فلم أكن أرى سوى سهول خضراء منبسطة ، وروافد نهرية .. قطع تأملى صوت قائد الطائرة ، وهو يعلن أننا نمر الآن فوق مدينة ملكال ، وهي إحدى المدن الرئيسية فى الجنوب . وكانت الطائرة قد قطعت ساعة ونصف الساعة ، ومعنى ذلك أن ملكال تتوسط المسافة بين الخرطوم وجوبا . وظلت الصور الأرضية التى ألمحها من النافذة كما هي ، أراض خضراء ، وروافد نهرية ، بدت من أعلى أشبه بعروق نافرة فى جسم إنسان ، وبعد فترة من

الوقت جاء صوت مضيفة الطائرة ليعلن أننا نقترب من مطار جوبا ، وأنّ علينا ربط الأحزمة ، وكلما اقتربت الطائرة من الأرض ، كنت أوجه نظري إلى الخارج فى محاولة لأرى تلك الحيوانات التى يعتدى فيها القوي على الضعيف ، لكنني لم أر سوى قطعان من الأبقار تخيلتها فى أول الأمر حيوانات وحشية . وظهرت معالم مدينة جوبا ، ولم أر ذلك البيت الأبيض ، وكل مارأيته عششاً (قطاطي) وبعض المنازل ذات الدور الواحد تبدو وسط الأشجار المتناثرة ، وأرضاً خضراء تتخللها آثار عجلات سيارات ، ورأيت المطار؛ مبنى صغير وأمامه أناس ينتظرون وصول القادمين .

كانت الساعة حوالى الحادية عشرة من صباح يوم السبت ٢٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٤ عندما وصلنا إلى جوبا ، الطقس جميل فلا هو بالبارد أو الحار، وغيوم متناثرة فى السماء تسمح لأشعة الشمس أن تتسلل إلى الأرض . ونزلت من الطائرة مع من نزلوا .. وجوه سمراء بقامات طويلة ، يُحَيّون بعضهم بعضاً ، منهم مَنْ يرتدى ملابس تشبه ملابس رجال الجمارك .. إنهم الموظفون العاملون بالمطار ، سرت مع هؤلاء وأنا أتأمل ؛ وجوههم شديدة السواد ، يتضاحكون و يبتسمون و يتبادلون التحية ، ولم أر بين المستقبلين عارياً كما تخيلت ، ولاأعرف إن كانوا سيفهمون اللغة العربية إن أردت التحدث بها معهم أم لا ؟ دخلنا الصالة الصغيرة ، وسرت بينهم شارداً كالتّائه ، وفجأة ًوجدت يداً تربت على كتفى ، وصوتاً ينادي من الخلف ، ونظرت فإذا بشاب يرتدى الدشداشة الكويتية (الجلابية) بدون الغترة والعقال ، وسألنى : ــ

ــ أنت عبدالله ؟

رددت على الفور: ــ

ــ جاسم ؟

إنه جاسم الرشيد مدير مكتب الكويت فى جوبا الذى سأحل محله ، ولم أكن قد التقيت به من قبل ، وقدم لى اثنين من العاملين بالمكتب ؛ محمد ، ملاحظ المبانى وهو من اليمن الشمالى ، ورمضان ، فراش بالمكتب ..

على الفور تبدّد فى داخلى الشعور بالغربة بعد أن وجدت من يستقبلنى كسائر ركاب الطائرة.

كانت الصالة الصغيرة لاتزيد مساحتها على سبعة أمتار فى عشرة أمتار، على اليسار غرفتان؛ إحداهما لمدير المطار، والأخرى للحركة الجوية، وعلى اليمين غرفة الجمارك، وفى الخارج غرفة أخرى مكتوب عليها (في. آي. بي)، أى الغرفة المخصصة لاستقبال كبار الزوار.

بقيت فى الصالة إلى أن وصلت الأمتعة، ووضعناها فى سيارة المكتب، وهي جيب تيوتا، سقفها من المشَمَّع. وتوجهنا إلى المدينة على طريق مرصوف بالأسفلت، وبدت الأشجار خضراء باسقة، والمنازل متناثرة بالقرب من مبنى المطار. وعلى بعد نحو كيلو مترين بدت مدينة جوبا؛ بيوتها من دور واحد على الطراز العربى، ولم أر أناساً عراة، أو حيوانات وحشية، أو ثعابين تزحف على االأرض، أو قروداً على الأشجار، كما كنت أتخيل.. وراح جاسم يصف لى المدينة.. المبنى الكبير الذى على شمالنا من دور واحد، هو فندق جوبا، والأشجار التى فى ساحته، أشجار مانجو، أما الأشجار الباسقة الممتدة على طول الشارع، فهى أشجار تسمَّى (النيم)، والمبنى الذى على اليمين من دورين ويطل على ميدان صغير هو مقر الحاكم والمحافظ. وبعد قليل ظهرت مبان متجاورة، إنها مكاتب الأمم المتحدة.. بعدها انعطف شمالاً، وعلى بعد مائتى متر رأيت علم الكويت يرفرف فوق مبنى صغير.. إذن هذا هو القصر الأبيض، الذى وصفه المهندس بأنه يُرى من الجو، وهو لايكاد يرى من على بعد هذه المسافة.

ــ قال جاسم :ــ
ــ هذه جوبا، حمداً لله على السلامة.

الطقس رائع ونسمات لاتخلو من رطوبة، كل الناس يسيرون وقد ارتدوا الملابس العادية ولاشىء غير عادى.

وهكذا وصلت إلى مقر العمل، والبيت يبدو من الخارج مبنى مستطيلا، ليس له سور بل سلك شائك، لايمنع أى إنسان أو حيوان من الدخول، وانما فقط يحدد

موقع المبنى. كان أول مارأيته عندما فتح الباب، طاولة خضراء كبيرة، تشبه طاولة التنس (البنج بونج)، فوقها آلة كاتبة، وعلى الأرض سجادة ومساند قطنية وفوقها طاولة صغيرة، وعلى الجدران رؤوس أرانب وفئران محنطة، وعلى صدر الحائط صقر كبير مفرود الجناحين، عرفت من جاسم أنه يسمى (صقر الجديان)، وهو شعار السودان، كان قد اصطاده وحنطه ووضعه بالطريقة المرسومة فى شعار السودان. نوافذ المبنى عريضة، ذات قضبان متباعدة تسمح بدخول رجل نحيف أو حيوان، وليس لها نوافذ خشبية أو زجاجية. وفى الصالة باب يؤدى إلى غرفتين؛ واحدة منها بها سريران خشبيان، وعلى كل سرير (ناموسية) مرفوعة على عصا، ودولاب خشبى من ضلفتين، أما الغرفة الأخرى، ففيها سرير واحد عليه (ناموسية)، ونافذتها تطل على فناء المنزل الخلفى.. وفى زاوية الغرفة، طاولة صغيرة، وجهاز (سبرنج) مثبت فى الحائط، كان جاسم يستخدمه فى هواياته الرياضية، ويحتفظ بقطتين أليفتين؛ أطلق على إحداهما اسم (نوسة) والأخرى (سيامه).

خلال الفترة التى أمضاها جاسم فى جوبا، كان يمارس هواياته فى الرياضة والصيد والرسم وتربية الدواجن والحيوانات الأليفة، ويلعب الورق مع أصدقائه كوسيلة للتسلية، وهكذا صنع عالَمًا لنفسه.

عندما سألته عن غرفة المكتب، أشار إلى مدخل قريب من (صقر الجديان)، وتوقعت أن أجد بداخله المكتب وكل مايلزمه، فإذا به مجرد مخزن مليء بالصناديق الخشبية والخيام والمراتب، وعرفت أنها خاصة بالشيخ علي صباح السالم، الذي اعتاد أن يحضر إلى جنوب السودان فى موسم الصيد من كل عام، ليقيم معسكراً فى الغابة لمدة أسبوعين أو أكثر، ويحتفظ بهذه الأشياء هنا، ليستخدمها كلما جاء إلى جوبا.

إذن أين المكتب؟ فأشار إلى طاولة التنس، التى توجد عليها الآلة الكاتبة، وقال: ـ إن هذه الطاولة هي مكتبه، ومكان تسليته فى لعب (البنج بونج).

تأملت بقية المنزل.. هناك أيضاً مدخل واسع يؤدى إلى المطبخ، وفى ساحة المنزل الخلفية مخزن صغير، وغرفة يستخدمها عمال المكتب.

هذا هو إذن القصر، وهذه هي جوبا بأشجار النيم من حولنا، واحدة منها أمام المنزل، تقف تحتها السيارة الجيب لِتُظَلِّلها من حرارة الشمس، وأخرى فى وسط فناء المنزل، وتحتها طاولة صغيرة وكرسيان.

جلسنا فى ظل الشجرة، وراح يحدثنى عن جوبا وتجربته فيها، والتى استمرت زهاء ستة عشر شهراً.

* * * * *

الفصل الثاني

الأيّام الأولى



هأنذا فى عصر يوم وصولى أقف فى فناء المنزل ، ثم أتقدم خارجاً ، إننى لا أرى من حولى بنايات شاهقة ، لا شوارع من حول مقرّنا معبّدة أو مسفلته ، ولا إضاءة ، وكل ما أراه هدوء تام يشبه الصَّمت ، أناس يسيرون فرادى ، أكثرهم حافي القدمين ، أطفال هناك يلعبون ، أشجار نيم خضراء باسقة ، تنبعث من بين أغصانها تغاريد عصافير جميلة تقطع السكّون أو سيارة تمر فتعكر الهدوء بغبار تخلفه وراءها .

وأنا فى تأملى هذا ، إذ بصوت جاسم من خلفى ، يقول : ـــ دعنا نركب السيّارة لأطلعك على المدينة .

لم أتردد ، وبدأنا الطّواف فى حوالى الرّابعة بعد الظهر .. إنّى أرى نسبة الأشجار أكثر من المساكن ، وقد تناثرت حولها الأكواخ والبيوت ذات الدّور الواحد ، وأستطيع أن أقول إنَّ نسبة الأكواخ تعادل سبعين بالمائة من مجموع المبانى ، الشارع الرئيسى بالمدينة مرصوف ومستطيل ، يلف حول نفسه على شكل دائرة ، ويمر بوسط المدينة ، قطعناه فى سبع دقائق . وقال جاسم : ـــ إنك الآن رأيت كلّ جوبا ، ثم اقترح أن نذهب لعدد من أصدقائه لأتعرف عليهم ، فتوجهنا إلى منزل ابراهيم عبدالله مساعد المحافظ ، الذى رحب بى كثيراً ، وكنت قد أعربت لجاسم عن رغبتى فى الذهاب لصيد الغزلان ، لأننى لم أجربها فى حياتى ، فقال : ـــ إنها على مسافة كيلو مترين فقط ، وتواعد مع ابراهيم أن نلتقى ثانيةً فى منزله بعد صلاة المغرب لنذهب للصيد ، ثم طاف بى إلى منزل صديق آخر ، هو المهندس حبيب عبدالله ، وهو من هواة الصّيد أيضاً فلبّى الدّعوة .. ثم عدنا إلى المنزل ، حيث جاء إلينا صديق لجاسم ، اسمه الدّكتور زاهر طاهر (رائد فى الجيش وطبيب بالمستشفى العسكرى) .

خرجنا جميعاً فى نحو الساعة السابعة مساء، وتوجهنا إلى منطقةٍ.. على بعد كيلو مترين من المنزل، وهى عبارة عن جزيرة من غابات السافانا، والّتى يسمونها (القش)، ترتفع سيقانها نحو ثلاثة أمتار، اسْتَعَنّا بضوء كشاف صُمِّمَ خصيصاً للصيد فى اللّيل، بالإضافة إلى ضوء السّيارة، دخلنا المنطقة، وجدنا غزالاً رابضاً فاصطدناه، ففرحت، وبقدر فرحتى كنت أرتعد خوفاً، عندما تذكرت كلام المهندس عرفه، عن وجود أفاعٍ صغيرة لا يزيد طولها على ثلاثين سنتيمتراً، تلتف حول أغصان الأشجار، وتقفز كالسّهم على فريستها حيث تلدغها، تخيلت أن ذلك قد يحدث وخاصة فى هذا المكان، فأغلقت زجاج السيارة، ولم أطمئن فقد تقفز علينا من السقف، كنت فى خوفى هذا، بينما كان الآخرون يتسامرون، ولا يبدو أنهم يشعرون بنفس ما أشعر به، وبعد نصف ساعة اصْطدنا غزالاً آخر، وقررنا العودة ولكننا ضللنا الطّريق، فلا يوجد طريق خاص للسيارات، وظلام اللّيل يسود المكان، وكان دليلنا هو المهندس حبيب لكنه هو الآخر افتقد الطّريق.. جزيرة قش السافانا هذه لا تزيد مساحتها على أربعة كيلو مترات فقط، لكن كيف الخروج منها؟ وخفت أن يخترق القش عجلات السيارة، فلا نستطيع أن نتحرك. وتخيلت أن يكون مقري اللّيلة فى بطن وحش مفترس، وأنا الذى لم يمض سوى ساعات على وجودى فى جوبا، خاصة عندما أدركت أن القلق بدأ يساور الآخرين، ووسط هذه الحيرة، رأينا غزالاً سيىء الحظ فاصطادوه، ولم يعد همى هو الصّيد، بقدر الخروج من هذا المأزق، وبعد ساعة يُسِّر لنا أن نخرج من هذه المنطقة، فقد ظهرت لنا وسط أعواد القش الطويلة مجموعة من الأطفال العراة، فراودنى الخوف لأول وهلة عند رؤيتهم، لكن رفاقى سألوهم وبلهجة عربية ركيكة عن الطّريق إلى جوبا، فأشاروا بأصابعهم، وعن طريق هؤلاء الصّغار عدنا إلى جوبا وأنا لا أكاد أصدق.

وبعد أن ذهب كل واحد منا إلى بيته، بدأت أفكر كيف سأبيت ليلتى الأولى هذه. وحاصرتنى المخاوف، وخاصة من تلك النوافذ المفتوحة. وبقيت بمفردي فى غرفة من غرف المنزل، أرقب بقلق السكون الصامت والظلمة الموحشة، ولا أسمع إلا طنين البعوض، الذى بدا لى كأزيز طائرة تحط على مدرجها،

وظللت على هذا الحال حتى أوشك الفجر أن ينبلج ، فغفوت بعض الوقت ، واستيقظت فى حوالى السابعة صباحاً ، فلم أجد جاسم الذى كان قد خرج بسيارته ، ظللت أنتظره ، وإذا بى أسمع محرك سيارة يتوقف فى الخارج ، خرجت فرأيت رجلين نزلا من سيارة مرسيدس ؛ أحدهما طويل القامة ، والآخر قصيرها ، عرّفانى على نفسيهما ، القصير قال إنه اللواء جوزيف لاقو[1] ، قائد الفرقة الأولى ، والطويل قال انّه فيليب أوبانج سفير السودان الجديد لدى يوغندا ، ولم يمكثا طويلاً وذهبا ، وبعد قليل عاد محمد ، ملاحظ المبانى ، وهو يركب دراجته الهوائية .. وسألته أين ذهب ؟ فقال : ـــ إلى موقع المشروع . ثم جاء جاسم ومعه بعض أصدقائه من السودانيين وعرفنى عليهم ؛ محجوب محمد علي (المقاول) وعبدالكريم عكاشة ، وسعد كوراك و ياسر الطيب ، وخالد من الخطوط السودانية وعبدالباقى البلاّع ، ومعظمهم من التجار المعروفين ، وهم من الشماليين المقيمين فى جوبا ، وبعضهم ولد فيها .

كان يوم الأحد (العطلة الأسبوعية) فى الجنوب ، فبدأ جاسم ومن حضر معه يتسلون بلعب الورق (الكوتشينه) ، وقد شاركتهم لعبة (الكونكان) ، ولكن أثار دهشتى أثناء اللعب ، أنّ أحدهم أقسم بالطّلاق ثلاثاً ، بأنه سيفتح ، أىّ أنه سينهى اللعبة لصالحه ، فى حين أنّ ورقى كان جاهزاً تماماً ، واللعبة لصالحى ، لكن لأنه أقسم بالطلاق ، لم أحاول أن أفتح ، بل رحت أتسلى بالورق لتضييع الوقت ، وقد ضايقنى هذا فى أول الأمر ، لأن مانفعله مجرد تسلية ، ولا يصح أن نستخدم فى التسلية قسماً غليظاً ، هو أبغض الحلال عند الله . وقررت ألاّ أستمر فى اللعب طالما أنهم يقسمون هكذا ، فضحكوا جميعاً لأنى أخذت الأمر بشكل جاد ، وأفهمونى أنَّ الذى أقسم بالطلاق لم يتزوج بعد ، وأنَّ عليَّ ألاّ أتضايق من ذلك ، لأننى سأسمع هذه الكلمة كثيراً حتى من النساء والأطفال . وقضينا اليوم . وبعد الظهيرة أراد جاسم أن يلعب الكرة الطائرة كعادتهم ، فذهبنا الى منزل أحدهم وشاركتهم اللعب .

---

(١) سوف يتردد هذا الاسم كثيراً لتعريفه اكثر.

فى اليوم التالى (يوم الاثنين) طلبت من زميلى ، أن يطلعنى على العمل ، فلما ذهبنا لم نجد عملاً ولاعمالاً . ولابنائين ، وإنما مجرد سور ارتفع نحو نصف متر عن الأرض ، أوشك أن تردمه الرّمال ، وأخبرنى أن المقاول توقف عن العمل ، لأنه لايملك المواد الأساسية ـ وأهمها الأسمنت ـ حيث لا توجد فى أسواق جوبا ، ويصعب نقلها من الخرطوم . واقترح أن يُعَرِّفَنِي على بعض المسئولين ، فأخذنى الى مكتب جوزيف أدوهو[1] وزير الإسكان ، ثم إلى مكتب العميد شرطة روبين مايك ، والعميد محمد يحيى منور[2] رئيس الأركان فى القيادة الجنوبية فى جوبا ، والسيد هنرى باجو المحافظ[3] .

بعدها ذهبنا إلى محل محجوب المقاول ، الذى يمتلك محلاً تجارياً وسط السوق ، أمام مسجد جوبا الكبير ، وهناك جلسنا خارج المحل بحيث يستطيع المرء أن يرى حركة السوق ، والناس تبيع وتشتري من الدكاكين المجاورة .. كانت الحركة نشطة ، واللوارى تنقل البضائع ، وكان من الواضح أن أصحاب هذه المحلات من شمال السودان ، وعاشوا فى الجنوب واستقروا فيه . الناس فى الشارع ترتدى بدلة السفارى أو القميص والبنطلون ، ومن السهل أن تفرق بين الشمالى والجنوبى من ملابسه ، فالشمالى يرتدى الجلابية والعمة البيضاء أو الطّاقية ، وأكثرهم أقل سواداً ، ولا تستطيع أن تميز بين التاجر والمثقف والمتعلم وغير المتعلم ، فكلهم بسطاء . وأصحاب الدكاكين يفضلون الجلوس على مقاعد خارج محلاتهم ، ويستعملون (الصعوط) ، ويدخنون بكثرة ، ويتبادلون الأحاديث مع بعضهم . وقد ضايقنى ، أن أرى كل واحد منهم يبصق على الأرض بشكل تلقائى ، ويبدو أن هذه العادة مألوفة لديهم . وتأملت ، فلاحظت كثرة الفقراء الذين يمدون أيديهم يطلبون العون ، فيخرج التاجر من جيبه قطعة معدنية أو ينادى : هات ياولد قرشاً ،

---

(١) أصبح الآن أحد عناصر المعارضة فى الجنوب .. رجل بشوش وكريم .
(٢) قتل عام ١٩٧٧ فى محاولة انقلاب فاشلة فى الخرطوم حيث شارك فى التصدي لافشال ذلك الانقلاب .
(٣) توفيّ فى حادث انقلاب سيارة عام ١٩٧٨ فى الطريق إلى مدينة ياي التى تبعد عن جوبا مسافة ١٨٠ كم وهي بالقرب من الحدود مع زائير وأوغندا .

و يلقى به لهؤلاء الفقراء، ورأيت منظراً أثار فى نفسى الفزع، فبعض هؤلاء الفقراء بلا أصابع فى أيديهم، وأقدامهم تكاد تكون متآكلة، وهم يجوبون الشوارع، وعرفت أنهم مصابون بمرض الجذام، ولم يبد أصحاب المحلات خوفهم، فقد اعتادوا على رؤية هذه المناظر، ولكنى لم أحتمل، وشعرت بالخوف، وألححت على جاسم أن نعود إلى البيت، فقد ضايقنى منظر البصق، وهؤلاء المصابين بالجذام، فعدنا لأقوم ببعض الأعمال معه فى مراجعة أوراق المكتب وحساباته.. فبعد أيام سيغادر عائداً إلى الكويت، وعَليّ أن أتسلم العمل منه. كان جاسم يقوم بكل شيء، يتابع الحسابات، و يرسل الأوراق إلى الهيئة، و يقوم بأعمال الطباعة والمراسلة.

* * * * *

بعد أن تناولنا الغداء، واسترحت بعض الوقت، فاجأنى بقوله: ــ ألا تريد أن ترى العراة؟، وترى كيف نصطاد حمام (القمرى)؟.. إنهم لايبعدون كثيراً.

أثار فضولى ورحبت بالفكرة، وخرجنا معا. سرنا مسافة نحو ثلاثة كيلو مترات فقط من المنزل، وبدأت أرى أناساً عراة، كما ولدتهم أمهاتهم، يسيرون على جانبي الطريق سيراً طبيعياً، وقد حمل كل واحد منهم عصا طويلة، أو حربة دون أن يتوكأ عليها، وإنما يبدو أنه اتخذها كوسيلة دفاع عن النّفس، فى مواجهة أي اعتداء قد يقع عليه، ورأيت نفسى مشدوداً إلى هذا المنظر الغريب، الذى أراه لأول مرة فى حياتى؛ رجل عارٍ تماماً، يمشى دون حرج من الآخرين، ولايحرجه الآخرون. أجسامهم باسقة طويلة، أما النّساء فيرتدين شيئاً حول الوسط يشبه (التّنورة)، مصنوعاً من الأعشاب الجافة، يغطي الجزء الأسفل من الجسد حتى الركبة، أما السُرّة فما فوق فهو عارٍ. وهن منشغلات فى أداء أعمالهن، حول أكواخهن، فمنهن من ترعى أغناماً، ومنهن من تحرث الأرض، وأخريات حول الأكواخ التى تسمى بالقطاطي (جمع قطية)، يحضِّرن وجبة للعشاء، قبل غروب الشّمس، أما الأطفال من أولاد وبنات دون الثانية عشرة، فهم مثل الرّجال عرايا تماماً. كانت هذه المناظر مألوفة لدى صاحبى، فلم يعرها اهتماماً، وراح ينشغل باصطياد حمام (القمري)، وبعدها عدنا بصيدنا الوفير الى المنزل، ومعه بدأ

ينتابنى شعور بالخوف من منظر هؤلاء العراة، وتخيلت لو أن أحدهم تسلل الى البيت، عبر قضبان النافذة المتباعدة. فلم أنم فى تلك اللّيلة الثالثة لوصولى، وحاولت أن أبدد هذه الهواجس باللعب مع القطتين (سيامه) و (نوسه) لكنهما لم تكونا قد اعتادتا عليّ. وزاد من هواجسى فكرة أن جاسم سوف يسافر غداً، أو بعد غدٍ، وفكرت أن أبقيه يوماً آخر، حتى أتعرف أكثر على مدينة جوبا، فقد كان لى فى الأيام الأولى بمثابة رفيق وأنيس بدّد قتامة الغربة، خاصة أنه استطاع أن يترك انطباعاً طيباً، وسمعة حسنة، بين المواطنين. فى اليوم التالى خرجت معه إلى سوق الخضار، الذى يعرف بسوق (الملكية)، وهناك وجدت سوقاً مزدحماً بالناس ومحال بقالة كثيرة، وآخرين يفترشون الأرض، وأكثرهم سيدات بصدورهن العارية، وهن يرتدين نصف الملابس، ومنهن من تحمل (قفة)، تبيع مامعها من خضار، وتشتري بالثمن ماتحتاجه من بقالات فى السوق.. الخُضَرْ متوفرة من كلّ الأنواع وهي تباع (بالكوم)، وليس بالميزان، وتباع البامية بالعدد؛ كل خمسة أصابع تباع بقرش (ارتفع سعرها وأصبح الآن ثمن الأصبع الواحد خمسة قروش)، وإلى جانب سوق الخضار يوجد سوق الجزارين وتجار السّمك، وقد لفت نظرى سمك كبير يسمى (العجل)، يزن بعضه أكثر من ٣٠ كيلو جراماً. وهو خال من الشوك، وهناك سمك البلطي والبياض وأنواع أخرى محلية، مثل (أبو كرشه)، وخشم[1] البنات، وهو نوع من السمك له فم صغير جداً وبارز للأمام، كشَفَتَيْ فتاة أفريقية، وفضلت عليه (أبو كرشه) الّذى يشبه سمك السالمون فى لون لحمه وطعمه، ولحوم البقر والضأن متوفرة. وخراف جنوب السودان ليست كالتى فى الشمال، فهى صغيرة الحجم، وأنواعها متعددة، مثل أغنام (بور) و(كابويتا) و(نيمولي) و(توريت)، وكان ثمن الخروف يتراوح بين ثمانية وعشرة جنيهات (أصبح ثمنه الآن أكثر من تسعين جنيهاً).

أثناء عودتنا إلى المنزل، تأملت مدينة جوبا أكثر، فوجدتها مدينة صغيرة، يبدو عليها القدم، وهي تقع فى أحضان الطّبيعة، تحيط بها جبال متباعدة، وسفوح خضراء، وشوارعها غير مرصوفة، وتكثر بها الأشجار المتعددة الأنواع، وهي أشجار

(١) كلمة خشم فى كل السودان: المقصود بها الفَمْ.

باسقة كأجسام سكانها، مثل شجر (النّيم)، الدّائم الخضرة طوال العام، وشجر البابـاي ذو الثمر حلو المذاق، وأشجار المانجو والموز. ورأيت العشش (القطاطي)، تبنى من أغصان الشّجر والطّين المخلوط (بالقش)، وتسقف بأعواد السافانا الغابى، التى ترص بشكل مائل، كي تمنع تسرب المطر إلى الداخل، وتكثر أكوام الزبالة بينها مما يؤدي إلى تكاثر الأمراض بين السكان، كما أنى لم أر مرافق صحية فى الأحياء.

عدنا إلى البيت، وأثار فضولى تجمع نسوة وأطفال حول حنفية مياه، أقامها جاسم ليرتوى منها الأهالى المجاورون للمكتب مجاناً بلا مقابل (سبيل)، و يرتادها أيضا عابرو الطريق، و يزداد الأطفال والنسوة عادة بعد الظهيرة، وهنَّ يحملن أوانى من الصفيح (الجراكن)، أو غيرها، و يقفن فى طابور منتظم وليس بينهن رجل واحد، وإنما نساء يرتدين ملابس رثة، ومنهن من تحمل طفلاً أو طفلين، إلى جانب هذا تحمل (جركن) يسع خمسة جالونات من الماء على رأسها، اقتربت منهن، والتقطت لهن صورة بكاميرا فورية (بولارايد)، ولما رأين صورتهن، تدافعن حولى، كل واحدة تريد أن تأخذ صورة بمفردها، وبعضهن ظن أن ذلك نوعٌ من السحر، فكلهن فى الصورة بنفس ألوان أجسادهن وملابسهن. وأخذت صوراً لهؤلاء ــ عاريات الصّدور ــ وأرسلتها إلى زوجتى وأهلى فى الكويت، ليقفوا على بساطة الحياة، وأنَّ التّعري هنا لايعتبر أمراً مذموماً أو معيباً، ولكنها بساطة الإنسان فى مراحل تطوره، ارتبط بالطبيعة وأصبح جزءاً منها، يرتدي ملابس أو لايرتدي، فلا قيود عليه، وهنا يختلف مفهوم العيب عن مجتمعاتنا العربية الأخرى.

كانت لحظات مثيرة، واقتربت الشّمس من المغيب وكان موعد سفر جاسم يقترب، فأقمت له حفل وداع صغيراً بفندق جوبا، دعوت إليه أصدقاءه الذين عرفنى عليهم، لأبقي على صلتى بهم كأصدقاء جدد لى.

فى صباح اليوم التالى الأربعاء ٧٤/٩/٢٩ توجهنا الى المطار لوداع جاسم.. ودعته بعد أن ترك فى نفسى أثراً كبيراً، فقد كنا ثلاثة فأصبحنا اثنين، أنا ومحمد، وعدت إلى المكتب أقود سيارة (الجيب) لأول مرة.

أول شيء فعلناه أنا ومحمد بعد العودة من المطار، أن اشترينا مانحتاجه من السوق ، وفكرت أن أذهب إلى دكان محجوب ، ولكنى تذكرت المصابين بالجذام ، وغيرهم ممن يبصقون على الأرض ، فآثرت البقاء فى البيت . جلسنا تحت شجرة النيم ، ورحنا نتسلى معاً بورق الكوتشينة (اللعب) ، إلى أن حان وقت الغداء ، وبعد الظهيرة وقفت أتفرج على النّسوة والأطفال ، الذين يملأون أوانيهم من حنفية المياه ، وكانوا قد بدأوا يألفوننى ، فكنت أداعب الأطفال وأتحدث إليهم ، وألتقط لهم صوراً ، وهم لايخافوننى ، ولكننى لم أستطع أن أفهم لهجتهم العربية التى يتحدثون بها ، إلا القليل منها .

بعد صلاة المغرب اقترح محمد أن نذهب إلى دكان سعد كوراك ، وهو صاحب محل أقمشة ، ذهبنا إليه ، وكان هناك أناس كثيرون قد جلسوا خارج المحل ، والخياطون يجلسون إلى ماكينات الخياطة على امتداد السوق ، ورحت أتامل المارة فى الطريق من رجال ونساء وأطفال .

وشدّ انتباهى ، طفلان ، لم يزد عمر أكبرهما على ست سنوات ، شبه عاريين .. وقفا ينظران إليَّ بتمعن شديد ، أدركت من نظراتهما ، أن مصدر تعجبهما ودهشتهما ، هو لونى الفاتح ، ذلك أنهما كانا ينظران إلى لون جسميهما ، ولون الآخرين من حولى ، كما لو كانا يقارنان بين الألوان ، فأخرجت من جيبى ورقتين من فئة الخمسة والعشرين قرشاً ، وأعطيتهما لهما بعد أن داعبتهما .

قال أحد الجالسين أنت مدعو هذه الليلة الى «تِرِمْ تِرِمْ» ولم أحاول الاستفسار، ظناً مني أنها وجبة سودانية . وذهبت معهم على هذا الأساس .

هناك فوجئت بما لم أتوقع . فقد كان كل شيء عادياً ، الجلوس فى فناء المنزل (الحوش) ، وضع به عدد من الكراسى ، حوالى اثنى عشر كرسياً على شكل دائرة ، بينها طاولات صغيرة .

وخلف تلك المقاعد ، طاولة فوقها راديو مسجل ، وحوله عدد من الأشرطة . وفيما أنا أتخيل نوع هذه الأكلة «تِرِمْ تِرِمْ» ، إذا بمجموعة من الفتيات يدخلن و يسلمن

على الجميع ويجلس، وظننت أنهن من المدعوات، وبعد قليل أدير المسجل، لسماع موسيقى أفريقية تسمى (الجلوا).

ومع تلك الأنغام الموسيقية، وقف صاحب المنزل مرحباً ومعرفاً الآخرين بي. ودعا إلى بدء الحفل، بمعنى أن يتقدم الجميع للرقص على أنغام تلك الموسيقى، ووجهت حديثي لأحدهم بأنني مدعو إلى تِرِمْ تِرِمْ وليس إلى رقص، فضحكوا جميعاً وأفهموني بأنّ تِرِمْ تِرِمْ تعني حفلا راقصا، وهذه التسمية متداولة (شفرة) بينهم إذا ما كان بينهم غرباء.

وبما أنني محتفى به، كان عليّ أن أفتتح الرقص. وعندما شرحت أنه لم يسبق لي مثل هذا الموقف، قالوا: ــ إنني إن حاولت ــ مجرد محاولة ــ الاعتذار أو الرفض، فإن حفلهم هذا سيفشل، وستنصرف البنات ويرفضن تلبية دعوة أيِّ واحد منهم مستقبلاً. وعلمت أيضاً أن الشّابّة هي التي تدعو الرجل للرقص. ووقفت إحداهن أمامي، وأشارت إليّ بيدها، طالبة مراقصتها، فوجدتني ولكي لا أفسد هذه الجلسة على الأصدقاء، أقف أمامها، وأتمايل وجسدي يتصبب عرقاً، ليس من حرارة الجو، ولكن من موقف لا أحسد عليه.

بعد قليل أوقفت الموسيقى، وطافوا علينا بأطباق اللحم، وبدأ الجميع كُلٌّ يتحدث ويأكل. فانتهزتها فرصة لأعلن عدم مقدرتي على الاستمرار، لأنني مرهق وفي حاجة للراحة، فاستأذنت، بينما استمر الباقون.

توجهت في صباح اليوم التالي برفقة محمد إلى السوق حيث دكان محجوب، وهناك أمضيت ساعتين، أطوف بالمحلات والدّكاكين، لأتعرف على نوع بضاعتها، فوجدت أنّ أيَّ دكان يبيع كل شيء؛ الزيوت والذرة والأقمشة والفساتين والعطور وأشرطة التسجيل، وفي جولتي إلتقيت بمن كنت قد تعرفت عليهم من قبل، ومعظمهم تجار في السوق، فدعوتهم إلى عشاء في منزلي، كي أحافظ على صلتي بهم.

في يوم الخميس لم يكن لدينا مانفعله، فأمضيت اليوم في التسلية بلعب الورق مع محمد، الذي آثرت أن أزيل الحواجز بيني وبينه، فقد كان يعاملني في

البداية بتحفظ ، على أني مدير المكتب ، وهو ملاحظ ، وفضلت أن نكون أصدقاء ، خيراً من أن نكون رئيساً ومرؤوساً ، فكان يصحبنى إلى حيث أذهب .

وفى المساء ذهبنا إلى الصيد ، إلى نفس المنطقة التى كان جاسم يصطاد فيها ، وعدنا بغزالين وفهد صغير .

وفى اليوم التالى ـ الجمعة ـ ذهبت كالعادة إلى السوق ، وإلى دكان محجوب ، وكان المسجد الذى سأؤدى فيه صلاة الجمعة ، يقع مقابلاً للدكان . ولاحظت كثرة المتسولين والفقراء ، عن أيّ يوم مضى ، وعرفت أن ذلك يحدث عادة يوم الجمعة قبل الصلاة ، حيث توزع عليهم (القروش) ، وعندما دخلت إلى المسجد ، لم أر مرافق صحية ، إنما حنفية فى فناء المسجد يتوضأ منها المصلون . ولفت نظرى أن موعد صلاة الجمعة لايختلف عنه فى الأيام العادية ، كما يحدث فى الكويت ، حيث تُقَدَّم الصلاة عن موعدها ، لأن الخطبة تأخذ وقتاً . ولاحظت أن الإمام يسلم تسليمة واحدة على اليمين ، فيسلم المصلون معه والتسليمة الثانية يؤديها ولكن لايعلنها بصوت مسموع .

بعد أداء الصلاة ، شعرت بحنين إلى الأهل والأصدقاء فى الكويت ، وتذكرت أنّنى لم أكتب لهم حتى الآن ، وأنه لاوسيلة هاتفية كي أبلغهم أنّنى وصلت بسلامة الله ، ولاشك أن القلق ينتابهم ، وقررت أن أرسل برقية ، لأنها تصل أسرع من البريد فقد يأخذ البريد حتى يصل الكويت شهراً أو أكثر ، أما البرقية فقد تصل فى سبعة أيام ، وهكذا فى المساء فرغت من إعداد الرسائل وكتابة البرقية ، وأصبحت جاهزة ، ووضعتها على الطاولة وكلفت محمد ، بأن يأخذها إلى البريد فى الصباح .

كان اليوم هو السبت ٧٤/١٠/١ عندما خرج محمد ، حاملاً معه الرسائل والبرقية ، وركب دراجته الهوائية ، متوجهاً إلى البريد ، وجلست تحت الشجرة فى انتظار عودته لتناول وجبة الإفطار ، فإذا بهدير أصوات يصل إلى سمعى من بعيد ، كما لو كانت أصوات مظاهرة ، وبعد قليل دخل عليَّ شاب يرتدى ملابس مدنية ، وطلب مني أن أنقل السيارة من مكانها تحت الشّجرة أمام المنزل إلى

خلفه ، وعندما سألته عن السبب ، أخبرني أن هناك مظاهرة تطوف الشّوارع ، ولم أجادله ، ونقلت السيارة ، ثم طلب مني أن أبقى بداخل المنزل وألاّ أكون خارجه أو على المدخل ، وفى نفس الوقت كان هدير المظاهرة يقترب ، وأنا فى دَهشةٍ فليس بينى وبين أحد عداء ، كما أننى لم آتِ إلى هنا لأعادى أحداً . لقد شعرت من لهجة الشاب كما لوكنت مقصوداً بهذه المظاهرة القادمة ، وإذا كان ذلك صحيحاً ، فهل سيحمينى هذا المنزل بنوافذه المفتوحة ، ورحت أراقب المظاهرة القادمة من النافذة . كان نحو ألف شخص يحملون العصي والحجارة والزّجاجات الفارغة يسيرون فى الشوارع ، ثم توقفوا أمام منزلى ، وراحوا يضربون اللوحة المعلقة على الحائط بالخارج ، والمكتوب عليها بالانجليزية والعربية (مكتب دولة الكويت) ، سمعت بعضهم يتساءل : ـــ ماذا يعنى مكتب الكويت ، وماهي الكويت ؟ فردّ أحدهم : ـــ الكويت يعنى عرب ، هنا اشتدّ حماس المتظاهرين ، وراحوا يقذفون المنزل بالحجارة و يرددون : ماداير ين عرب (أي لانريد عربا) . كان الشّاب الذي دخل عليّ لأول مرة من رجال الأمن ، فلم يمنع المظاهرة ، وكانت الشرطة ـ بملابسها الرسمية ـ تعمل على الايتفاقم الموقف . فواصل المتظاهرون سيرهم وهم يردّدون كلاماً لا أفهمه . استغرق ذلك بعض الوقت ، وفجأة تذكرت محمداً ، فربما حدث له مكروه فى الطريق ، فملامحه عربية ، وقد يتعرض لأذىً ، ولم أعرف كيف أتصرف ، كل مافعلته أن خرجت إلى الشارع ، ورحت أتطلع إلى الطريق ، فالشوارع الترابية حول المنزل ساكنة ، ولاأحد يمر بها ، ولم أر سوى بعض النسوة يتراكضن من بيت إلى بيت ، ولاشيء غير ذلك ، مما زاد قلقى على صاحبى ، وتنفست الصعداء عندما لمحته قادماً من بعيد ، ماشياً على قدميه ، ويجر دراجته بيده ، ولما اقترب ، رأيت وجهه شاحباً ، والعرق يتصبب من جسمه ، فخرجت إلى الشارع نحوه مسرعاً ، قائلاً فى لهفة : ـــ

ـــ إيه يامحمد . خير إنْ شاء الله .. طَمِنِّي .. ؟

ـــ محمد : خلاص أنا بكره مسافر . أنا بكره مسافر . فرحت أُهَدِّيء من روعه : ـــ

ـــ إهدأ يامحمد وتعال نتكلم .. أريد أن أعرف ماذا حدث . ؟ ! .

غسل وجهه، وغيّر ملابسه المبتلة من العرق، وقال إنه وجد مكتب البريد مغلقاً، وفى العودة لقيه المتظاهرون، فحاولوا ضربه، وحاول أن يشرح لهم أنه من اليمن، فلم يفهموا ماذا تعني اليمن، وتركوه بعد أن علموا أنه غير مصرى، فقد علم أن الأمر كله موجه ضد المصريين، ولم يكن أمامه بعد ذلك إلا أن يحتمى فى فندق جوبا، وقد احتمى كل النزلاء فى داخل الغرف، ومنعت الشرطة المتظاهرين من دخول الفندق، وسمع من يقول إن هناك دخاناً يتصاعد فى المنطقة المجاورة للسوق.

هدأت من روعه، وبقينا داخل المنزل، لم نخرج لنجلس كالعادة فى الفناء الخارجى تحت الشجرة، ووجدت نفسى أفكر فيما حدث، لماذا كانت هذه المظاهرة موجهة ضد العرب؟ ولماذا كان المصريون هدفاً لها، ولماذا شبت الحرائق فى بعض المحلات. وأحسست أننا قد نواجه مشاكل كثيرة، وأطلّت فى ذهنى فكرة العودة إلى الكويت، ولكننى رأيت أنَّ عليَّ أنْ أعرف حقيقة الأمر أولاً قبل اتخاذ أيِّ قرار، خاصة أنّه لم يكن بيننا وبين أحد من جيراننا صلة، لنسأله عن السبب، ويبدو أنهم من المسئولين الجنوبيين، لأنى كنت أرى سيارات رسمية تدخل وتخرج إلى المنازل المجاورة. فبدأت أنا ومحمد نضرب أخماساً فى أسداس، كل واحد منا يحاول أن يفهم ويتصور حقيقة ماحدث، إلا أن صاحبى كان يردد أنّه لن يستمر، وأنّه سوف يستقيل، وأنّه لم يأت إلى هنا ليموت أو يقتل.

عادت الأمور إلى طبيعتها بعد الظهيرة، ونشطت حركة السيارات والمارة كما كانت، ومعنى ذلك أن المظاهرة وآثارها انتهت تماماً.

خرجنا معا إلى أقرب مكان، وهو فندق جوبا، لعلنا نقف على حقيقة الأمر بشكل أوضح، وخاصة أن مديره أصبح من أصدقائنا ـــ يدعى محمد سليمان ـــ. كان محمد (الملاحظ) متردداً فى الخروج معى، لكنى أقنعته بأنه يجب علينا الذّهاب إلى الفندق مادمنا بالنّهار، لنعرف حقيقة ماحدث قبل غروب الشمس، كان كل شىء عادياً فى الفندق، الناس جلست تحت ظلال الأشجار، حول الطّاولات كالعادة، والفندق امتلأ بالرواد، وكان من بينهم واحد من أصدقاء

المكتب، عرفنا منه أن هذه المظاهرة التى حدثت فى الصّباح كانت موجهة ضد مشروع قناة جُونْقُلِي[1]، الّذى بدأ الحديث عنه كمشروع كبير تشترك فيه مصر مع السودان، وأن قناته سوف تحفر فى الجنوب، ولأنه لم يسبق هذا الموضوع تعريف بأهميته للجنوبيين، فقد اعتقدوا أنه مشروع ضد مصالحهم، خاصة أنّ شائعات قد تسربت بأن هناك حوالى ستة ملايين مصرى قادمون، ليسكنوا على ضفتي القناة، ليستوطنوا فيها و يزرعوها، وأنهم يرون ذلك احتلالاً جديداً، كانت المظاهرة إذن ضد قرار الحكومة المركزية، لهذا طافت المظاهرة على كل بيوت الشماليين، وأحرقوا سياراتهم، ومن لايملك سيارة حطموا أثاثه، وللرد على هذه المظاهرة، وعدت الحكومة الإقليمية أنها ستقوم بشرح أهمية هذا المشروع.

عدنا إلى المنزل. ورحنا نفكر فى المستقبل، خاصة تلك الكلمة التى رددها المتظاهرون «لانريد عرباً»، ومعنى هذا أن سمعتنا نحن كعرب مشوهة تماماً لدى هؤلاء الناس، وقد التمست لهم العذر، فقد ظلوا فى حرب أهلية استمرت سبعة عشر عاماً، عزلتهم عن كل دول العالم، باستثناء بعض الدّول الأفريقية المجاورة لهم. وأيّا كانت الأسباب والتماس الأعذار، فإننى وجدت نفسى بين أمرين أحلاهما مر؛ فإما أن أعود إلى الكويت غداً على متن أيّ طائرة، أو أن أستمر فى مهمتى التى جئت من أجلها. وبعد تفكير عميق، اخترت الأمر الثانى، وقد أضفت لمهامى مسئوليات جديدة، وهي أن أعمل على إزالة هذه الصورة المشوهة عن العرب لدِى هؤلاء المواطنين، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فقد كان عليّ أن أجري إتصالاتٍ مع المسئولين والأهالى والمثقفين منهم، كي أؤكد وأزيل هذا الحاجز النفسى، الذى ترسب فى نفوسهم عن العرب.

بينما كنت غارقاً فى هذه الأفكار، زارنى عدد من الأصدقاء الذين تعرفت عليهم، جاءوا ليطمئنوا علينا، وراحوا يشرحون ماحدث كما فهمته من قبل. ويذكرون تفاصيل عن الذين أصيبوا أو أحرقت سياراتهم من الشماليين، واعتبرت

---

(١) قناة جونقلى تمتد ٣٦٠ كم فى منطقة جونقلى بالقرب من ملكال عاصمة اقليم أعالى النيل الى بور فى أقصى الجنوب، وتوفر ٨ مليار متر مكعب من مياه المستنقعات فى تلك المنطقة، وتقسم هذه الكمية بين مصر والسودان وتبلغ تكاليفها ٩٠ مليون دولار.

ذلك نوعاً من تهدئة الخواطر، فشكرتهم على روحهم الطيبة ، وبدأت أعد نفسى لمهمتى الجديدة ، وهي أن أقترب من النّاس بشكل أكبر وخاصة الجنوبيين العاديين منهم والمسئولين ، وأخذت (رمضان) فراش المكتب ، ليصحبنى فى السّيارة ليدلنى على أماكن الوزارات التى أريد زيارتها ، خاصة أن الوزارات موزعة فى أماكن متفرقة ، وقررت أن أبدأ زيارتى بوزارة الإسكان ، فهي أقرب إلى السوق ، لأنى عرفت وزيرها بواسطة جاسم ، فى هذه المرة أردت أن أزوره بمفردى ، تركت رمضان فى السيارة ، وذهب محمد الى مكتب البريد لإرسال البرقية والرسائل ، التى كنت قد كتبتها للأهل . توجهت إلى مكتب الوزير وطلبت من سكرتيرته إذناً لمقابلته ، لم ترد واكتفت بأن مدت يدها إلى درج على يمينها ، وأخرجت ورقة مكتوبة باللغة الانجليزية وبها بيانات ، عن الاسم والوظيفة والغرض من المقابلة والزمن الذى سأقضيه مع الوزير، واكتفيت بأن كتبت اسمى ووظيفتى وأعدتها ، وبعد قليل دخلت بها إلى الوزير، ثم فتحت الباب ودعتنى للدخول ، استقبلنى الوزير مرحباً ترحيباً حاراً ، وكان يتكلم معى باللغة العربية بلهجة ركيكة ، ولكنى استطعت أن أفهم مضمون حديثه ، وأكدت له رغبتى فى استمرار التعاون بينى وبينه ، وتمنيت أن يتيح لى فرصة زيارته كلما سمحت الظروف ، فأبدى استعداده لاستقبالى فى أيّ وقت .

خرجت من عنده ، وذهبت إلى محجوب فى دكانه ، جلست معه قليلاً ، وجاء أحد المواطنين يسأل عن بعض السلع ، فسمعت واحداً يقول : شوف الزّاندي[1] دا عاوز شنو (أي ، إسأله ماذا يريد) وأخذ الزّاندي حاجته ، فسألته كيف عرفتم أنه زاندي ؟ فقالوا :ــ إن الإقليم الجنوبى كبير جداً ، وبه العديد من القبائل ، وهم يستطيعون أن يميزوا بين القبائل الجنوبية من الملامح ؛ فالدّينكاوي مثلاً ، من قبيلة الدّينكا أكبر القبائل فى السودان ، طوال القامة ، شديدو السواد ، وأكثرهم أسنانهم العلوية بارزة إلى الأمام .

---

(١) الزّاندي اسم قبيلة كبيرة فى جنوب السّودان ، تقع فى غرب الاستوائية ، سوف يرد ذكرها فى الجزء الثّانى من هذا الكتاب .

بعد يومين من زيارتي لوزير الإسكان ــ حيث كانت الحكومة فى اجتماع دائم لبحث آثار ماحدث يوم السبت الماضى من مظاهرات ــ رأيت أن أستأنف زيارتى، فدخلت وزارة الصحة لأول مرة، كانت مليئة بالموظفين. فهي وزارة خدمات، وبعد السؤال عن مكتب الوزير استطعت أن أهتدي إليه، ولاحظت أن كل غرف الوزارة لاتوجد عليها لافتات للتعريف بالموظف الذى فيها، باستثناء الوزير ومدير الوزارة والباشكاتب. وصلت إلى مكتب الوزير، وكان مليئاً بالمراجعين؛ منهم الواقف والجالس، سألنى أحد السكرتيرين بالانجليزية عما أريد، فعرّفته بنفسى وأننى أرغب فى مقابلة الوزير، فأشار عليّ أن أذهب إلى المدير، وذهبت، فأشار سكرتيره أن أذهب الى نائب المدير، وهكذا هبطت درجات السلم الوظيفى حتى وصلت الى رئيس الكتبة (الباشكاتب). تكلم بالانجليزية وتكلمت معه بالعربية، وفهم رغبتى فى مقابلة الوزير وطبيعة عملى ومهمتى، وفهمت منه أنهم لايعرفون حتى الآن بوجود مكتب للكويت، بل لايعرفون الكويت أصلاً، وقال إننى إذا أردت أن أتعرف على الوزير، فلأذهب إلى الوزير، ووصف لى مكتبه، فأخبرته أننى ذهبت بالفعل إلى مكتبه، وأعادونى الى المدير ونائبه حتى جئت إليه، وأنّ هدفى كله من هذه الزيارة هو التعارف لاأكثر. طلب من أحد السعاة أن يصحبنى، وقد تحدث معه بلهجتهم المحلية، ورافقنى الساعى إلى مكتب الوزير مرة أخرى، وفى المكتب تكرر ماحدث فى مكتب وزير الإسكان، إذ كان عليّ أن أملأ ورقة عن اسمى ووظيفتى وسبب الزيارة وغير ذلك، أخذ الموظف الورقة مني بعد أن كتبت مايريد، وبقيت واقفاً، حيث لايوجد مقعد خال، إلى أن فرغ أحدها، فجلست، وظللت جالساً منذ الساعة التاسعة والنّصف صباحاً، أرى الموظفين والمراجعين يدخلون ويخرجون من عند الوزير، ولم أسأل لماذا تأخرت مقابلتى، وإنما رحت أراقب مايجري حولى، وأدخن من سيجارتى فى هدوء، وظللت على هذا النّحو، حتى خرج الوزير من مكتبه فى الساعة الثّانية والنصف، ووقف له الموظفون والعاملون فى المكتب، فوقفت، نظر نحوى نظرة سريعة ولم يتحدث، وانصرف خارجاً، وبعد قليل بدأ الموظفان فى مكتبه يستعدان للانصراف، وأخبرنى أحدهما أن الوزير

خرج إلى بيته، بمعنى: أنت أيضاً انْصَرِف. وعدت فى اليوم التالى مبكراً قبل وصول الموظفين، الذين بدأوا يفدون الى مكاتبهم. وبعد قليل دخل الوزير مكتبه وبدأ المراجعون يدخلون ويخرجون، وبقيت أنا جالساً أدخن من سجائرى واستمر ذلك حتى الثانية والنصف، إلى أن خرج الوزير مثل الأمس، وكررت المحاولة حتى اليوم الرابع، وكان يوم جمعة، عندما سمح لى بالمقابلة، ودخلت مكتبه، وعلى الفور وجهت له التحية، وأنا أُقَدِّم له نفسى، قائلاً: ــ إننى جئت فقط للتعارف والمجاملة، وأشكركم معالى الوزير لأنكم أتحتم لى فرصة دخول مكتبكم لتحيتكم والتعرف عليكم، قلت هذا ولم أفكر أن أجلس، وقفلت عائداً، ولم يرد، وإنما نظر إليّ مندهشاً، لأنى لم أطلب شيئاً، ولم أناقشه فى أى أمر، فإذا به يطلب مني البقاء، قائلاً: ــ

ــ إننى أراك منذ أربعة أيام.. فهل حقاً جئت لتقول لى صباح الخير، واسمى عبدالله... وخلاص؟ !!!

ــ قلت له: نعم هذا كل ماأردته من مقابلتكم، وإنه لطف منكم إذ سمحتم لى بجزء من وقتكم لتحيتكم.

أمرنى بالجلوس، فجلست، وشرحت له أننى موظف جديد، ولم يمض عليّ أكثر من عشرة أيام فى جوبا، واستلمت المكتب من زميل آخر، مكث هنا أكثر من سنة، وغادر، وأردت أن أتعرف عليكم كمسئولين، وأعرفكم بطبيعة عملى ومهمتى.

فرد قائلاً: أننى أول كويتى يتعرف عليه، قلت له: ــ طالما استوقفتنى لتسمع مني بعض الكلمات، فأرجو أن يتكرر هذا اللقاء بيننا، وعرفنى على نفسه، وعرفت أن اسمه الدكتور جاستن ياك ــ وزير الصّحة الإقليمي ــ وكان واضحاً من ملامحه أنّه ينتمى إلى قبيلة الدّينكا، فهو طويل القامة، وأسنانه بارزة قليلاً إلى الأمام، وهي أوصاف أبناء الدينكا التى قالوا لى عنها فى السوق.. وبعد مقابلته شعرت بارتياح، فقد تعرفت الآن على وَزِيْرَيْ الإسكان والصحة.

فى اليومين التاليين لم يكن هناك مجال لمواصلة برنامج التعرف على باقى المسئولين، فرغم أن يوم السبت يوم عمل فى جوبا، إلا أن بعض المسئولين والوزراء يخرجون الى القرى المجاورة، و يوم الأحد هو العطلة الأسبوعية، وفكرت أن أقوم فى هذا اليوم برحلة صيد، غير تلك التى قمت بها مع جاسم، بأن أتوغل داخل الغابة، وليكن مايكون. كان معى فى هذه الرحلة مجموعة من الأصدقاء، ورغم أنّى لاأعرف طبيعة المنطقة والمداخل إلى الغابة، التى تبعد عن جوبا نحو خمسين كيلو متراً، أخذنا معنا مجموعة متنوعة من بنادق الصيد، فلم يكن الهدف هو صيد حمام أو غزال، فالغابة مليئة بالحيوانات الوحشية الأخرى، وكنت لاأدرى ماالذى سوف يحدث، ولكن وجودى مع هؤلاء الأخوة، أشاع فى داخلى الاطمئنان، فلاشك أنهم ذهبوا إلى الغابة من قبل، واصطادوا وعادوا، لكن مخاوف التجربة الأولى، أعادت الهواجس الى نفسى، فكيف سأواجه الحيوانات المفترسة، وأشاهد الفهود والنمور والأسود والمستنقعات والأفاعى، كل ذلك على الطبيعة وليس فى حدائق للحيوان، وخشيت أن يقفز إلى السّيارة المكشوفة ونحن فى الغابة قرد أو نمر، كنت أقود السيارة وأنا صامت مستسلم، بينما بقية الأخوة يتسامرون و يتضاحكون وكأنهم متوجهون إلى السّوق. كان الطريق إلى الغابة وعراً، وتكثر فيه الخيران (جمع خور) التى لم يجف ماؤها بعد. فنحن فى نهاية الخريف (موسم الأمطار)، ولم تكن هناك كبارى (جسور) لتعبر السيارات فوقها، لذا لم يكن أمامنا ــ كي نعبرها ــ إلاّ أن ينزل راكبو السيارة، ونشدها بونش صغير مثبت فى المقدمة، نربط الطرف الأمامى فى إحدى الأشجار خارج النّهر، وهذا ماحدث عندما واجهنا الخور الأول، وكان عرضه يبلغ نحو خمسة عشر متراً، نزل الرّكاب ورحت أقود السيارة وسط خضم من المياه، غطس أكثر من نصفها، وكان على السّيارة أن تعبر مرتفعات طينية، فلم تتمكن من ذلك ومن حسن الحظ أن المهندس حبيب والدكتور زاهر يعرفان طريقة استخدام الونش، فهذه ليست تجربتها الأولى مثلى... نزلا إلى المياه، وشدا الونش من مقدمة السيارة وربطاه فى شجرة، وبمساعدة المحرك تندفع السيارة إلى الأمام. وكنت أخشى من وجود تماسيح فى المياه، بينما الأطفال من أهالى المنطقة يصطادون

الأسماك ، فهذا الخور عبارة عن مجرى مائى متصل بالمجرى الرئيسى للنيل ، ويمتلىء بالمياه مع هطول الأمطار، فتتواجد فيه الأسماك إلى أن تجف مياهه ، واجتزنا الخور الأول ، وارتفعت السيارة على الأرض.. الأرض أمامنا لينة ، عليها بقايا أمطار، سرنا عليها مسافة عشرة كيلومترات ، قطعتها السّيارة فى حوالى ساعة ، وكانت السّيارة تنزلق وتتوقف كثيراً بسبب بقايا الأمطار على الطريق... وفى الطريق كنا نرى النّسوة والأطفال والرجال يسيرون فرادى ، يبتعد كل واحد عن الآخر بمسافة عشرة أمتار، وهم يحملون صناعاتهم اليدوية مثل الحصير وأزيار المياه ، ويذهبون إلى المدينة لبيعها... بعد هذا الطريق الصّعب ، وصلنا إلى أرض ترابية سرنا عليها براحة تامة ، ثم طلب مني المهندس حبيب أن أتوقف أمام مجموعة من الأكواخ ، وراح يسأل عن شاب اسمه (كسميرو) ، كان لابد من حضوره معنا ، لأنه دليل الطريق داخل الغابة ، فلن نستدل على طريقنا بدونه . وتجّمع حولنا الأطفال من أولاد وبنات ، وكانت أعمارهم تقل عن الخامسة عشرة.. الأولاد عراة تماماً.. ظلوا يتفرجون علينا ، وأتفرج أنا بدورى عليهم ، إلى أن وصل الدّليل ، إنه شديد السواد ، ويرتدى لباساً قصيراً مثل مايوه البحر، عارى الصدر، يمسك بحربة طويلة ، قفز داخل السيارة ، وراحوا يتبادلون معه الحديث ، الّذى لم أفهم منه كثيراً .

بعد وقت قليل بدأ الدليل (كسميرو) يعطي تعليماته . وطلب مني أن أترك الطريق العام وأتجه يميناً إلى طريق فرعى ، وما إن دخلته حتى بدأوا يجهزون البنادق ، ومعنى ذلك أننا أصبحنا على مشارف الغابة ، ولم أكن قد ابتعدت عن الطريق العام أكثر من ألف متر، حتى بدأت تظهر قطعان الغزلان على اليمين واليسار بالعشرات والمئات ، تجري مسافة خمسين متراً وتتوقف وتنظر إلينا وتجري من جديد ، ووجدت نفسى مشدوداً إلى هذا المنظر الذى أراه لأول مرة ، وبدأت الصيحات تتعالى من السيارة : « هذا الغزال صغير اتركه » ، « ذاك أكبر إنه ذكر لاتدعه يفلت » ، زال عنى الخوف ، ووجدت نفسى متحمساً وأحثهم على الضرب وكانوا يضحكون مني لأنى بدوت متلهفاً وكأننى سأملأ السيارة من هذه الغزلان ، فقد اكتفوا بصيد غزال واحد ، وتوقفوا للراحة ، لتناول الإفطار، فقد : تركنا جوبا

فى السادسة صباحاً ووصلنا موقعنا هذا فى الحادية عشرة، أى أننا قطعنا خمسين كيلو متراً فى أربع ساعات.

قطّعوا الغزال ووضعوه على النار الى جانب ماأحضرناه من أطعمة أخرى، وبدأوا الأكل، فى حين كنت متشوقاً لاصطياد أكبر عدد، لكنهم بعد أن ملأوا بطونهم. صرفوا النظر عن صيد الغزلان، وفكروا فى صيدٍ أكبر، مما أثار دهشتى، فهل هناك أكبر من الغزلان؟ إنى أكتشف عالم الغابة لأول مرة، فإذا بقطعان من الزّراف تجري أمامنا، تتبعها قطعان من النّعام تسير بسرعة فائقة، كان المنظر رائعاً إلى حدّ أننى نسيت كل مشاق الطريق ومخاوفه، ولم أصدق أننى فى غابة، فلقد كانت الطبيعة غاية فى الجمال، وتساءلت أينَ الأسود والنمور والفهود والثعابين وَالْفِيَلَة؟.. وازددت اطمئنانا عندما قالوا: إن هذه الحيوانات من الصعب أن تراها هنا، لأنها تتواجد فى أماكن بعيدة، وهذه الأماكن التى نحن فيها قريبة من المدينة، والفيلة لاتعيش فى المناطق المنبسطة، وإنما فى المناطق الوعرة الجبلية والصخرية، التي لاتسير فيها سيارات، وأحياناً قد نشاهد قليلاً منها يعبر هذه المناطق إلى مناطق أخرى، ونحن نسير الآن على طريق هو أصلاً كان طريقاً للسيارات، ولكن الأمطار صنعت منه حُفَرَاً، ولم يعد صالحاً لها، وعليك أن تأخذ حذرك، فقد تكون هناك حفر عميقة، مغطّاة بالأعشاب العالية الطول.

كانوا يشرحون لى معالم الغابة والمنطقة التى نسير فيها، وأنا أقود السيارة بحذر، ثم رأينا قطيعاً كبيراً من (التّيتل) وهو حيوان فى حجم البقر، ومن فصيلة الغزال، ويميل لون جلده الى اللّون البني، يشبه الزّراف، رجلاه الأماميتان أعلى من الخلفيتين، وله قرنان ملفوفان مثل قرني الماعز، وتكاثرت أعداده، فازداد الهرج فى السيارة عند رؤيته، كانوا مُصِرِّين على اللّحاق به واصطياد واحد منه، لأن لحمه ألذ من لحم الغزال، ثم اختلط عليهم الأمر، عندما مرّ قطيع من الجاموس الوحشى، لأنه أكبر من الأول، واستقر الرأي على أن نصطاد واحداً من هذا الجاموس الكبير، الذى يزن الواحد منه حوالى نصف طن، فأصابوه، ولكن كيف عرفوا أنه أصيب؟

قالوا: إن حيوان الغابة إذا أصيب ينفصل عن القطيع، أي عن مجموعته، وهذا الذى نراه قد انفصل، بمعنى أنه أصيب. وهذه حكمة الله فى خلقه فربما أنّه ينفصل حتى لايعرض غيره فى القطيع إلى الإصابة، وبعد ساعة كان قد فقد الحركة تماماً، وحمدنا الله على ذلك، فهو من أخطر حيوانات الغابة، لأنه إذا أصيب ولم تكن الإصابة قاتلة، يتحول إلى حيوان شرس، ويطارد من أصابه إلى أن يقتله، فإذا أصاب أحد من أهل الغابة المشاة جاموساً من هذا النوع بحربة، يظل يطارده إلى أن يجبره على تسلق أقرب شجرة تقابله، ولكن الجاموس يبقى تحتها يعيش ويرعى منتظراً الرجل إلى أن ينزل من الشجرة مهما طال الوقت، فإذا تمكن منه؛ فإنه يتلقاه بقرنيه ويرفعه إلى أعلى، ليضربه من جديد كالكرة المرتدة، ويظل يفعل فى ضحيته.. إلى أن يهشم عظامه تماماً، ويسحقه على الأرض برأسه ذى القرنين الكبيرين حتى يذيبه فى التراب.

حمدنا الله على أن ذلك كله لم يحدث معنا، فلقد كانت وسيلتنا فى الصيد هي البندقية وليست الحربة، واسترحنا بعد ذلك، وراح كسميرو (دليل الرحلة) يتعامل مع مانصيده من الحيوانات بمعرفته وبمشاركة الزملاء، حيث يقطع لحم الجاموس، الذى قدر وزنه بأكثر من نصف طن، فى نحو ساعة، ووضعوا لحمه فى السيارة، وتركوا على الأرض رأسه وهيكله، وراح البعض يشوي من لحم الغزال لإعداد وجبة غذائية شهية، كانت الغابة من حولنا خضراء جميلة، والأرض منبسطة، والأشجار متباعدة، وما إن ابتعدنا عن بقايا الجاموس، حتى حطت عليه النسور لتلتهمه.

بدأنا طريق العودة، وعلينا أن نصل إلى جوبا قبل مغيب الشمس.

فى الطريق رأينا قطعاناً كثيرة من الجاموس، وكنت حريصاً على أن نكتفى بما اصطدنا. وعلمت من الإخوان أن حيوان الغابة، عندما يُطارَدْ يدخل منطقة وعرة تسمى (الدقداق)، وهي منطقة مليئة بالحفر الصغيرة المتجاورة، لاتستطيع السّيارة أن تسير فيها أكثر من خمسة كيلو مترات فى الساعة، ليحمى نفسه من المطارد، وكأن الله قد أطلعه على سِرِّه.. ثم رأينا نوعاً آخر من الحيوانات، لم أره

من قبل، وعرفت أنه خنزير الغابة ويسمى (الحَلّوف)، أطلق زميل رصاصة نحوه فأصيب، وحاول أن يهجم على السيارة بقرنيه، وهو مصاب فى ظهره ورجله، ومن صفاته أنه إذا تعرض لإصابة فإنّه يؤذي ولكن ليس كالجاموس لصغر حجمه.

كان الوقت يزحف نحو المغيب.

لذا كان لابد من تنفيذ تعليمات كسميرو، الذى كان يوجهنى يميناً أو يساراً، حتى عدنا إلى الطريق العام، فشعرت بالاطمئنان، فيما كان الزملاء مسرورين بما غنمناه من صيد، ويتحدثون، إلى أن وصلنا المنطقة التى يسكن فيها الدليل كسميرو، وكانت الساعة الرابعة والنصف، ولم يبق سوى ساعة ونصف على مغيب الشمس ـ ففى الإقليم الاستوائى النهار والليل متساويان طوال العام، وقد يقل الوقت أو يزيد ربع ساعة فى موسم الأمطار ـ نزل كسميرو، وأخذ معه مايكفيه وأسرته من كل أنواع اللحم والخنزير بأكمله، ثم واصلنا الطريق، حيث وصلنا جوبا مع عتمة الليل بعد الغروب بقليل.

* * * * *



الفصل الثالث

في ربوع السّودان ويوغندا وكينيا

٦

بدأ الملل يتسرب إلى نفسى ، فحتى الآن لايوجد عمل حقيقى ، وقد مضى على وجودى شهر كامل ، وحتى خطابات الأهل لم تصلنى من الكويت ، فأصبح الأمر لايعدو أن يكون مجرد سياحة فى غابات الجنوب السودانى ، والتّسلية مع من تعرفت عليهم ، نلعب الورق (الكوتشينة) ، وأحاول أن أخفف عن محمد الذى بدأ الضّيق ينتابه ويشكو مثلى من قلة المراسلة ، ثم بدأ الخوف يتسلل إليّ أيضاً من مرض الملاريا ، فقد سألت ذات يوم عن أحد الأصدقاء الذى اعتدنا أن نلتقى به ، فقيل لى إنه مريض بالملاريا ، ويلازم فراشه فى البيت ، اهتزّ بدنى فكل معلوماتى عنها أنها مرض معد وخطير.. وأشفقت على الرجل ، وأدركت أن نهايته قربت لامحالة ، ولاشك أن الكلّ قد انقطع عن زيارته حتى لايصابوا بالعدوى ، لكنى فوجئت ببعضهم يقول :ـ

لقد كنا فى زيارته ، وقد أتينا من عنده الآن ، وهو فى تحسن ، فازداد فزعى ، فلا شك أن هؤلاء سيصابون بالملاريا ، فنهضت واقفاً ، وأردت الانصراف معتذراً بأنى متعب بعض الشيء ، وخرجت فى خوف من أن تلحقنى هذه العدوى ، وحاول محمد أن يهدىء من روعى ، بقوله :ـ

إنه مرض عادى ، وكل الناس هنا أصيبت به ، وأن الملاريا ليست مرضاً خطيراً إلى الحد الذى أنا أتصوره ، لكن فكرة الخوف تملكتنى ، وانقطعت عن الجلوس مع هؤلاء الذين يزورون مريضاً بهذا الدّاء ، وأحضرت كمية من مبيد البعوض والحشرات ، ورحت أرش بها المنزل فى كل مكانٍ ، فى الصّباح والمساء ، حتى أصبحت رائحته هي السّائدة ، واعتبرت ذلك نوعاً من الوقاية ، فكسرت حاجز العزلة الّذى فَرضتُه على نفسى ، وعدت إلى مجالسة الأصدقاء ، وأقنعونى بأن

الملاريا هنا مثل الأنفلونزا، يوماً بعد يوم ألفت هؤلاء الذين يصابون بها، فأصبحت أزورهم فى منازلهم وأجلس معهم، ولم أعد أخشى ذلك..

فى تلك الفترة كنت أقضى معظم الوقت فى محاولة التّعرف على المسئولين، وكانت الوزارة الاقليمية تضم تسعة عشر وزيراً، قابلت منهم حتى الآن ستة والمحافظ، وبقى أمامى ثلاثة عشر وزيراً ورئيس المجلس التّنفيذي (حاكم الإقليم) السّيد أبيل ألير، فذهبت إلى مكتبه، وكان عليَّ أن أقابل صغار المسئولين قبل الوصول إليه، وظللت ثلاثة أيام فى محاولة أن أتمكّن من مقابلة الأمين العام، الّذى أبديت له رغبتى فى مقابلة رئيسِ المجلس، فأبلغنى أن السيد/أبيل سوف يسافر إلى الخرطوم، ولا مجال لمقابلته.

إزاء ذلك وجدت الفرصة متاحة لأقوم بزيارات فى مديريات الجنوب الأخرى، فالجنوب ليس هو جوبا فقط، فهو يتكون من ثلاث مديريات، هي الاستوائية وكانت مقر الحكومة الاقليمية قبل التقسيم وعاصمتها جوبا، وهناك مديريتان أخريان هما:ــ

ــ بحر الغزال وعاصمتها واو.

ــ أعالى النيل وعاصمتها مَلَكَال.

كانت خطة الهيئة الكويتية للجنوب السُّودانى، هي إنشاء مدرستين ومركز صحى فى كلٍّ من هذه المدن الثلاث، وبالتّالى كان عليّ أن أزور هذه الأماكن وأتعرف على المسئولين فيها، طالما أن رئيس الحكومة هنا سيكون مشغولاً فى زيارته للخرطوم.

أرسلت برقيةً إلى محافظ بحر الغزال أبلغه بموعد وصولى إلى واو، وأخذت معى المقاول، وركبنا الطائرة (الفوكرز)، ذات المحركين، وهي تستخدم عادة بين مدن الأقاليم الجنوبية ومطار العاصمة القومية الخرطوم، وعندما وصلنا مدينة واو، لم أجد أحداً فى استقبالى، فتوجهت مع المقاول إلى استراحة صغيرة، تضم أربع غرف، وتؤجر كفندق أو بنسيون، ثم ذهبنا فى اليوم التالى إلى مساعد المحافظ لشئون التّعليم، وشرحت له مهمتى ومهمة مكتب دولة الكويت فى جوبا، فرحب بى،

ورافقني إلى حيث الأرض المخصصة، لأنه كان على علم مسبق بأن الكويت ستبني مدرستين ومركزا صحيا فى واو.

وفى المساء، وبينما كنت ومحجوب جالسين فى الاستراحة نتحدث، سمعنا صوت موسيقى عالياً فذهبنا، وماإن اقتربنا حتى رأينا الميدان الذى أمامنا، قد غص بالنّاس وكلهّم يرقصون على أنغام موسيقى الجاز الأفريقية، وقد تصاعد الغبار من تحت أقدامهم كدخان البخور، فالكل مبتهج و يرقص بطريقته.

عدنا إلى الاستراحة وكان علينا أن نتناول السحور فقد كنا فى شهر رمضان، وقد أعددنا مايلزمنا من طعام للفطور والسحور، من معلبات وبعض الخضروات والخبز، إلى جانب أكل شعبى يعد فى الاستراحة اسمه الفول والعصيدة والكِسْرَة (رغيف يصنع من الذّرة). ذلك أنه لايوجد فى هذه الاستراحة أو الفندق الصّغير، نظام لتقديم إفطار أو سحور، فالصائمون قليلون وسكان الجنوب ليسوا مسلمين فقط، فهناك المسيحى والوثنى، ولذلك لايلمس المرء جو رمضان، فمحلات الأطعمة والأسواق والدّكاكين مفتوحة طوال اليوم، كسائر الأيام العادية.

غادرت واو فى الصّباح، وتوجهنا إلى ملكال بالطائرة، حيث وصلناها فى الساعة الحادية عشرة قبل الظّهر، وكما حدث لنا فى واو، حدث لنا أيضاً فى ملكال، فلم أجد أحداً فى استقبالى، فذهبنا إلى الفندق، وهو أيضاً عبارة عن استراحة صغيرة، بها ست غرف فى منطقة خارج المدينة. رأيت ملكال لاتختلف كثيراً عن واو؛ المبانى فيها أقل، والأكواخ أكثر، وأراضيها طينية تميل إلى السواد، رغم عدم وجود أمطار فى هذا الوقت، وأكثر الناس يمشون حفاة، أسواقها أقل حركة من أسواق جوبا. وعندما خرجنا مساءً نتجول فى المدينة، رأيت ساحة مساحتها لاتزيد على مائة متر مربع، بها «لمبات» مضاءة متباعدة، كانت تبدو كما لوكانت سوقاً خيرياً بمناسبة شهر رمضان، فيها أناس يعرضون مشغولاتهم اليدوية من القماش على طاولات خشبية، وأشياء صغيرة بأثمان رخيصة، وملكال هذه ميناء على النّيل يتصل بميناء كوستى الموصِّل بين شمال السُّودان وجنوبه، حيث يستقبل البضائع القادمة من بورتسودان، ثم تنقل منه بواسطة

المعديات والبواخر النيلية إلى ملكال ، ومنها إلى جوبا و بقية مناطق الجنوب ، وبها بعثة تعليمية مصرية ، وأهلها يتحدثون العربية بأفصح مما يتحدث بها أهل جوبا ، ولكن المسئولين فى المدن الثّلاث ؛ واو وملكال وجوبا ، يحرصون على التّحدث باللغة الانجليزية ، وقد يكون السبب فى ذلك ، أن البعض ممن هاجر خلال الحرب الأهلية إلى المدن والدّول الأفريقية المجاورة ، اكتسب عادة الحديث باللّغة الانجليزية أو اللغة السواحلية ، بينما المتحدثون بالعربية هم الذين لم يتركوا مساكنهم ومناطقهم خلال سنوات الحرب الأهلية ، بالإضافة الى أن التّعليم فى الجنوب يُدَرَّس باللغة الانجليزية كلغة أولى ، إلا القليل من المدارس الّتى تُدَرِّس اللغّة العربية إلى جانب تلك اللغة .

فى صباح اليوم التّالى حضر إلى الفندق رجل يرتدى ملابس موظفى الجمارك ، قدم نفسه بأنه مساعد المحافظ ، جاء ليرحب بى بعد أن وصلتهم برقيتى ، و يتعرف على طبيعة العمل الّذى جئت من أجله ، وشرحت له مهمتى .

فطلب مني أن أكتب لهم بالتّفصيل عن المشروعات ، عن طريق مكتب محافظ جوبا .

أمضيت بقية شهر رمضان فى جوبا ، وكان هذا أول رمضان أقضيه بعيداً عن الوطن ، فلم أتمكن من مواصلة الزّيارات لبقية المسئولين خلال هذا الشّهر بسبب حرارة الطقس .

فى هذا الشهر الكريم تعرفت على أنواع الأطعمة السّودانية ، فبجانب العصيدة وملاح الويكه ، عرفت أن العصيدة أنواع ؛ منها عصيدة الدخن وعصيدة التلبون والذّرة ودقيق الفينا . وهناك طبق من الأرز لايختلف كثيراً عما يقدم فى الكويت ، أما الشّراب فهو متعدد ، فالسودانيون يهتمون بالعصير فى هذا الشهر ، و يشربون منه بكثرة ، فهناك عصير يصنع فى البيوت ويجهز قبل رمضان و يسمى « الحلو مر» ، وهو عصير يصنع من الذّرة ، وطعمه ليس حلواً ، فيضاف له السكر ، وهناك عصير التّمر هندى و يسمى العرديب ، و بالإضافة إلى عصير اللّيمون الطّازج ، توجد أنواع أخرى من العصير المُصَنَّع ومعبّأ فى أوانٍ زجاجية أو

بـلاستيكية ، وتقدم فى الإفطار أنواع من الحلوى ، لا تختلف كثيراً عن تلك الموجودة فى الـبـلاد الـعـربية من نوع الحلويات الشرقية . وقد أسعدنى خلال هذا الشهر أن تلقيت لأول مرة رسالة من الأهل ، فاطمأننت عليهم .

وجاء يوم العيد ..

فـتـوجـهـت فى الـسـادسـة صـبـاحـاً مع شـروق الـشّـمـس ــ كما هي الـعـادة فى الـكـويـت ــ لصلاة العيد فى ساحة تسمى (ميدان المولد) ، مخصصة لإقامة الشّعائر الـدّيـنـيـة كـالمولـد الـنّبوى الشّريف والأعياد والمناسبات الدّينية الأخرى ، ذهبت إليهـا ، ولكننى لم أجد أحداً ، فتوجهت إلى المسجد لظَنّى أنّ الصلاة قد تكون به ، فوجدتـه خـاليـاً ، ورأيـت رجـلاً يسير فى الشارع ، فسألته عن مكان إقامة الصلاة فـقـال : ــ هـنـا فى هـذه الـسـاحة . قلت له : ــ وأين الناسّ والشّمس قد أشرقت وارتفعت ؟

فرد : ــ

ــ ليس بعد ، فالصلاة فى الساعة السابعة والنصف ..

وكما قـال الـرّجـل ، بـدأ الـنـاس يتوافدون فى نحو الساعة السابعة ، حيث جاء المؤذن وفرش بعض الحصران[1] على الأرض ، فجلست ، وسرعان ما توافد المصلون مـن كـل مـكـان ، وكـان بـعـضـهـم يحـمـل سجادته ، وأقيمت الصّلاة تحت وهج الـشّـمـس ، وانتهـت فى نحـو الـثـامـنـة ، وراح الـنّـاس يـتـبادلون التّهانى .. الفقراء والمساكين كانوا قد تجمعوا وتكاثروا ، ليتلقوا القروش (العيدية)[2] من المصلين .

انـصـرفـنـا ، ولـكـنـى تـسـاءلت لماذا يصلى النّاس صلاة العيد فى وقت متأخر كهذا ؟ فعرفت أن المصلين يأتون من أماكن بعيدة ، سيراً على الأقدام ، لعدم وجود مواصلات ، ولإتاحة الفرصة لأكبر عدد من المسلمين للمشاركة فى الصلاة ، بعدها قمت بزيارة الأحياء لتقديم تهانى العيد إلى من أعرفه ، وفى كلّ بيت وجدت ديواناً أو مجلساً ــ كتلك التى فى الكويت ــ يتبادلون فيه التّهانى ، ثم ذهبت إلى المنزل

(١) الحصران جمع حصير يصنع من سعف النخيل أو الدوم أو الدليب .
(٢) العيدية عادة مايقدمه الكبار للصغار من مال ابتهاجاً بفرحة العيد .

لأتلقى بدورى التّهنئة . وهكذا أمضيت اليوم الأول فى تبادل التّهانى والزّيارات ، وهي عادة أصيلة ، وكما هي فى كل بلد مسلم ، وجدتها أيضاً فى جنوب السّودان ، فى ثانى أيام العيد ، عادةً يتقبل الحاكم التّهنئة فى أعياد المسلمين والمسيحيين على السواء ، فذهبت مع المهنئين كمواطن عادى ، وقف الحاكم وبجواره معظم أعضاء حكومته ، والنّاس تدخل فى صف طويل ، يقدمون التهنئة ، دخلت وخرجت ولم أعرف أحداً ، إلا بعض الوزراء الّذين التقيت بهم ، ولم يعيرونى اهتماماً ، مجرد مواطن من هؤلاء الذين يقفون فى الصّف الطويل ، ولاأكثر من كلمة « كل سنة وأنتم طيبون » وانصرفت على الفور، أما الوجهاء من مسئولين وتجار وأناس معروفين ، فإنهم بعد أن يقدموا التّهنئة ، يجلسون مع أعضاء الحكومة ويُقَدَّم لهم العصير.

ومرت أيام العيد فى بهجة وسرور، كما يحدث فى أيّ بلد عربى إسلامى ، ولم تكد تنتهى أيام العيد ، حتى بدأت أقواس الاحتفالات وأعلام الزّينة ترتفع فى الشّوارع والميادين وتنشط حركة الأسواق ، الأمر الذى لفت نظرى إلى هذه المناسبة التى لاأعرفها ، وخاصة أنَّ أيام العيد قد انتهت ، وعندما سألت ، عرفت أنهم يستعدون لاحتفالات الكريسماس ورأس السنة الميلادية ، ولم أكن قد اعتدت على ذلك فى الكويت ، لأن الإحتفال هنا أخذ طابعاً رسمياً على مستوى الحكومة الإقليمية ، ودبت فى المدينة حركة غير عادية ، وكان من الواضح أنهم سيظلون فى هذه الاحتفالات لعدة أيام حتى العام الجديد ، فوجدتها فرصة أن أسافر إلى الكويت ، لأبحث مع المسئولين فى الهيئة وضع المكتب .

* * * * *

أقام لى السيد جوزيف لاقو ليلة مغادرتى حفل عشاءٍ دعا إليه عدداً من كبار الضّباط فى القيادة الجنوبية ، وقد تركت هذه الدّعوة أثراً كبيراً فى نفسى ، لأنها كانت أول دعوة رسمية أتلقّاها من أحد المسئولين . وكانت لفتةً طيبةً منه ، عندما أصر على وداعى بمطار جوبا ومعه بعض الأصدقاء . وتوجهت إلى الخرطوم ، ثم القاهرة ، وفيها اتصلت بالكويت ، وكان هذا أول اتصال بينى وبين الأهل

هاتفياً، منذ أن غادرتهم فى شهر سبتمبر، فكان ذلك مصدر سعادة للأسرة الّتى أبلغتها بموعد وصولى، وفى المساء لم أغادر الفندق حيث بدأت أعد تقريراً عن سير العمل فى المكتب كما رأيته على الطّبيعة.

وصلت الكويت، وفرحت بلقاء الأسرة والأبناء، وقضيت كلّ اليوم معهم، وفى اليوم التّالى رفعت تقريرى إلى الهيئة، وكان يتضمن ثلاث نقاط رئيسية حول رأيى فى مستقبل العمل بمكتب جوبا، وهي على النّحو التّالى:ـ

(١) على الهيئة إذا أرادت أن يستمر عمل المكتب فى جوبا أن تغيّر من لوائحها الدّاخلية، وتصرف للمقاول جزءاً من مستحقاته بالعملة الصّعبة، ليتمكن من استيراد مواد من شرق أفريقيا، وبالتحديد من كينيا، هذه المواد هي الأسمنت والخشب والزّنك. ومايحتاجه المقاول، كي يتمكن من تنفيذ العمل، لأن جوبا لايوجد بها أيّ نوع من تلك المواد، ومن الصّعب نقلها من الخرطوم عبر كوستى إلى جوبا بالمعديات النّيلية، هذا إذا وجدت.

(٢) فى حالة عدم موافقة الهيئة على الاقتراح الأول، عليها أن تعطي المبلغ المخصص للمشاريع فى الجنوب إلى الحكومة الإقليمية وتغلق مكتبها، خيرٌ من أن يبقى المكتب بلا عمل.

(٣) إنه فى حالة عدم الأخذ بما جاء فى الإقتراحين الأول والثانى، أطلب اعفائى من تلك المهمة.

تركت التّقرير على مكتب العضو المنتدب، وبعد ثلاثة أيام أبلغنى الأستاذ السّقاف، أن مجلس إدارة الهيئة قد وافق على الاقتراح الأول من تقريرى، وطلب أن أسحب مبلغاً من حساب المكتب فى جوبا، وأصحب المقاول معى، وأشترى المواد اللاّزمة، إلا أننى اقترحت أن تحول الهيئة مبلغاً من حسابها فى الكويت لأفتح به حساباً فى أحد البنوك فى نيروبى، ولاداعى لسحب عملة صعبة من جوبا، فالسودان أحق بتلك العملة. فأمر بتحرير شيك بمبلغ عشرة آلاف جنيه استرلينى.

كان عليّ أن أبدأ العمل، فلم يكد يمضي يومان بعد عودتي إلى جوبا، حتى أعددت العدة للسفر بالسيارة إلى كمبالا (عاصمة يوغندا) في طريقي إلى نيروبي، وأخذت معي المقاول وأحد أقاربه يدعى عبدالكريم عكاشة، كان علينا أن نقطع برّاً بالسيارة حتى كمبالا، ثم نستقل قطاراً في اليوم التالي إلى نيروبي.

يبدأ الطريق من جوبا إلى كمبالا عبر نيمولي ـ تلك القرية التي تبعد حوالى مائتي (كم) وتقع على الحدود السودانية الأوغندية ـ وكنا نمر بنقاط شرطة للتفتيش، فقطعنا الطريق في أربع ساعات، حتى وصلنا نيمولي في الساعة العاشرة صباحاً، فتناولنا افطارنا، وانتهينا من الإجراءات الجمركية بها، وقبل الخروج من الحدود السودانية، استوقفتنا نقطة للجيش السوداني، بحيث أعيد تفتيشنا تفتيشاً دقيقاً، ثم واصلنا الرّحلة، وعبرنا جسراً طوله لايزيد على اثنى عشر متراً، هو النقطة الفاصلة بين الحدود السودانية والأوغندية، وهذا الجسر نصفه سوداني والآخر أوغندى.

* * * * *

دخلنا الأراضي الأوغندية، وكان علينا أن نسير على اليسار على غرار النّظام الانجليزى في المرور، وكنت أنا الّذى أقود السيارة، فوجدت معاناة في القيادة، لأني لم أعتد على قيادة السيارة يساراً، وكان عبدالكريم ينبهني بين وقت وآخر، كلما اتجهت يميناً، فقللت من سرعة السيارة تحسباً لأي خطأ. في بداية الطريق كان من الصّعب عليَّ أن أميز بيت المواطنين الأوغنديين والسودانيين، الّذين تركناهم في نيمولي، فكلهم وإنّ كانوا من دولتين مختلفتين، لكنهم ينتمون إلى قبيلَتَيْ المادي والآشولي اللّتين تعيشان في البلدين على مناطق الحدود، وكلهم ذوو بشرة شديدة السّواد، وخاصة هؤلاء الذين يسكنون في الجانب اليوغندى.

بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً وصلنا إلى أول معسكر للجيش الأوغندى. ومرة أخرى جرت عمليات التّفتيش الدّقيق، فسهل لنا عبدالكريم هذه المهمه، فهو يتحدث اللّغة السواحلية التي يتحدث بها الجنود.

واصلت السير، وبدأت أعتاد على قيادة السيارة يساراً، لأن الطّريق داخل الأراضى الأوغندية حتى ولو لم يكن مسفلتاً فهو مُسَوىً تماماً، مما يساعد السائق أن يسير بأيّ سرعة يريد، لذلك قطعنا نحو ستين كيلو متراً بسهولة، ووصلنا أتياك، وهي أول قرية داخل الأراضى الأوغندية، وفيها يقع مركزا الجوازات والجمارك. وقبل وصولنا إليها بقليل كان هناك حاجز يسد الطّريق، والحاجز عبارة عن عود من البامبو، مستطيل، ومسند على قائمين من جذوع الشّجر، نبهنى إليه عبدالكريم وطلب مني أن أتوقف عنده، وسألته عن السبب، أجاب ــ وهو يعلم ــ: سوف ترى. عندما توقفت، أتى إلينا مواطن يوغندى، ملابسه كاكية قديمة، وفى يده عصا طويلة، فى آخرها سلة من القماش تشبه تلك الّتى تستخدم فى ملاعب كرة السلة، ومدّها داخل السيارة، وسألت عن معنى ذلك، فقال: إنه يفتش خشية أن تكون بها ذبابة (التسي تسي) الّتى تسبب مرض النّوم، وأنّه إذا وُجِدَتْ فى سيّارة ما لايسمح لها بدخول يوغندا، أفزعنى ذلك، فمجرد أن أواجه إجراء على هذا النّحو، ينبه إلى احتمال وجود هذه الذّبابة، أمر لم أتوقعه، حمدنا الله أنه لم يجدها، فواصلنا السير، حيث توقفنا فى أتياك مركز الجوازات والجمارك، وانتهينا من سلسلة الإجراءات بفضل عكاشة، وبعد أتياك بمسافة قصيرة، وصلنا أول المدن الأوغندية الصّغيرة وتسمى (جولو)؛ بيوتها تشبه البيوت العربية، مدهونة باللّون الأبيض، لاتخلو من جمال، وكان الطّقس أبرد مِمَّا هو فى جوبا، توقفنا فيها، فإذا هي تعج بحركتها التجارية، تناولنا غداءنا، وزوّدنا السيارة بالوقود بعد أن أجرينا فحصاً عليها فى أحد (الجراجات).

الطريق إلى كمبالا مرصوف وعريض، وكلما نقترب من كمبالا نرى أمامنا مظاهر الحياة المتقدمة، شكل المبانى وتنظيم السير، واستخدام إشارات المرور الضّوئية، والأرض خضراء منبسطة، زرعت بأنواع مختلفة من الحبوب، مثل الفول والذّرة والموز وغير ذلك، وتبدو حالة السكان الصحية جيدة. قطعنا ثلاثمائة وأربعين كيلو متراً من جولو حتى كمبالا، تفصل بينهما مدن صغيرة جميلة، ودوريات المرور تجوب الطرق، فهي تشدد العقوبة على من يرتكب مخالفة، لذلك

كنت أخفف من السرعة كلما اقتربنا من كمبالا ، عبر ضواحيها الصّغيرة ، ووصلناها فى السّاعة الخامسة والنصف مساء .

فى كمبالا أقمنا بأكبر فنادقها وهو (انترناشونال هوتيل) ؛ فندق كبيرٌ وجميلٌ ، و يتكون من ستة عشر طابقاً ، استرحنا بعض الوقت من عناء الطّريق وألقى كلُ منا بنفسه في حمامات الغرف ليزيل عن جسده ماعلق به من تراب ، ثم ذهب عبدالكريم إلى أصدقائه السودانيين المقيمين هناك ، و بقيت أنا ومحجوب بالفندق ، وقد استعدتُ نشاطى بعد الحمَّام الساخن ، فهبطت مع محجوب حيث تجولنا بصالات الفندق .. كلّ شىء به كان جميلا ، يبعث على الإرتياح ، خاصة أن الطّقس كان معتدلاً ، ويميل إلى البرودة .. ومظاهر الطبيعة حول الفندق تزيده جمالاً .

عاد عبدالكريم وقد أنهى حجز المقاعد فى القطار لنا جميعاً مساء الغد إلى نيروبى .. فطلبنا العشاء فى نحو السّاعة التّاسعة مساء ، وحمدنا اللّه أن وجدنا قطعة من لحم البقر وشوربة ورغيفا ، لأنه فى مثل هذه الساعة يكون المطعم قد أوشك أن ينهي عمله .

غرف الفندق جميلة ، وليس بها أجهزة تكييف أو مراوح ، فالجوُّ لايحتاج إلى ذلك لأنه معتدل ، ولايتغير طوال العام ، فقد يبرد قليلاً بالليل ولكنه معتدل ، وقد يرتدي المرء بدلةً كاملةً فلا يشعر بالحرّ، أو يرتدي قميصاً ، فلا يشعر بالبرد ، وهو منعش وصحى ، و يظل طوال العام غائماً ، يتخلله رذاذ خفيف من المطر يزيد فى مواسمه .

استيقظنا مبكرين ، وتناولنا إفطارنا وركبنا سيارتنا ورحنا نطوف فى شوارع المدينة الجميلة المتميزة بجمال الطّبيعة ، بطقسها وأشجارها الخلابة ، ورذاذ المطر المنعش الّذى يتساقط خفيفاً فى ساعات الضّحى ، ثم تجولنا على أقدامنا فى أسواق المدينة ، والتقينا ببعض السودانيين المقيمين هناك من أصدقاء عبدالكريم ومحجوب ، وأمضينا معهم بعض الوقت ، ثم تركنا السيارة عند واحد منهم وتوجهنا إلى محطة القطار لنبدأ رحلة السفر إلى نيروبى .

كانت مقاعدنا بالقطار بالدّرجة الأولى، مطعمه جميل؛ فيه ثماني طاولات، تتسع لستة عشر شخصاً يأتون إلى المطعم كلما دقّ الجرس، حيث تنصرف مجموعة وتأتي أخرى، إلى أن يتناول كل الركاب طعامهم.

وصلنا إلى نيروبي في الساعة السادسة صباحاً. كان الجوّ أبرد مما كان عليه في كمبالا، فهي أكثر ارتفاعاً ومناظرها خلابة و يغلب عليها الطّابع الحديث، منازلها ذات طوابق متعددة ومنخفضة. لفت نظري حركة النّاس السائرين بنشاط، وكثرة استخدام الدّراجات الهوائية، ومعظم السيارات يقودها آسيو يون وأور بيون.

استأجرنا تاكسياً، سار بنا في شوارع المدينة حتى وصل شارعا اسمه البيع والشراء، واسمه أيضاً بالسواحيلي (بيع شراء)، وفي هذا الشارع نزلنا في فندق صغير من فنادق الدّرجة الرابعة اسمه (فرانسيه هوتيل)، صاحبه هندي يدعى (شاه)، قد اعتاد عبدالكريم الإقامة فيه كلما زار نيروبي، و بالفندق موظف واحد واثنان من العمال، اللذان يقومان بتنظيف الغرف وترتيبها، تناولنا الإفطار في مقهى يقع أسفل الفندق، شربنا كوباً من الشّاي، وتوجهنا إلى السفارة الكويتية.

كان علينا أن نقوم بمهمتنا لإيداع مبلغ الشّيك الّذي أحمله في أحد البنوك، حتى يتمكن المقاول من شراء المعدات الّتي تلزمه.

لم يكن مقر السفارة بعيداً عن الفندق، فسرنا على الأقدام في الشّوارع المؤدية إلى السفارة.. المحلات بدأت تفتح، وكلّ أصحابها من الآسيو يين الذين يحملون الجنسية الكينية، فقد جاء آباؤهم وأجدادهم مع البريطانيين الذين قدموا إلى كينيا في أواخر القرن التاسع عشر، واستوطنوا هذه المناطق التي تلائمهم، لأنها أبرد مناطق القارة الأفريقية، وهذه المحلات تتخصص في بيع صنف واحد، وهي نظيفة ومنسقة وتشجع على الشراء.

وصلنا إلى مقر السفارة، وقد استمتعنا بالسير في الشوارع الجميلة المؤدية إليها.

استقبلتنا السكرتيرة التى تتحدث العربية، تدعى كلثوم، وهي من اليمن الجنوبى وتعمل منذ فترة طويلة بالسفارة، حيث تعيش مع زوجها وأولادها فى كينيا، ومعها فى المكتب سكرتيرة أخرى، بعدها وصل القائم بالأعمال.

تعرفت عليه وعرفت أن اسمه جاسم الصباغ، رحب بى كثيراً، وأبلغته أننى قادم من جوبا فى مهمة تتعلق بمكتب الكويت، وأعدّ كتابا إلى البنك الذى تتعامل معه السفارة لأفتح حساباً به وهو ليس بعيداً عنها، فتحت الحساب. وعلى الفور توجهنا إلى المنطقة الصناعية على بعد عشرة كيلو مترات من وسط المدينة، وأتاح لنا ذلك أن نشاهد شوارعها التى أعجبت بها، كما أعجبت بحركة المرور، حيث السيارات تسير بنظام، ولاتتجاوز الخطوط الأرضية المرسومة ولا أحد يستخدم المنبيّه (البوري).

اشترينا ماحتاجه المقاول من زنك وخشب، ولم نجد الأسمنت، لأنه لايتوفر إلا فى ممباسا، تلك المدينة الكينية الجميلة التى تقع على المحيط الهندى، وتعتبر من أهم الموانىء الأفريقية، وكان لابد من السفر إلى هناك لشرائه، فأعددنا أنفسنا لنغادر نيروبى فى اليوم التالى إلى ممباسا.

فى الصباح ركبنا سيارة من تلك السيارات التى تؤجر من محطة خاصة لنقل الركاب بين نيروبى وممباسا، وكان معنا ثلاثة آخرون من الكينيين، وانطلقت بنا وسط جو غائم ورذاذ مطر خفيف يتساقط من خلف النافذة، التى نلمح منها كثرة السيارات على الطريق، عرفنا أن أمامنا خمسمائة وثمانين كيلو متراً، فى الطريق كنا نشاهد بعض المبانى والمصانع، وبعد نحو ساعتين ظهر أمامنا جبل مرتفع ارتفاعاً شاهقاً، وعرفت أنه جبل كلمنجارو الشهير، الذى يقع فى تنزانيا على الحدود مع كينيا، يبدو آية فى الجمال، ويبتعد عن الطريق بنحو عشرة كيلو مترات، لكنه يبدو كما لو كان على بعد ألفي متر لضخامة حجمه.

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً.. الطريق جميل وعريض ومعبد. ومحطات البنزين تنتشر على جانبيه، والحركة نشطة، وخاصة فى محلات الأطعمة، التى تقدم الطعام للمسافرين، اقتربنا من مدينة ممباسا التى ظهرت أمامنا من

بعيد، وبدأنا نشعر بحرارة الجو، التى تشبه إلى حد بعيد الحرارة فى المناطق الحارة. على الطريق المؤدى إلى المدينة أشجار جوز الهند، وتنتشر بكثرة إلى حد أنها تظلل الطريق، ومن بين أغصانها تتدلى ثمارها ذات اللون الأخضر.. ولذلك انتشر باعتها فى الطريق على عربات خشبية تجرها الحمير (الكارو)، فتذكرت أكَلنا لهذه الثمار جافةً ونحن صغار فى الكويت، ورحت أتأمل المدينة الّتى تبدو جميلة وهادئة، ولاحظت أن بعض النّسوة يرتدين العباءة، مثل الّتى ترتديها المرأة الكويتية، وبعضهم مخفيات وجوههن خلف قماش أسود، كالكويتيات والنّسوة فى دول الخليج، إنهن من أصل عربى نزحن مع أزواجهن من اليمنين الشمالى والجنوبى وأقاموا فى ممباسا واستوطنوها، وهم يُعرفون بالعرب رغم أنهم لايتكلمون العربية، والرّجال يرتدون لباس أهل اليمن، وهو القميص والإزار والطاقية، وهم يحتفظون بهذا الزى نظراً لحرارة الجو فى ممباسا، التى تشبه حرارة الجو فى موطنهم الأصلى، ومع هؤلاء العرب يوجد الآسيويون الذين يعملون بالتجارة، وفى هذه المدينة تجد المساجد بمآذنها الإسلامية المرتفعة، والمبانى السكنية من دور أو دورين، ومن النادر أن ترى تلك المبانى التى ترتفع الى أربعة أدوار، وينتشر فى شوارعها باعة جوز الهند، الواحدة منها ماؤها يملأ كأسين.

توقفت السيارة فى المكان المخصص لسيارات الأجرة فى وسط المدينة، فاستأجرنا سيارة تاكسى أخرى، وكان سائقها من أصل يمني اسمه محمد، يرتدى القميص والإزار والطاقية، ويتكلم العربية ولكنه لاينطقها جيداً، وعندما يصعب عليه نطق كلمة يتكلمها بالسواحلية.

نزلنا فى فندق صغير، وتناولنا غداءنا فى أحد المطاعم القريبة. وقررنا أن نستريح اليوم ونواصل العمل غداً.. فاتفقنا مع السائق أن يأتى فى الصباح الباكر. وأمضينا فترة المساء فى مشاهدة المدينة، التى تكثر فيها النوادى الليلية حيث يرتادها البحارة من مختلف الجنسيات الذين ترسو سفنهم على شواطىء المدينة.

فى اليوم التالى ذهبنا إلى مصنع بمبوري للأسمنت الذى يبعد نحو أربعين كيلو متراً. واتفقنا على شراء كمية من الأسمنت يتم شحنها بواسطة المصنع إلى جوبا،

ودفعنا شيكاً بالمبلغ، وعدنا إلى المدينة حيث استكمل محجوب شراء مايلزمه من أدوات البناء، ثم قمنا بجولة، وذهبنا إلى الشاطىء لتناول الغداء فى أحد الفنادق المطلة على المحيط، شاطىء البحر رماله ناعمه كنعومة الدقيق (الطحين)، ولونه أبيض كالملح، تغوص فيه الأقدام ولايعلق بها، حتى إنك لتشعر كما لو كنت تضغط على قطعة من الإسفنج. يسكنه كثير من الأوربيين والآسيويين وبعض الأفارقة، الذين يفضلون ممباسا على نيروبى لحرارة جوها، وخاصة الأوربيين الذين سلموا أنفسهم لأشعة الشّمس الحارة على الشاطىء بأجساد شبه عارية.

عدنا إلى فندقنا الصغير، لنستعد لرحلة العودة إلى نيروبى. وفى الصباح ركبنا سيارة الأجرة ذات الركاب السبعة وعدنا إلى نيروبى.

إن نظام الحياة فى كينيا يشبه إلى حد كبير النّظام الإنجليزى، حيث تفتح المحلات من الساعة التّاسعة صباحاً وحتى الساعة الخامسة بعد الظّهر، تتخللها ساعة غداء من الواحدة إلى الثانية، وفى هذا الوقت يتوجه معظم العاملين فى طوابير أمام المحلات الّتى تبيع الأطعمة الجاهزة، للحصول على وجبات سريعة مثل السندوتشات والدّجاج المشوي والسمك المقلي والشبس، وهم يفضلون الشّبس مع زجاجة مياه غازية، ثم تغلق كافة المحلات بعد الخامسة باستثناء تلك المحلات الّتى تدفع ضرائب أكثر، ومنها الذى يستمر حتى الثّامنة أو العاشرة ليلاً، ويحرص الكينيون على مظهرهم، فهم يعتنون بنظافة ملابسهم، حتى العمال منهم، كما أنّهم يهتمون جداً بتنظيف أحذيتهم وتلميعها، لهذا ترى ماسحى الأحذية على امتداد أرصفة الشوارع.

فى اليوم التالى ذهبنا لنصلى الجمعة فى مسجد نيروبى الكبير فى وسط السوق، فوجدناه غاصاً بالمصلين، ولاموضع فيه لقادمين جدد، حتى إنى وجدت صعوبة لأجد مكاناً بينهم، مما اضطرنى أن أصلي فى فناء المسجد مع من حضروا متأخرين، وبعضهم انتظر خارج الجامع إلى أن قامت الصلاة. أنجزنا كل شىء وعلينا أن نعود إلى جوبا، فأخذنا قطار المساء من نيروبى ووصلنا كمبالا فى الصباح، وأقمنا بها يوماً واحداً، وغادرناها فى الصباح الباكر. ووصلنا إلى نيمولي ــ نقطة الحدود السودانية ــ فى الساعة الثّانية والنصف ظهراً، وسط جو

ساخن وحار. وبعد آن انتهينا من الإجراءات الخاصة بالجوازات والجمارك، قررنا أن نبيت اللّيلة، لأن أمامنا طريقا طويلا، والطقس هنا أبرد منه فى جوبا وأحر منه فى يوغندا.

كانت الإستراحة من قسمين:ـ أحدهما مبنى من الأسمنت، يضم أربع غرف، والآخر على الطراز الأفريقى، أي تلك الأكواخ (القطاطى) المبنية من القش والأخشاب وأغصان الشّجر وأمضينا ليلةً جميلةً، لم يعكر صفونا خلالها إلا ذلك البعوض المنتشر بكثرة فى الغرف. وفى الصباح الباكر كانت السحب الخفيفة تكسب المنطقة جمالاً خلاباً، وتلك المناظر الطبيعية المتمثلة فى الجبال المنتشرة هنا وهناك حول النيل القادم من بحيرة فكتوريا فى اوغندا. ومن بعيد رأيت قطيعاً من الْفِيَلَة يسير على سفح جبل فى منظر رائع، بدا وكأنه صورة مجسدة للوحة فنان بارع، هو الله الخالق، ورحت أسير على قدميَّ تجاه النيل المندفع بقوة نحو الشّمال، وقد برزت رؤوس فرس البحر الضّخمة (سيد قشطة) على سطح الماء.

قبل أن نواصل طريقنا إلى جوبا توجهنا إلى منطقة الشلالات، التى تبعد عن نيمولي بنحو عشرة كيلو مترات. فركبنا السيارة، وسرنا شمالاً على طريق منحدر. وشاهدنا الجداول المائية وهي تندفع من الجبل فى اتجاه النيل، وكان علينا أن نسير ببطء وحذر فالطريق صخرى ووعر، قطعنا العشرة كيلو مترات فى نصف ساعة، ثم أوقفنا السيارة، ورحنا نمشى على أرض صخرية سوداء صلبة، ووصلت إلى أسماعنا أصوات هدير المياه التى تعلو كلما اقتربنا، ثم بان أمامنا الماء المندفع المتلاطم، يرتفع زبده كبنايةٍ عاليةٍ، وبسرعة تصل إلى مائتى (كم) فى الساعة، وأصبحنا على بعد نحو خمسين متراً من الشّلالات القادمة من بحيرة فكتوريا، لتأخذ المياه طريقها إلى الشمال، فى رحلة طويلة عبر جوبا وملكال والخرطوم لتصل إلى مصر، وتنتهى عند البحر الأبيض المتوسط. ووسط هذه المياه المندفعة، رأيت صيادى السمك يصطادون سمك (العجل)، ولم أتصور كيف يجازف هؤلاء للصيد فى مكان كهذا، ولما سألتهم، قالوا: إنهم اعتادوا على ذلك، فهذه حياتهم اليومية ومصدر عيشهم.

أثارت هذه المناظر فى نفسى التأملات على قدرة الخالق سبحانه وتعالى .. كيف لماء منحدر بهذه السرعة يندفع منذ أن خُلِقَ، ولم يتمدد النهر عرضاً ، بل ظل فى مجراه ، ذلك لأن الله الذى خلق روافده على الجانبين ، صبّ لها خرسانة من حجر أصم ، يعجز هذا الماء المنحدر بقوته من اختراقها . سبحانك ربى خالق وحافظ ومسيطر على كل شيء .

عدنا إلى السيارة ، وبدأت رحلة العودة إلى جوبا ، فى الطريق غير المرصوف ، وعلى بعد حوالى أربعة كيلو مترات من نيمولي ظهر أمامنا جبل ، لا يقل ارتفاعه عن ثلاثة آلاف قدم ، وكان علينا أن نصعده وبه منحنيات حادة وخطرة ، كانت سيارات اللوارى الشاحنة (التريله) ، الّتى تحمل مواد البناء أو الوقود تصعد ذلك الجبل ، فكنت فى دهشةٍ ، كيف تتمكن هذه الشاحنات بوزنها الثّقيل من الصّعود ، بينما وأنا فى سيارة جيب صغيرة وليس معى سوى اثنين من البشر أشعر أننى فى موقف صعب .

تجاوزنا المنحنيات الحادة ، ووصلنا إلى قمة الجبل بعد أن قطعنا ثمانية كيلو مترات من بدايته ، وأوقفت السيارة لنشاهد روعة الطبيعة من حولنا . فقد كانت نيمولي تبدو أسفل الجبل من هذا الإرتفاع ، والنيل فى اندفاعه ، والأرض منبسطة ، والجبال من حولها ، والغيوم تظلل الأرض من حولنا ، المشهد كان خلاباً ، وتمنيت لوأنَّ أهلى وأسرتى وأصدقائى فى الكويت ، كانوا معى فى تلك اللحظة ، ليشاهدوا روعة الطّبيعة وجمالها فى تلك البقعة النائية من عالمنا العربى .

عدنا إلى السيارة ، وواصلنا رحلة العودة الى جوبا ، التى وصلناها فى منتصف النّهار .

* * * * *

الفصل الرابع

الشيخ صباح السالم يزور رجوبا

عندما كنت فى الكويت، أبلغنى الشّيخ علي صباح السّالم نجل الأمير الراحل أنه سيحضر إلى جوبا فى شهر فبراير (شباط) للصّيد كالعادة، فكان عليَّ بعد عودتى من نيروبى وكمبالا، أن أقابل رئيس المجلس التنفيذى العالى لأبلغه ولأشرح له مهمتي هنا، واستغرقت محاولتى لمقابلة السَيد أبيل ألير عدة أيام بين مكاتب الموظفين لتحديد الموعد؛ فقد توجهت إلى أحد الموظفين، وطلبت مقابلة الأمين العام للمجلس التنفيذى العالى فأحالنى إلى موظف آخر أعلى منه درجة، الّذى أحالنى بدوره إلى مدير مكتب السيد/أبيل، والذى طلب مني أن أعود فى اليوم التالى، وعندما عدت كان عليَّ أن أنتظر ساعتين حتى أقابل السيد (كليتو) الأمين العام للمجلس، الذّى شرحت له رغبتى فى مقابلة السّيد أبيل، وكسائر الموظفين أخبرنى أن السيد أبيل مشغول ومن الصّعب مقابلته اليوم، وطلب مني أن أعود فى اليوم التالى، وتكرّر هذا المشهد أكثر من سبعة أيام؛ أذهب إليه ليطلب مني بعد انتظار ساعتين أو أكثر فى مكتبه، أن أعود فى اليوم التالى، وكنت قد تعودت على ذلك التأجيل وأنا أزور الوزراء للتعرف عليهم، ولكن كلمة (بكره) هذه المرة تكررت أكثر من سابقاتها، فألححت عليه فى اليوم الثامن بضرورة تحديد موعد المقابلة. لأن طبيعة عملى فى الجنوب تتطلب مقابلة كبار المسئولين، وعلى رأسهم رئيس المجلس التنفيذى العالى فقال لى: ـــ خلاص.. تأتى غداً.. وسأبحث الأمر، جئت فى اليوم التاسع فأبلغنى أن السيد أبيل طلب منه أن أقابل وزير الرئاسة، فرافقنى إلى السيد لورنس لُوال لوال وزير الرئاسة، وبعد أن شرحت له مهمتى ورغبتى فى مقابلة رئيس المجلس التنفيذى العالى، اقترح أن يتولى هو إبلاغ ما أريد إلى الرئيس، لأنه مشغول جداً ولديه لقاءات واجتماعات. عند ذلك فاض بى، وقلت له: ـــ إنني هنا ضيف، وممثل لدولة

أخرى تقوم بإنجاز مشاريع فى جنوب السودان، وتقتضى طبيعة عملى هذه، أن أتعرف على كافة المسئولين، وعدم مقابلتى لرئيس المجلس تعنى أنكم لاترغبون فى استمرار نشاط هذا المكتب، وترفضون الأعمال والمشروعات التى يقوم بها.

فكّر قليلاً، ثم قال انتظر.. وخرج من مكتبه، وعاد ليقول إن رئيس المجلس لديه موعد الساعة الواحدة، والساعة الآن الواحدة إلا ربع، يمكنك مقابلته خلال ربع الساعة هذه، فشكرته وذهبت معه حيث قدمنى إلى السيد أبيل، الذى رأيته رجلا عاديا متواضعا، لكن مساعديه يحاولون أن يرسموا حوله هالة معينة تبعده عن الآخرين. وبادرنى بالتّحية، وترك مقعده ليجلس إلى جانبى. شرحت له طبيعة عملى، وأنني هنا منذ أربعة أشهر، وحريص على أن أتعرف على كافة المسئولين، لأن ذلك من شأنه أن يساعدنى فى إنجاز مهمتى. وأبلغته أنني ذهبت إلى الكويت وعدت منها منذ أيام، واستطعت أن أُذَلّل الصعوبات بالنسبة لعمل المكتب، وإننا قمنا بفتح حساب فى نيروبى لتوفير مواد البناء. ولاحظت أنّه يستمع إليّ باهتمام، والسرور بادٍ عليه، وانتهت الخمس عشرة دقيقة المخصصة للقاء، ولكن الحديث استمر ودخل الوزير لينبه بأن الوقت انتهى، ولكن السيد ألير لم يعر ذلك اهتماماً، وحتى عندما يرن جرس الهاتف فى مكتبه لم يحاول أن يرد، بل أعطى وقته لى كاملاً. وعَلِمَ مني أنَّ الشيخ علي قادم للصيد كعادته، فأعطى تعليماته بأن توفر له كلّ التسهيلات مع رخص مجانية للصيد. واستمر اللقاء خمساً وأربعين دقيقة. شكرته وخرجت من عنده وأنا أشعر بارتياح كبير لهذه المقابلة. وتوجهت إلى الوزير وشكرته، ثم إلى/ كليتو الذى أفهمني بأنه جارى ولايفصل بيته عن بيتي سوى عشرة أمتار، هي عرض الشارع، وأعربت له عن سرورى بذلك، وتمنيت أن تتوثق العلاقة بيننا.

وصل الشيخ علي بعد عدة أيام، ومعه بعض الأصدقاء، وأقاموا معى ليلتين، أعدوا خلالها سياراتهم وزودوها بالوقود، وأخذوا معهم مايكفيهم للإقامة لمدة أسبوعين. وأمدتهم مصلحة الصيد بمرافقين وحراس، تنفيذاً لتعليمات السيد/أبيل. وتوجهوا ليقيموا معسكراً فى الغابة فى منطقة توريت شرقى مدينه جوبا، وكنت على اتصال يوميٍّ بهم عن طريق جهاز لاسلكى أتابع أخبارهم يوماً بيوم. وبعد

أربعة عشر يوماً علمت أنهم سيعودون إلى جوبا فى طريقهم إلى الخرطوم، فذهبت لأقضي معهم اللّيلة الأخيرة فى منطقة الصيد، وهناك رأيت جلود الحيْوانات الّتى اصطادوها منتشرة ومعلقة على الحبال، وكذلك رؤوس الحيوانات المختلفة مثل الفيل والجاموس والتّيتل والغزلان واللّحوم بكميات كبيرة. وكان الشيخ ورفاقه سعداء بإقامتهم فى الغابة وبما اصطادوه من حيوانات، لكنه أبدى أسفه لأنه سيغادر ولم يصطد أسداً حتى الآن.. قلت له وأنا أقصد المزاح :ـــ غداً فى الصباح سأرافقكم إلى الغابة وسنصطاد الأسد. ولم أكن أتوقع أن يتحول ماقلت إلى حقيقة، فعندما خرجنا إلى الغابة مع شروق الشمس، ولم نكن قد ابتعدنا عن المعسكر أكثر من أربعة كيلو مترات، إذا بنا وجهاً لوجه مع أسد كبير، لم يكن بعيداً عنا، واعتقدنا للوهلة الأولى أنه لبوءة لعدم وجود فروة حول رقبته، وكانت هذه أول مرة أشاهد فيها حيواناً مفترساً خارج أقفاص حدائق الحيوان. وظل واقفاً مكانه ولم يهرب منا كالحيوانات الأخرى، بل راح ينظر إلينا متباهياً، وكأنه هو الّذى يتفرَّج علينا، وطبعاً هو لايعلم ماذا ننوى له. هكذا جاءت الفرصة للشيخ علي لتحقيق رغبته قبل أن يعود، فأطلق الرصاصة الأولى على الأسد، فأصابته فى عموده الفقرى، وشلت نصفه الخلفى، ولم تستطع قدماه الأماميتان أن تحملاه، فبقي كالرابض، ثم جاءت الرصاصة الثانية، وقضت عليه فسقط، ولكن كيف نعرف أنّه مات؟ إنّ الأمر كان فى غاية الصعوبة كي يتقدم أحدنا من الأسد المتمدد على الأرض، فنحن فى سيارتين وكل واحد يحمل سلاحه، اقتربت السيارتان من الأسد بحذر، ومن فيهما يطلق الرصاص حوله وليس عليه، حتى لايفسد الرصاص جلد الأسد. لأن الشيخ كان حريصاً أن يحصل على جلده سليماً وهذا هو الهدف من صيده، إضافة إلى متعة الصيد نفسها. تأكد المرافقون أن الأسد قد مات، فنزلوا وقد صوبوا السلاح نحوه إتقاءً لأي مفاجأة، وعندما وصلوا وضعوا فوهات البنادق عليه، كي يتثبتوا ما إذا كانت الحياة لازالت تدب فيه أم لا، وعندما تأكدوا من موته تماماً، راحت مجموعة من حرس الصيد (المرافقين) تتفحصه، فعرفوا أوصافه جيداً؛ بأنه أسد عجوز، ولم نكن ندرى أننا أمام وحش حقيقى، فالأسد عندما تتقدَّم به السن، يتخصص فى أكل الإنسان

فقط ، لأنه لايقوى على مطاردة الحيوانات ، فيكون سهلاً عليه اصطياد إنسان ، وإذا ذاق لحمه لايأكل حيوانا غيره .. لأن لحم الإنسان فيه ملوحة . كالفرق بين مذاق سمك النهر وسمك البحر.

وبينا نحن حول الأسد وقد تأكدنا من موته ، فوجئنا برجل عار تماماً ينزل من شجرة عالية بالقرب منا ، ويكاد يسقط من شدة هزاله وضعفه .. أثار ظهوره هكذا الفزع بيننا وخشينا أن يكون مجنوناً أو متوحشاً ، فصوبت الأسلحة نحوه تحسباً ، ولكننا وجدناه يسجد إلى الأرض كمن يشكر الله على شيء ما ، وراح يتحدث مع المرافقين ، وترجموا لنا مايقوله لهم . وكان ماسمعناه شيئاً مثيراً للغاية ، فهو منذ ثلاثة أيام يعيش فوق هذه الشجرة ، لأنّه خَشِيَ على حياته من هذا الأسد فقد كاد أن يلحق به ويفترسه ، لولا أنه قفز مسرعاً واعتلى هذه الشجرة لتكون ملجأ له . ويبدو أن إنسان الغابة هنا يعرف طبائع الحيوانات . وظل التحدى قائماً بين هذا الانسان والأسد لمدة ثلاثة أيام ، فالأسد لايستطيع تسلق الشجرة ، وظل باقياً تحتها ينتظر سقوط فريسته .. بينا ظل المسكين متحملاً العطش والجوع بانتظار الفرج من الله .

فهذا الرجل متوقع أنه ميت لامحالة فإذا بالخالق عز وجل يحييه ويميت الأسد ، فقد أرسلنا الله لإنقاذ هذا المسكين دون أن ندرى .. إنه لايحمل سوى عصا رقيقة طويلة لاتحميه من شيء ، أطعمنا الرجل وسقيناه ، وتركناه ونحن فى دهشة ، كيف يسير رجل هكذا فى غابة كهذه دون خوف وهو عار ، ليس من الملابس فقط ، بل حتى من سلاح يدافع به عن نفسه ، ونحن مسلحون وكثيرو العدد ، ولم يجرؤ واحد منا أن ينزل من السيارة ليرى إن كان الأسد حياً أم ميتاً .

كانت فرحة الشيخ علي وسعادته بالغتين ، فى حين راح حرس الصيد والطباخون والعمال المرافقون يرقصون على أصوات الطبول رقصة النصر ، لأن أهل الجنوب اعتادوا كلما قتلوا أسداً .. يحتفلون بذلك . وقد شاركناهم رقصتهم . بعدها بدأنا نصطاد الحيوانات العادية مثل الغزال والتيتل والجاموس . ووسط هذا الجمع أخذت السلاح لأجرب حظي ، فقد تعودت على الصيد بالخرطوش ، أما الرصاص

فلم أستعمله من قبل، وأعطيت لى بندقية ذات عدسة مقربة، وكان أمامنا قطيع من التيتل على مسافة ثلثمائة متر، لأن مثل هذا النوع من حيوان الغابة يهرب عادة من السيارات ولايقترب منها لأن صوتها يخيفه. استعنت بعدسة البندقية المقربة وضبطت المؤشر على جانب التيتل الأيمن بين الذراع والقلب وأطلقت الرصاصة، أصابته، فانفصل عن القطيع وبدأ يسير ببطء، فعرف الجميع أنه أصيب. وعندما أسرعنا نحوه واقتربنا منه، حاول أن يجرى ولكن الدم كان يسيل منه، فقد أصابته الرصاصة كما أردت. وبعد عشر دقائق ظهر قطيع آخر من نفس الفصيل، فأطلقت النار من نفس المسافة، فوقع له ماوقع للأول. واعتبروا ذلك ضربة حظ، إلا إذا تمكنت من صيد ثالث وبنفس الطريقة، وقد حصل.

عدنا إلى جوبا وأقام الشيخ ورفاقه مدة يومين، وكنت فرحاً بهم، لوجود إخوة من بلدى أتحدث معهم بنفس اللهجة الكويتية، فهذه أول مرة منذ أن وصلت، لا أجد نفسى الكويتى الوحيد فى جوبا. ورحنا نتسلى بلعب (الكوتشينة) بالطريقة الكويتية، وقد أحدثت هذه الزيارة فى نفسى كثيراً من الإرتياح. وذهبت إلى مصلحة الصّيد لأدفع الرسوم على الحيوانات التى تم صيدها، فوجدت هناك تعليمات من السيد/أبيل أن يُعْطَى الصيد للشيخ مجاناً باستثناء رسوم الرخصة.

ثم ذهبنا معا إلى السيد/أبيل فى مكتبه لنشكره. وفى هذا اللقاء أبلغه الشيخ علي بأنه سيغادر فى صباح اليوم التالى، فأصر أن يقيم له حفل عشاء فى منزله حضره كل الوزراء والمسئولين، وكانت فرصة طيبة لى فى هذا الحفل أن أتعرف على باقى المسئولين والوزراء فى وقت واحد وفى ليلة واحدة، فحمدت الله أن أراحتنى هذه المناسبة من التردد على الوزراء والانتظار فى مكاتبهم أياماً طويلة لأقابلهم. وسعدت كثيراً عندما دعانى وزير الزّراعة أثناء حفل العشاء لأزوره فى مكتبه فى اليوم التالى.

غادر الشّيخ ورفاقه جوبا. وتوجهت لزيارة وزير الزراعة الدّكتور جاما حسن فى مكتبه، ولم يكن قد حضر بعد، وانتظرت قليلاً، وإذا بى أسمع صوتاً عالياً

باللغة الانجليزية بمعنى (الوزير وصل)، فوجدت كل من فى مكاتبهم والذين يسيرون فى دهاليز الوزارة قد وقفوا، إعلاناً عن وصول الوزير. كنت جالساً فى مكتب السكرتيرة التى وقفت لدخوله، فوقفت بدورى، حيّانا بإيماءة من رأسه.. قلت له صباح الخير فلم يرد ولم يكلمنى، وإنما دخل مكتبه بينما بقيت فى مكانى. ثم دخل إلّيه الذين كانوا جالسين معى وبعد نحو ساعة تقريباً دخلت لمقابلته، عرفنى بنفسه؛ شاب يبدو لمن لايعرفه متعالياً محباً لذاته، يمتدح نفسه كثيراً. ثم مع مرور الوقت أصبح من أعز أصدقائى الجنوبيين، وهو أكثرهم كرما لأنه دائماً يدعو أصدقاءه إلى تناول وجبة معه حتى لو لم تكن هناك مناسبة.

بعد ذلك علمت من الحكومة الإقليمية، أن حضرة صاحب السمو الأمير الشيخ صباح السالم الصباح سوف يصل إلى جوبا فى ١٥ مارس (آذار) عام ١٩٧٥، وسيحضر معه فى نفس الطائرة الرئيس جعفر محمد نميرى، والوفد المرافق لهما على متن طائرة خاصة. وقبل وصول سمو الأمير بعشرة أيام، بدأت جوبا تستعد للإستقبال، وارتفعت الأعلام الكويتية والسّودانية فى الميادين الرّئيسية، ورفعت أقواس النّصر واللاّفتات وعليها كلمات الترحيب بالضيف الكبير.

ذهبت إلى الأمين العام للمجلس لأعرف منه برنامج الزِّيارة، فعلمت أن الرّئيس نميرى وصاحب السّمو الأمير سيحضران لمدة يوم واحد، يقومان بجولة ثم يتناولان الغداء فى منزل السّيد ابيل، ويعودان بعدها إلى الخرطوم. ولم أجد فى برنامج الزيارة أن أكون من بين المستقبلين فى المطار، كما لم أجد برنامجاً لزيارة سموه لمكتب دولة الكويت، فأظهرت عدم ارتياحى إلى ذلك، وقلت له: —

إن هذا القادم هو حاكم الكويت، والمكتب الذى أرأسه هنا هو لدولة الكويت، ومن الطّبيعى أن أكون من بين المستقبلين، ليس فى صف المسئولين، وإنما عند سلم الطائرة. فالقادم هو أميرى، ويجب أن أكون أول مستقبليه، بل يجب أن يكون لصاحب السمو برنامج لزيارة المكتب، ولو لمدة ربع ساعة كي أشرح لسموه سير العمل.

بعد جهود واتصالات استمرت يومين ، تم تعديل البرنامج كما طلبت . ووصلت الطائرة مطار جوبا ، وكان الجو غائماً وبقايا تَجَمُّع ماء من المطر يملأ الأماكن المنخفضة على أرض المطار، وهذا له دلالته عند الجنوبيين فإذا ماسبق المطر وصول ضيف كبير بفترة قصيرة ، فمعنى هذا أن الضيف قد أتى إليهم بقلب أبيض يحمل معه الخير والمحبة. وكان المطر قد هطل بين الساعة السادسة والسابعة والنصف ثم توقف قبل وصول الطائرة. وفى الثامنة والربع صباحاً اصطف جمهور المواطنين على جانبي الطريق ، واستُقْبِل الزعيمان استقبالاً حاراً ، وكان مع صاحب السمو من الوزراء الكويتيين ؛ عبدالرحمن سالم العتيقي وزير المالية ، والاستاذ عبدالعزيز حسين وزير الدولة ، وعدد من المسئولين ، ومع الرئيس نميرى بعض الوزراء المركزيين فى حكومته. قام الرئيس والأمير بجولة فى المدينة ، ثم توجّها إلى المجلس التنفيذى العالى وعقدا اجتماعاً رسمياً ، بعدها توجها إلى منزل السيد أبيل لتناول طعام الغداء ، فسبقتهما إلى منزلى ، الذى هو فى نفس الوقت مكتبى ، لأكون فى شرف استقبالهما فى الثانية والنصف ــ حسب البرنامج ــ وصل الزعيمان ومعهما السيد أبيل وبعض الوزراء ، وانتظر الباقون فى الخارج لضيق المكان ، وبعد أن جلسوا قدمت لهم الباباي ــ تلك الفاكهة المحلية فى جنوب السودان ــ والأنناس ومع تناول الفاكهة سألنى صاحب السمو:

ــ هل أهلك معك؟

فأجبته إن كان قصد سموكم زوجتى وأولادى فهم فى الكويت .. أما إذا كان سؤالكم عن أهلى ، فانظر إلى من حول سموكم ترون أهلى .. إن الشعب السودانى بأجمعه هم أهلى ، فلم يشعرونى بأني غريب بينهم بل واحد منهم ، وأذكر أنني واصلت حديثى وقلت :

ــ أتمنى ياصاحب السمو أن يلقى هذا المكتب الصغير الرعاية والاهتمام من سموكم ، فشعب السودان الشقيق شعب طيب يقدر لأشقائه فى الكويت هذه الخدمات البسيطة التى يقوم بها هذا المكتب .

ــ فرد العتيقي وزير المالية نيابة عن صاحب السّمو وقال: ــ
ــ لن تكون أكرم منا..
ــ فأجبته ضاحكاً:

هذا شيء طبيعي يامعالي الوزير، فأنا أحصل على الأموال من خزينتكم وعن طريق المفتاح الّذى فى يدكم.

فى الطّريق إلى المطار دعانى الأستاذ عبدالعزيز حسين أن أرافقه فى سيارته، وفى السّيارة أعطانى مَلَفّاً، وقال: ــ إن هذه مجموعة مطالب تقدمت بها الحكومة الإقليمية لحضرة صاحب السمو، وهي عبارة عن معدات وأجهزة لإصلاح الطّرق فى الاقليم الجنوبى، وطلب مني أن أسافر إلى نيروبى بعد مغادرة صاحب السمو، وأدرس إمكانية شراء هذه المعدات من هناك. وغادروا جميعاً إلى الخرطوم..

تركت هذه الزيارة أثراً كبيراً على العلاقات الكويتية السّودانية وخاصة فى جنوب السّودان، فقد مهّدت لتعاون ضخم ومشروعات فى الجنوب، كان عليّ أن أقوم بتنفيذها، وأصبح الجهد الذى قمت به خلال وجودى فى الجنوب موضع اهتمام المسئولين فى الكويت وتقديرهم. وقد انعكس ذلك فى تصريح للأستاذ عبدالعزيز حسين نشرته مجلة النّهضة الكويتيةــ بعد عودتهم ــ عندما قال: ــ إن عبدالله السريع هو الوجه العربى الأصيل فى جنوب السودان.. وقد تأثرت كثيراً بهذا القول، مما دفعنى إلى بذل المزيد من الجهد والقدرة على الإحتمال.

وهكذا فى شهر واحد حدثت عدة زيارات على مستوى المسئولين، زيارة الشيخ علي، ثم على مستوى القمة زيارة صاحب السمو الأمير والرئيس نميرى. وقد أتاح لى ذلك فرصة الاقتراب بكافة المسئولين والتعرف عليهم، فكان من السهل بعد ذلك أن ألتقى بهم فى أى وقت. ولكي أؤكّد عمق الصلة ورغبتى فى توثيق العلاقة أقمت حفل عشاء فى بيتى دعوت إليه كافة المسئولين.

* * * * *

فى الأسبوع الأخير من شهر مارس (أذار عام ١٩٧٥) غادرت إلى نيروبى على متن طائرة صغيرة ذات محركين، وحرصت أن يكون عبدالكريم عكاشة مرافقى فى

هذه الرحلة كما كان فى الرحلات السابقة، وأعرب المقاول عن رغبته في السفر معى ليشترى بقية الأشياء التى لم يتمكن من شرائها فى المرة السابقة. وهكذا ركبنا نحن الثلاثة تلك الطائرة سعة الخمسة ركاب، من تلك التى تؤجر فى الرحلات بين نيروبى وجوبا. وكانت هذه أول مرة أركب فيها طائرة من هذا النوع وفى هذا الحجم، وكان معنا اثنان من الأوربيين.

نزلت فى مطار و يلسون الكينى، وهو مطار خاص باستقبال الطائرات الصغيرة، وتوجد به ثلاثة مكاتب صغيرة متجاورة، للجوازات والصحة والجمارك، وكل مكتب به موظف واحد. انتهينا من الاجراءات الصحية وتقدمنا لموظف الجوازات لننهي اجراءاتنا، كان الأوربيان اللذان معنا على الطائرة قد أنهيا اجراءاتها على الفور، وحصل المقاول وعبدالكريم على تأشيرة دخول من المطار، أما أنا فلم يوافق موظف الجوازات على منحى تأشيرة، لأني لا أحمل تأشيرة دخول (فيزا)، وأصر على عدم إعطائي التأشيرة بحجة أن التعليمات التى لديه تنص على عدم إعطاء تسهيلات لأي عربى. وكانت كينيا فى ذلك الوقت قد شددت رقابتها على دخول أي مواطن عربى إلى أراضيها بعد كثرة حوادث خطف الطائرات، وظللت ساعتين فى محاولة لإقناع الموظف بأنني أحمل جواز سفر خاصا.. وأنّ.. وأنّ.. دون فائدة. وهنا تدخل عبدالكريم عندما ألمح له مواطن كان يقف خارج مكتب الجوازات بما معناه (دبروا أموركم)، وفهمنا مايقصد. فأخرجت مبلغ من الدولارات و وضعتها فى جواز السفر، فطلب مني أن أذهب إلى فرع البنك لتغييرها إلى عملة كينية، بعد استبدالها بالشلن الكينى، أخذها الموظف، ووضع تأشيرة على جواز سفرى لمدة ثلاثة أشهر، وعلى الفور توجهنا إلى الفندق الذى أقمنا فيه من قبل.

وذهبت فى اليوم التالى إلى سفارتنا حيث شرحت لهم الغرض الذى جئت من أجله هذه المرة. واستأجرنا سيارة ورحنا نطوف على كافة المصانع والشركات الكبرى، ومن بينها شركة المرسيدس، وعرفنا كم يكلف سعر ست عشرة سيارة (مرسيدس قلاب نساف ــ من الحجم الكبير) وفى المنطقة الصناعية كم يكلف أسعار (الجريدر) و(البلودوزر) وغيرها من معدات الطرق، وهكذا طفنا بكافة

المصانع والشركات، إلى أن تم التفاوض على الأسعار، واتفقنا على الشراء من حيث المبدأ. ثم أرسلت كشفا بالأسعار إلى الكويت، وَحُوِّل المبلغ على الفور وبدأت أحرر الشيكات للشركات التى اتفقنا معها.

وأذكر أن أول شيك وقّعته، هو دفعة أولى من ثمن ست عشرة سيارة مرسيدس نساف (قلاب) بمبلغ ثلاثة ملايين شلن كينى، ولم أكن أتخيل أنني سأكتب شيكاً يحمل رقم ٣ وأمامه ستة أصفار، إلى حد أنني شعرت بيدى ترتجف وأنا أوقِّع، فالمبلغ كبير، وما كنت أتصور ورقة كهذه تعادل ثلاثة ملايين شلن، ويبدو أن شعورى هذا انتقل إلى غيرى، فعندما حررت الشيك لشركة دي تي دوبي.. وكلاء المرسيدس فى كينيا، لم يصدّق مديرها أن شخصاً واحداً يوقع بمفرده على شيك بهذا الرقم، فذهب به مسرعاً إلى البنك مستفسراً، فاتصل مدير عام البنك بسفارتنا فى نيروبى، وتحدث مع القائم بالأعمال إن كان صاحب هذا التوقيع مُخَوّلاً أن يصرف شيكاً بهذا الرقم، فكان ردّ السفارة: ــ طالما أن هذا التوقيع معتمد لديكم، وطالما يوجد حساب فى البنك لصاحب التوقيع، فعليكم أن تصرفوا بدون تردد، ولما علم مدير شركة المرسيدس أنني جاد فى شراء هذه الصفقة، وقد استلم الدفعة الأولى من ثمنها، خصّص لى سيارة مرسيدس بسائقها، تكون معى طوال الوقت تحت تصرفى لمدة أربع وعشرين ساعة. كنت قد اتفقت على شراء سيارات المرسيدس، على أن تقوم الشركة بتوصيلها إلى جوبا تحت مسئوليتها، كان مدير المبيعات الذى تفاوضت معه من أصل آسيوى، ويدعى اسماعيل، وهو شخص طويل القامة، ممتلىء الجسم، يزن أكثر من مائة وخمسين كجم. لم يخف دهشته عندما علم أنّني أسكن فى فندق متواضع من الدرجة الرابعة وأنا أحمل كل هذه المبالغ وأشترى كل هذه المعدات، قلت له: لاتندهش ياصاحبى، فَإنَّ هذا المال الذى أدفعه هو مال حكومة الكويت ولاأملك منه سوى توقيعى عليه.

* * * * *

وهكذا انتهيت من شراء المعدات التى طلبتها الحكومة الإقليمية ، وكان عبدالعزيز حسين قد وافق على شراء سيارة مرسيدس صالون لاستعمالى بدلاً من الجيب ، فاشتريتها من نفس الشركة .

ركبنا نحن الثلاثة السيارة الجديدة ، وكانت هذه هي أول مرة أقود فيها سيارة بين دولتين أفريقيتين ؛ كينيا ويوغندا فى طريقى إلى السودان .. فَرِحْتُ بالسيارة وبإنجاز المهمة التى كلفت بها ، ذلك أن المعدات التى تعاقدنا على شرائها ستصل جوبا خلال خمسة عشر يوماً . وكان الطريق من نيروبى إلى كمبالا فى بدايته وعراً ، فهو طريق جبلي ، وكان علينا أن نصعد مرتفعات ونهبط منها ، وهناك مواقف للسيارات الكبيرة للتزود بالوقود أو إصلاح عطب بها . والباعة منتشرون على جانبي الطريق ، ومعظم معروضاتهم من جلود الحيوانات وخاصة فراء الخراف الكينية ، التى تتميز بطول الشعر وكثافته ، مصبوغة بألوان مختلفة تشجع على اقتناء بعض منها ، فاشتريت منها ومن المصنوعات اليدوية الأخرى . وواصلنا السير حيث أصبح الطريق سهلاً ومنبسطاً ، وقد أنستنى فرحتي بالسيارة ونجاح المهمة أن أنظر إلى عدّاد السرعة ، فأنا متلهف للوصول إلى جوبا لإبلاغ الحكومة الإقليمية بموعد وصول المعدات الّتى طلبوها ، ولم أنتبه إلاّ عندما عبرت مرتفعاً ، وأثناء الهبوط كدنا نتعرض لحادث ، حيث اختل توازن السيارة بسبب السرعة الّتى وصلت إلى مائة وثمانين (كم) فى الساعة ، والحد الأقصى لسرعة السيارة هو مائتا (كم) فى الساعة ، وحمدت الله أن أنقذنا ، فخففت السرعة إلى مائة وعشرين (كم) ، وسرنا براحة تامة حتى وصلنا إلى منطقة الجوازات والجمارك الكينية . كانت هناك سيارات لوارى كبيرة متجهة إلى كينيا ، ولا توجد سيارة فى طريقها الى يوغندا سوى سيارتنا ، وبقية السّيارات الصّغيرة المحلية ، ورغم ذلك انصرف عنّا ضابط الجوازات متعمداً ، وأهملنا لمدة تزيد على نصف ساعة ، وعبدالكريم يتابعه أينما ذهب ، ثم تنبه وأخرج من جيبه مبلغاً من المال وأعطاه للضابط ، الّذى أنهى إجراءات سفرنا على الفور ، بعد أن ترك السّيارات الأخرى ، وبعدها ذهبنا إلى مندوب الجمارك الذى فتح الحقائب ، وفجأة وجدته يخرج من حقيبتى قميصاً

وبنطلوناً وحذاء ويضعهم إلى جواره، ثم أغلق الحقيبة، فسألته عن السّبب فى ذلك.

فقال ببساطة: — «أحتاج إليها» فشرح له عبدالكريم أن هذه الأشياء تخص صاحب السيارة، ثم أنها لاتناسب مقاسه، فقال: — إن هذه ليست مشكلة، فالخياط يستطيع ضبطها، فسأله: — ولماذا تأخذها قال ولم لا .. إذا لم أحصل وأنا هنا على الحدود على مثل هذه الأشياء، فكيف أعيش؟ أخرجت له مائتي شلن، فأعاد الملابس إلى الحقيبة، ولم يكن الأمر يختلف كثيراً عندما دخلنا الأراضى اليوغندية، فالفرق الوحيد هو أن الأوغندى لايأخذ مباشرة وإنما ينتظر أن تبادر فتعطيه، وإلاّ فإن المضايقة والمماطلة فى إنهاء الإجراءات ستكون هي السلوك الملائم، فدفعنا بمجرد وقوفنا أمام مبنى الجمارك والجوازات، فأنهينا الإجراءات دون إبطاء. ودخلنا كمبالا فى المساء، وذهبنا إلى الفندق الكبير للإقامة فيه تلك اللّيلة، فقد أعددنا أنفسنا لمواصلة السفرَ إلى جوبا صباح الغد، وكان علينا أن نتدبر حلّ مشكلة واجهتنا، هي كيف نحصل على بنزين للسيارة كي نواصل السفر غداً، فمحطات البنزين فى كمبالا لاتبيع البنزين لأي سيارة أجنبية، وذهبت إلى السفير السّودانى فى منزله لنحصل منه على بنزين، اعتذر بأنه لايملك منه شيئاً، فذهبنا لشخص نعرفه، فنصحنا أن نلجأ إلى السوق السوداء ولاحل غير ذلك، وإزاء هذا الموقف ذهب عبدالكريم إلى بعض أصدقائه الّذين عرّفوه على ضابط يوغندى من تجار السوق السوداء، ووعدنا بأن يحضر لنا كمية من البنزين، وعاد بعد ساعة بسيارته العسكرية الجيب، وراح يملأ خزان سيارتنا علانيةً وأمام الناس، بسعر للجالون الواحد يعادل عشرين ضعف سعره فى محطات البنزين، فدفعنا مائتي وخمسين دولاراً ثمناً لعشرين جالوناً.

وغادرنا كمبالا فى الصّباح ووصلنا جوبا فى المساء، وفى اليوم التالى قمت بتسليم سيارتى إلى الجمارك لتحويلها الى سيارة تحمل أرقاماً سودانية.

وبدأت المعدات الّتى اشتريناها تصل تباعاً فى أول شهر مايو، وخلال عشرة أيام كانت هناك ست عشرة (مرسيدس قلاب) تقف أمام مكتب الكويت فى

الشارع العام، وبجانبها المعدات الأخرى، وقد كتب عليها بالإنجليزية والعربية «هدية دولة الكويت». وجاء النّاس لمشاهدتها حتى أبيل والوزراء والمسئولون، والكّل سعيد بوصول هذه الكمية الهائلة من المعدات.

جرت العادة أن يحتفل السّودان بعيد ثورته فى ٢٥ مايو من كلّ عام. وكانت الإستعدادات للإحتفال بهذه المناسبة تجري على قدم وساق، وظهرت فكرة أن يتم تسليم هذه المعدات خلال الاحتفالات كمظهر للتعاون والإخاء بين الشّعبين الكويتى والسّودانى.

اتصلت بسفيرنا في الخرطوم محمد البلهان، وطلبت منه الحضور ليشهد حفل تسليم المعدات إلى الحكومة الإقليمية: وفى هذا اليوم جاء السائقون الذين تدربوا على أيدي السائقين الكينيين ــ الّذين أحضروا هذه المعدات من كينيا ــ على كيفية استخدامها وقيادتها. وتحول يوم ٢٥ مايو (آيار) عام ٧٥ فى جوبا إلى إحتفال كويتى سودانى. وبدت السّيارات كما لو كانت جزءاً من عرض عسكرى، حيث كانت تدخل إلى المكان المخصص للإحتفال والّذى شارك فيه أبيل وسائر أعضاء الحكومة، وكان السّائقون يحرصون على تشغيل الصناديق الخلفية لهذه السيارات، وهي ترتفع وتنخفض أوتوماتيكياً أمام الجمهور الذى راح يصفق والنّساء تزغرد، ثم اصطفت كل السيارات ومعدات الطّرق أمام المنصة الرئيسية للإحتفال. وألقى سفيرنا كلمةً بهذه المناسبة، أعقبه السيد أزبوني منديري وزير المواصلات فى الحكومة الإقليمية بكلمة أخرى، ثم قمت بتسليم المفاتيح إلى السيد أبيل وسط هذا الإحتفال الرائع والمهرجان الكبير.

* * * * *

الفصل الخامس

وجهاً لوجه مع الأسد

لقد راقت لى الحياة بعد مرور عشرة أشهر بعيداً عن الأسرة ، فأهل جنوب السودان يتميزون بالود والبساطة والصدق فى المشاعر. وهم يحسنون معاملة من يتعامل معهم بحسن نية وصدق ، ومن لايشعرون نحوه بود فهم لايظهرون له جفاءهم ، ولكنهم يتعاملون معه بتحفظ ، و يرصدون تحركه بحذر. وبما أنني بتوفيق من الله أشعرتهم جميعاً بحسن المعاملة وصدق المشاعر، فقد بدأت أكسب ثقتهم وأكون موضع احترامهم فى أقل من سنة ، مما شدنى إلى حبّ عملى أكثر. وبما أن المدارس فى الكويت قد انتهت امتحانات طلابها وطالباتها ، فقد أعددت نفسى والفرحة تملأ جوانحى لاستقبال والدتى وزوجتى وأولادى الّذين سيحضرون إلى جوبا لأول مرة بعد الخامس عشر من شهر يونيو «حزيران» عام ١٩٧٥ . ولم أكن أتصور كيف سيرون مدينة جوبا وجنوب السودان ، وهل سيألفونها كما ألفتها ؟
ويدأت أعد المنزل لاستقبالهم ، فقد قمت بتنظيف المنزل وطلاء جدرانه ، وغيّرت مايمكن تغييره من أثاث حسب الإمكانيات المتوفرة فى السوق المحلى . ثم توجهت إلى الخرطوم لأكون فى استقبالهم ، ووصلت أسرتى وأنا سعيد بوجودها . وبعد أن أمضينا يومين فى الخرطوم ، سافرنا بالطائرة إلى جوبا حيث هبطنا فى مطارها حوالى العاشرة صباحاً ، وكان الطقس يميل إلى البرودة فدرجة الحرارة لاتزيد على عشرين درجة مئوية ، ذلك لأن جوبا تقع ضمن منطقة خط الإستواء ، التى تتكاثر فيها الأمطار ابتداء من مطلع الشهر الرابع من كل عام وحتى نهاية شهر سبتمبر، وأحياناً يصاحب هطول الأمطار صواعق تزلزل الأرض ، وتحرق بعض أشجار الغابة ، أو أي شيء يقع فى طريقها ، لأن القوة أو الشحنة الكهربائية التي تنبعث من تلك الصاعقة تحول أي شيء تضربه إلى كتلة من الرماد فى لحظات ، بعكس الخرطوم فطقسه فى مثل هذا الشهر لايختلف عن طقس

الكويت، فى حرارته المرتفعة والأتربة التى نسميها (الطُّوز أو الغبار) بينما تسمى فى الخرطوم (الهَبُوب). لم يصدق أبنائى أنهم سيرون جواً جميلاً كهذا وأرضاً مخضرة من حولهم وجبالا متباعدة تحيط بالمدينة، وماإن وصلنا البيت حتى قال ابني الكبير صالح الآن وقبل أن ينتصف النهار أرجوك ياوالدى آن تعد لنا سيارة لأذهب للغابة، فإنى متشوق للصّيد الذى حدثتنا عنه فى رسائلك، وأتمنى أن أراه اليوم بأم عينى قبل مغيب الشمس.

وكان له ماأراد فقد ذهب هو وشقيقاه الأصغر منه، رياض وعصام، وعادوا مستمتعين بما رأوا، حيث ذهب معهم هواة الصّيد من أصدقائى حبيب والدكتور زاهر. ثم بعد ذلك تعودوا على الذّهاب إلى الصيد مع حبيب بعد غروب الشمس إلى المنطقة القريبة من جوبا، ويعودون ومعهم غزالان أو ثلاثة، وقد أمضت والدتى وزوجتى وأبنائى شهرين سعدوا فيها كثيرا، وخلال تلك الفترة زارنا سفيرنا فى الخرطوم وزوجته وأولاده وأمضوا معنا عدة أيام، وامتلأ المنزل مما اضطرنى والسفير أن نستأجر غرفة فى فندق جوبا لنبيت فيها. وعندما اقترب موعد افتتاح المدارس رافقت الأسرة إلى الخرطوم ثم إلى القاهرة، لأنه لايوجد خط مباشر بين الكويت والخرطوم، وعدت بعدها إلى جوبا.

كانت معدات البناء التى اشتريتها للمقاول من نيروبى وممباسا قد وصلت، وبدأ العمل وارتفع البناء، وماإنْ عدت حتى بدأت أتابعه يومياً، وأوشك العمل على الإنتهاء فى أواخر عام ١٩٧٥، واكتمل تماماً فى أوائل عام ١٩٧٦، وهو عبارة عن مدرستين ومركز صحى. وتقرر أن يتم تسليم هذه الثّلاثة مبان إلى الحكومة الإقليمية فى احتفالات أعياد السودان فى مايو.

فى أبريل وقبل احتفالات مايو، احتفلت القوات المسلحة السودانية بيوم أطلقوا عليه «يوم ضرب النار»، شاركت فيه كافة فصائل قوات الإقليم الجنوبى.

ودعا قائد الفرقة العسكرية هناك اللواء جوزيف لاقو بعض القادة من البلاد العربية والأفريقية المجاورة، ليشاركوا فى تلك الاحتفالات. وقد حضر عن الجيش الكويتى اللواء الشيخ مبارك العبدالله الجابر الصّباح رئيس الأركان فى منتصف

أبريل عام ١٩٧٦ ، وحضر معه العقيد محمد البدر والعقيد طيار عبدالله السّميط والمقدم طيار بدر الصّايغ ، ومن يوغندا وزير الدّفاع ، ومن دولة الإمارات العربية المتحدة الشّيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب القائد العام ، وتبارت كلّ الفرق من قوات الشعب المسلحة لإصابة الهدف .

فى اليوم التالى أعدت القيادة سيارات وحرسا لمرافقة الشيخ مبارك ، ليقوم برحلة صيد فى الغابة ، وخرجت معهم ، وتمنى أن يصطاد جاموساً وحشياً ، وقد أعد تصوراً لذلك ، هو أن يُطْلِقَ النار على جاموس بحيث يعوقه عن سرعة الحركة ، ثم ينزل هو من السيارة و يقف فى مواجهته ، و يصوِّب عليه نار مسدسه حتى يرديه قتيلاً . كان كل مانراه أمامنا غزلاناً كثيرة وحيوانات أخرى مختلفة ، و بعد فترة ظهر قطيع من الجاموس، وهنا استعد الشيخ ليحقق رغبته ، إلاّ أن الجاموس تمكّن بعد مطاردته من أن يدخل منطقة وعرة تسمى «الدّقداق» ، وتعذر علينا الاستمرار فى ملاحقته ، وكان الشيخ يركب فى السيّارة التى كنت أقودها ، والسيارة الأخرى تحمل المرافقين للحراسة ، و بعد فترة أخرى ظهر قطيع آخر من الجاموس أكثر عدداً ، ورحنا نحاول اللّحاق به ، وكنت أقود السّيارة بحذر ، فالمنطقة مليئة بالحفر والأعشاب وأغصان الشجر ، وخشيت أن تصطدم بحجر غير مرئى وسط كثافة الأعشاب ، أو تقع فى حفرة غير ظاهرة . وكان هو يطالبنى بالسرعة و يصر على أن نلحق بقطيع الجاموس . وأمام حرصى على القيادة ، غضب وترك السيارة وركب السيارة الأخرى مع المرافقين الذين انطلقوا وراء القطيع وأنا وراءهم ، وقد تأخرت عنهم لأن سيارتى تعثرت فى حفرتين . أصابوا جاموساً ضخماً فى فخذه الأيمن فعجز عن الجرى ، وانفصل عن القطيع كعادة حيوان الغابة ، ووقف الجاموس المصاب ينظر ، كأنّه يريد أن ينتقم رغم جراحه ، عند ذلك قفز الشيخ واقترب من الجاموس ، فأطلق أحد حاملى البنادق رصاصة على الجاموس ، خوفاً على الشيخ ، فأصابه فى صدره ، وعند ذلك وقف غاضباً مزمجراً وقد احمرت عيناه ، و بدأ الزّبد المختلط بالدّم ينزف من فمه ، وهو يضرب بحافريه الأمَاميّتين الأرض استعداداً للهجوم ، فى حين كان مبارك يطلق على رأس الجاموس رصاص مسدسه ، فأعددت سيارتى فى مواجهة الجاموس لأصدمه لو حاول الهجوم ، أما الشيخ فقد كان فى

موقف أنساه كل ماحوله وهو يواصل ضرب النار، حتى أفرغ فى رأسه تسع رصاصات، والجاموس لم يسقط أو يضعف، ولم يهجم وإنمّا بقي يرغى و يزبد. وعندما فرغ مسدس الشيخ، أدركنا أن الخطوة التّالية أنه سيهجم، فبادره المرافقون بإطلاق الرصاص فسقط صريعاً. كانت معركة بين رئيس الأركان وأشرس حيوان فى الغابة، وحمدنا الله أن تمت الرّحلة بسلام..

بدأ الشّيخ وصحبه يعدون أنفسهم للسفر، فتذكرت المثل الذى يقول «كل غريب يتذكر بلاده». لقد ألفتهم وشعرت بوجودهم معى وكأننى فى الكويت ولكن ما حيلتى.

فسألني الشّيخ منذ متى لم تسافر إلى الكويت؟
قلت له:
ــ منذ خمسة أشهر.
ــ فقال على الفور:
ــ إذن استعد للسّفر معنا.
ــ قلت:
ــ ولكنى لم أستأذن الهيئة وليس لى الحقّ فى إجازة.
ــ فرد المرافقون:
أترك هذا الموضوع لنا.

وملأتنى الفرحة بهذا القرار المفاجىء فسأسافر إلى الكويت وسأرى أبنائى.

سافرنا إلى الخرطوم، وغادرناها فى وداع رسمى شارك فيه رئيس الأركان وكبار ضباط القوات المسلحة السودانية. وفى اليوم التالى من وصولنا، أقام لى الشيخ مبارك حفل عشاء فى منزله، دعا إليه وكيل وزارة الخارجية ووكيل وزارة الاعلام والعضو المنتدب للهيئة العامة وكبار المسئولين فيها، وحدثهم عن جوبا، وأثنى عليّ كثيراً، فكان ذلك دافعاً جديداً أضاف لى عزماً وإصراراً على مضاعفة الجهد والاحتمال بنفس الدرجة التى قابلت فيها تصريح الأستاذ عبدالعزيز حسين

عنى بعد زيارته جوبا ، فأدركت أنها الأقدار التى وضعتنى فى هذه المهمة ، من أجل الكويت ومن أجل السودان الذى أحببته .

لم تطل إقامتى فى الكويت ، حيث عدت لأتابع مع المقاول التحضير لتسليم المشروع .

وفى اليوم المحدد للتسليم حضر الرئيس نميرى وأبيل والمسئولون فى الحكومتين ، المركزية والإقليمية ، حيث قام بقص الشريط لكل مشروع على حدة ، لأنها فى أماكن مختلفة . وبعد أن طاف بداخلها وتفقدها انصرف ، وتأخر السيد أبيل وأعضاء حكومته الإقليمية ، وجلسنا جميعا فى فناء إحدى المدرستين ، وقد حضر هذه المناسبة سفيرنا فى الخرطوم . كان السيد أبيل يبدو سعيداً جداً وقد تسلم مفاتيح هذه المبانى لأنه اعتبرها الخطوة الأولى فى مجال التنمية بعد اتفاقية أديس أبابا عام ٧٢ التى حققت السلام ، فالتفت إليّ وقال :- إسمع لقد عرفناك باسم عبدالله الكويتى ولكن من اليوم سنطلق عليك اسم عبدالله جوبا .

كان مندوبو وسائل الإعلام السودانية من صحف وإذاعة حاضرين ، فَنُقِلَتْ هذه العبارة وأذاعها راديو جوبا ونشرت فى الصحف المحلية ، وهكذا عرفت من يومها باسم عبدالله جوبا ، وقد وصل هذا اللّقب إلى الكويت وبدأت أُنادَى به أينما ذهبت حتى اليوم .

أصبحت معروفاً للجميع من مواطنين ومسئولين ، وأزلت كل الحواجز ، ورحت أتبادل الزيارات بلا مواعيد مع كافة المسئولين فى منازلهم ، ومن يمرض منهم أدخل إليه حتى فى غرفة نومه ، ثم بدأوا يدعوننى إلى كافة الحفلات الرسمية وخاصة تلك التى يحضرها رئيس المجلس التنفيذى العالى ، الذى كان يحرص على أنْ أجلس إلى جواره ، حول الطاولة المخصصة لجلوسه هو وثلاثة أو أربعة من كبار المسئولين ، وكان من بين من توثقت علاقتى بهم اللّواء جوزيف لاقو قائد الفرقة الأولى أو كما يسمونها القيادة الجنوبية ، الذى أصبح من أصدقائى المقربين ، يزورنى فى أكثر الأيام هو وزوجته وأولاده أو بمفرده قبل غروب الشمس ، نتناول الشاى معاً فى

فنـاء المنـزل . وهـكذا مع مرور الأيام بدأت أشعر أني واحد أو فرد فى عائلة كل مسئول ومواطن فى جوبا .

فى منـتـصـف عـام ١٩٧٦ طـلـبـت مـن الهـيـئـة الموافقة لى لقضاء إجازتى فى الـكـويـت مـع الـعـائـلة ، ووافقت الهيئة ، وانتدبت السيد علي المنصور مدير الهيئة لـيـنـوب عـنـى خـلال إجـازتى والتى تستمر ثلاثة أشهر، وسافرت إلى الكويت ، ولـكـنـى بـعـد أيـام مـن وصولى شعرت ببرودة فى جسمى واعتقدت أنها من جهاز المكـيـف ، لـكـن الـبـرودة اسـتـمـرت حـتـى بعد أن أُبطل ، وتطورت البرودة إلى قـشـعـريـرة لم تـفـلح فى تهدئتها الأغطية الثقيلة ، ولم يكن أمامى سوى أن أنقل إلى المـسـتـشـفـى ، فقد أدركت أن هذه أعراض الملاريا ، أخذنى شقيق زوجتى وابنى الأكبر وزوجـتـى إلى مـسـتـشـفـى الحـمـيات ، الذى يبعد عن السالمية بنحو ثلاثين كـيـلـومـتـراً ، وهـو مـسـتشفى منعزل يسمى مستشفى الأمراض السارية (المعدية) ، ومـا إن وصـلـت المـسـتـشفى حتى قاموا بتحليل دمى ، وفى دقائق كنت على سرير المرض وإبـرة الجلوكوز مغروزة فى كف يدى وأنا فى حالة حمى شديدة أهلوس معها وأنتفض وأرتجف وحرارتى مرة ترتفع وتارة تنخفض .

وطـلـب الـطـبـيـب من الذين أتوا بي أن يغادروا المستشفى ، لأنني سأبقى فيه عـدة أيـام ، بـعـد أن تـأكد أنني مصاب بالملاريا . أما أنا فقد رحت فى غيبوبة لم أفق منهـا إلا فى صـبـاح الـيوم التالي ، وشعرت أنى أفضل حالاً من ليلة البارحة ، ومنعوا عنى الطعام مكتفين بالأدوية وسائل الجلوكوز .

خـلال هـذه الأيـام وأنـا فى المـستشفى ، لم يزرنى أيُّ صديق باستثناء زوجتى وأولادى ، وعـلـمـت منهـم أن وزارة الصّحة قامت بعمل كرنتينا على منزلى ورشّته بالمبيدات ، وقامت بعمليات فحص كاملة لكل من فى البيت ، خاصة عندما علموا أنهـم كـانوا معى فى جوبا العام الماضى ، وانقطع الأصدقاء والمعارف عن زيارتى ، ولم يـتـصـل أحـد بـاسـتثناء (بوكيهات) الورد التى كانوا يرسلونها إلى غرفتى ومعها كرت يحمل اسم المرسل وأمنياته الطيبة لى بسرعة الشفاء .

وبقيت بالمستشفى، ستة أيام، خرجت بعدها سليماً معافى وحمدت الله. وكان أول مافعلته أن توجهت فى اليوم التالى إلى زملائى وأصدقائى فى الهيئة ومجلس التخطيط، فوجدت أن كل واحد يشيح بوجهه عنى، ويبتعد ولايريد أن يصافحنى، ومن يريد أن يجاملنى يقول حمداً لله على السلامة من بعيد، وأدركت سر ذلك عندما تحدث معى أحد الأصدقاء صراحةً وقال:ــ

ــ إذا كنت تودّنا حقيقةً، وتعتبر نفسك صديقاً مخلصاً، فلا تدخل مكاتبنا ولاتزرْنا.. لأن عندك ملاريا، ونحن على غير استعداد لمجاملتك على حساب صحتنا.

واضطررت إزاء ذلك أن أبقى فى البيت لمدة أسبوعين، وأكتفى بالإتصال معهم هاتفياً حتى أطمئن الجميع أننى بخير، مؤكداً لهم أن الملاريا مرض غير معد، لأنه ينتقل إلى الإنسان بواسطة أنثى البعوض التى تتكاثر فى جوبا، وهى لاتوجد فى الكويت.

أكثر الأصدقاء لم يصدقوا حتى سألوا الأطباء.. ذلك أن كلمة (ملاريا) حتى الآن تعتبر مرضاً معدياً خطيراً وخبيثاً.. وهكذا أصبحت أول كويتى من كل أفراد الشعب مسجلاً بوزارة الصحة الكويتية مصاباً بالملاريا، وحتى الآن لاتزال تزورنى فى العام مرة أو مرتين، لأنها استقرت فى دمى، وتظهر عليّ أو تطيح بى على الفراش كلما أرهقت نفسى أو زاد انفعالى.

بعد إنقضاء الإجازة عدت إلى الخرطوم ومنها إلى جوبا، ومعى موافقة الهيئة العامة لإنشاء أربعين وحدة سكنية للمدرسين والمدرسات، حيث أنهم يفتقرون إلى مثل هذه المنازل، وكان هذا بناء على اقتراح تقدم به السيد جوزيف أدوهو وزير الإسكان نيابة عن الحكومة الإقليمية، وكذلك الموافقة أيضاً على تعيين طبّاع[1] يقوم بأعمال السكرتارية، بالإضافة إلى محاسب بعثت به الهيئة من الكويت إلى جوبا، فأصبحنا ثلاثة زملاء. وبعد أن ودعت علي المنصور مدير الهيئة الذى ناب

(١) هو الذى يقوم بأعمال الطباعة على الآلة الكاتبة.

عنى خلال فترة إجازتى أجريت تغييراً فى المكتب ، فقد أخليت الغرفة التى كانت كمخزن ونقلت مافيها إلى مكان آخر، واشتريت ثلاثة مكاتب خشبية صناعة محلية ، وفى الوقت نفسه زودتنا وزارة الإسكان الإقليمية بمخططات للمساكن الشعبية ، فطرحنا مشروع الأربعين وحدة سكنية فى مناقصة رست على مجموعة من المقاولين اشتركوا سوياً فى العطاء ، لأن المشروع أكبر من قدرة كل منهم المالية ، حيث باشروا العمل فوراً .

كانت زيارة الكويتيين إلى جوبا زيارات رسمية ، ولم أكن ألتقي بشخصيات عربية إلا قليلاً ... إلا أنه تقرر أن تقام احتفالات السودان بمناسبة عيد الوحدة الذى يصادف ٣مارس (آذار) عام ١٩٧٧ فى جوبا . وفى ذلك اليوم اتصل بي مدير الفندق محمد سليمان ــ وهو الفندق الوحيد ــ وقال لي : ــ إنه يوجد هنا إخوة عرب ولاتوجد غرف خالية ، وهم الآن جالسون مع زوجاتهم تحت أشجار المانجو، فطلبت منه أن يبلغهم بأنى قادم فوراً ، وتوجهت إليهم ووجدت ثلاثة رجال وسيدتين ، قدمت نفسى لهم ودعوتهم للإقامة عندى ؛ ففى البيت تسعة أسرة وأنا بمفردى ، ومن واجبى أن أشارك بجهدمافى هذه الظروف ، فالأماكن محدودة فى الفندق ، والمدينة صغيرة لاتتسع لكل الضيوف ، فأعربوا عن شكرهم واعتذروا عن تلبية الدعوة ، لأنهم قرروا العودة على الطائرة التى تنتظر الآن فى المطار وستقلع فى الرابعة بعد الظهر. ألححت عليهم فلم يغيروا رأيهم وأصروا على السفر، وأنه لاداعى للمبيت طالما جاءوا وشاهدوا جوبا وشاركوا فى الاحتفال ، وإزاء إصرارهم دعوتهم إلى البيت كى يقضوا الوقت المتبقى حتى موعد إقلاع الطائرة ، فوافقوا وجاءوا معى . قدمت لهم الشاى وبعضاً من فاكهة جوبا مثل الأنناس والباباي ، وراحوا يسألوننى عن مكتب دولة الكويت فى جوبا ومهمته ، فشرحت لهم كل شيء .

ــ سألنى أحدهم وكان بديناً .

ــ أتعرفنا ؟

ــ قلت :

ـ حتى الآن لم أتشرف بمعرفتكم ولكن يكفى أنكم عرب .
ـ فعرَّفَنى على نفسه قائلاً :
ـ اسمى صلاح عبد القادر الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية لشئون الإعلام من جمهورية مصر العربية .

ثم عرَّفَنى على من معه ، وكانوا زوجته وشابا مصريا وآخر سورياً يعمل معه فى نفس الجامعة ومعه زوجته .

وواصل حديثه معى وقال إنّه منذ شهرين كان مدعواً لإلقاء محاضرة عن دور العرب فى أفريقيا ، وإنّه أرهق نفسه كي يجد مادة مدعمة موثقة ليتحدث عنها ، وقال إنّه لو كان يعلم أن دولة الكويت موجودة بهذا النشاط فى هذا الجزء النّائي من الوطن العربى ، لكانت لديه مادة خصبة يتحدث عنها .

بعدها رافقتهم فى جولة بمدينة جوبا ، وأطلعتهم على المنشآت التى قام المكتب بتنفيذها أو التى يجري إنشاؤها ، ثم رافقتهم إلى المطار وغادروا فى الساعة الرابعة .

وما إن انتهت الاحتفالات ، حتى غادر كل ضيف إلى وطنه ، وعاد الموظفون إلى مكاتبهم ، وبما أن أجمل أشهر الصيد هما مارس وأبريل حيث لا تهطل الأمطار وتجف الأعشاب العالية فى الغابة أو تحرق بواسطة الأهالى ، فقد ذهبت فى عطلة الأسبوع مع بعض الأصدقاء للصيد . وكنت أقود السيارة . وفيما كنت أطارد قطيعاً من التيتل (حوالى اثني‌عشر) وبسرعة ثمانين كيلومتراً فى الساعة ، إذ بذلك القطيع تنقله قوة مغناطيسية انحرف فيها عن خط سيره عشرين متراً يميناً (زاوية قائمة) ثم واصل جريه . وقبل أن أفيق من دهشتى هذه ، إذا أنا وجهاً لوجه مع أسد ولبوءته وقفا ينظران دون أن يفرا كسائر حيوانات الغابة ..

والأسد عادة إذا ما أراد أن يتزاوج ينفصل عن بقية الأسود ليأخذ مكاناً نائياً مع لبوءته ، وكان المشهد الذى أمامنا أن رأينا اللبوءة وهى تحك جانبها بجنب الأسد كما لو كانا يتداعبان . فأوقفت السيارة وأبطلت محركها ووضعت المفتاح فى جيبى وطلبت إعطائى البندقية ، حاول الأصدقاء إقناعى بألا نخاطر بأنفسنا لأننا فى سيارة مكشوفة ولا نبعد عنها أكثر من خمسين متراً ، وإغضابها قد يقضي علينا ،

فأجبت: وهل من السهل أن نجد أسداً، فهذه فرصتى فلا تضيعوها.. إعطونى السلاح.

ـ مجاملة منهم ـ سلمونى البندقية، فوضعت فيها رصاصة، ثم ـ وأنا جالس خلف مقود السيارة ـ صوبتها نحو الأسد الذى لايزال يتمشى ببطء أمامنا، وأطلقت الرصاصة فإذا هي على ارتفاع عشرين متراً عنه.

كيف؟!!! وأنا الذى أعتبر نفسى هدافاً.. ذلك لأن الذى أمامى أسدا، فبرغم شعورى بأننا نحمل سلاحاً، وفى سيارة، إلا أن للأسد هيبته. فطلبت رصاصة أخرى فحاولوا إثنائي مُصِّرين ألا أحاول ثانية، ومع هذا فالأسد لم يفزعه صوت الطّلقة الأولى، ولم يفر بل ابتعدت عنه لبوءته مسافة عشرين متراً، فى حين بدا الأسد كما لو كان متحدياً. وضعت الرصاصة الثانية فأطلقتها فإذا هي كسابقتها، هنا زاد إنفعالى وبحالة لاشعورية وجدت نفسى أفتح باب السيارة وأقف على قدميَّ على الأرض.

وطلبت رصاصة ثالثة، فردوا بغضب: ـ «إطلع العربية ماتودي نفسك فى داهية» ولكنى أصررت على الرصاصة. فقالوا: «يا أخى نحن عندنا أولاد لانريد أن نكون طعاماً لهذين الوحشين»، فرددت بغضب: وهل أبنائى أرانب؟.. لاتضيعوا الوقت.. أعطونى رصاصة. فوقفت وأسندت البندقية على باب السيارة، وثَبَّت قدميَّ على الأرض، شددت البندقية إلى كتفى بقوة، كيلا تهتز، وأطلقت الرصاصة، فاخترقت بطن الأسد وخرجت من الناحية الثانية. قفز معها حوالى مترين إلى أعلى ونزل على قوائمه الأربعة ثابتاً، وزأر زأرة اهتزت معها السيارة وقبلها قلوبنا، وفرت لبوءته حوالى مائتي متر وَوَقَفَتْ لتشهد المنظر القادم. هنا قفزت إلى السيارة مسرعاً وأدرت محركها، وابتعدت عن الأسد لأرى كيف سيكون الموقف.

لم يقع الأسد فى حين الدم بدأ يسيل من جانبيه. هنا تشجع أصدقائى وبدأوا يعدون أسلحتهم... ولكن حدث مالم يكن متوقعاً، فى تفتيشهم لحقيبة الذخيرة لم يجدوا رصاصاً.. فقد نسوه فى جوبا. وكل ماوجدوه طلقات لبندقية صغيرة تسمى

موريس ٢٢٢، أي بحجم طلقات المسدس. كل مشط يتسع لإحدى عشرة طلقة، وتنطلق من فوهة البندقية أتوماتيكياً، بمجرد الضغط على الزّناد، فبدأت أقود السيارة ببطء لأجعل جسم الأسد فى اتجاه الهدف ليسهل ضربه، فانطلقت الرصاصات متتالية، فإذا بالأسد يدور حول نفسه كالمروحة.. انتهى المشط الأول فابتعدت عنه كي نُعَبِّئُها ثانية، وفى هذه الأثناء خرجت بمعلومة جديدة فبسؤالى لماذا كان الأسد يدور حول نفسه؟! قيل إنَّ هذا الحيوان عادة إذا شعر أن شيئاً انغرس فى جسمه يحاول أن ينتشله قبل أن يتولى الدفاع عن نفسه، وبما أن الطلقات كانت سريعة، فإنه كان يعض موضع الإصابة لينتشل ماانغرس فى جسمه، لهذا كان يدور حول نفسه من حيث لايشعر. وبعد أن تمت تعبئة المشط بالطلقات اقتربت منه، وانتهت الإحدى عشرة طلقة كسابقتها، وبنفس الحركة ولم يقع الأسد. ثم عُبِّيءَ المشط للمرة الثالثة وانتهى كما انتهى سابقاه ولم يقع، وكلما نبتعد عنه يتمشى فى طريقه إلى لبوءته، التى أصرت أن تقف حيث هي فتلك الزأرة لازالت تفزعها. وانتهى المشط الرابع أيضاً فثقلت هنا حركة الأسد. إننا نرى الدم يخرج كالنوافير من جسمه، ولكن واحدة لم تصبه فى الرأس لذلك كان متحملاً، وبعد خمس طلقات من المشط الخامس وقع وأخذ يرفع ذراعه ويضرب بها على الأرض، كما لو كان يعاتبنا بأننا عملناها فيه وقطعنا عليه خلوته.. اندفعت مسرعاً نحوه بالسيارة فقيل لى إيّاك فقد يقفز علينا، دعنا نقترب ببطء، وكلما اقتربنا كانت الطلقات تتقاذف عليه، فأفرغنا فيه باقى المشط ومشطاً آخر، ولكن من يجرؤ لينزل من السيارة؟.. وأخيراً تشجعنا ونزلنا، فقسته بقدمى فإذا بطول جسمه ستة أقدام، وارتفاعه من على جنبه نائماً قدم ونصف القدم، وذيله قرابة المتر. كنا نتفرج عليه، والذين كانوا فى قلق قبل ساعة من الآن أخذوا يتعاونون فى رفع رأسه عن الأرض لكي يلتقطوا معه صوراً تذكارية،(١) وبقي واحد مِنّا واقفاً على السيارة ويده على الزّناد، وذلك ليس خوفاً من الذى بين يدينا، بل من لبوءته التى كانت قد اختفت بجسدها خلف أعشاب عالية ترقب ماحدث لزوجها، والخشية هنا أن اللبوءة أخطر من الأسد

---

(١) لم أوفق فى ايجاد صورة واحدة لأضمنها هذا الكتاب.

فهي إن غضبت لاترحم ، قطعنا أطراف الأسد لنحصل على مخالبه ، وكسرنا نصف مقدمة الرأس لنقتني أنيابه ، ثم فتحت جنبه بسكين حادة فإذا بطبقات الشحم أكثر من بوصة تحت الجلد . وعدنا .

خلال اليومين التاليين لم يغب هذا المشهد عن بالي ، وكنت كلما خلوت إلى نفسي أعاتبها عتاباً شديداً على ذلك التصرف .

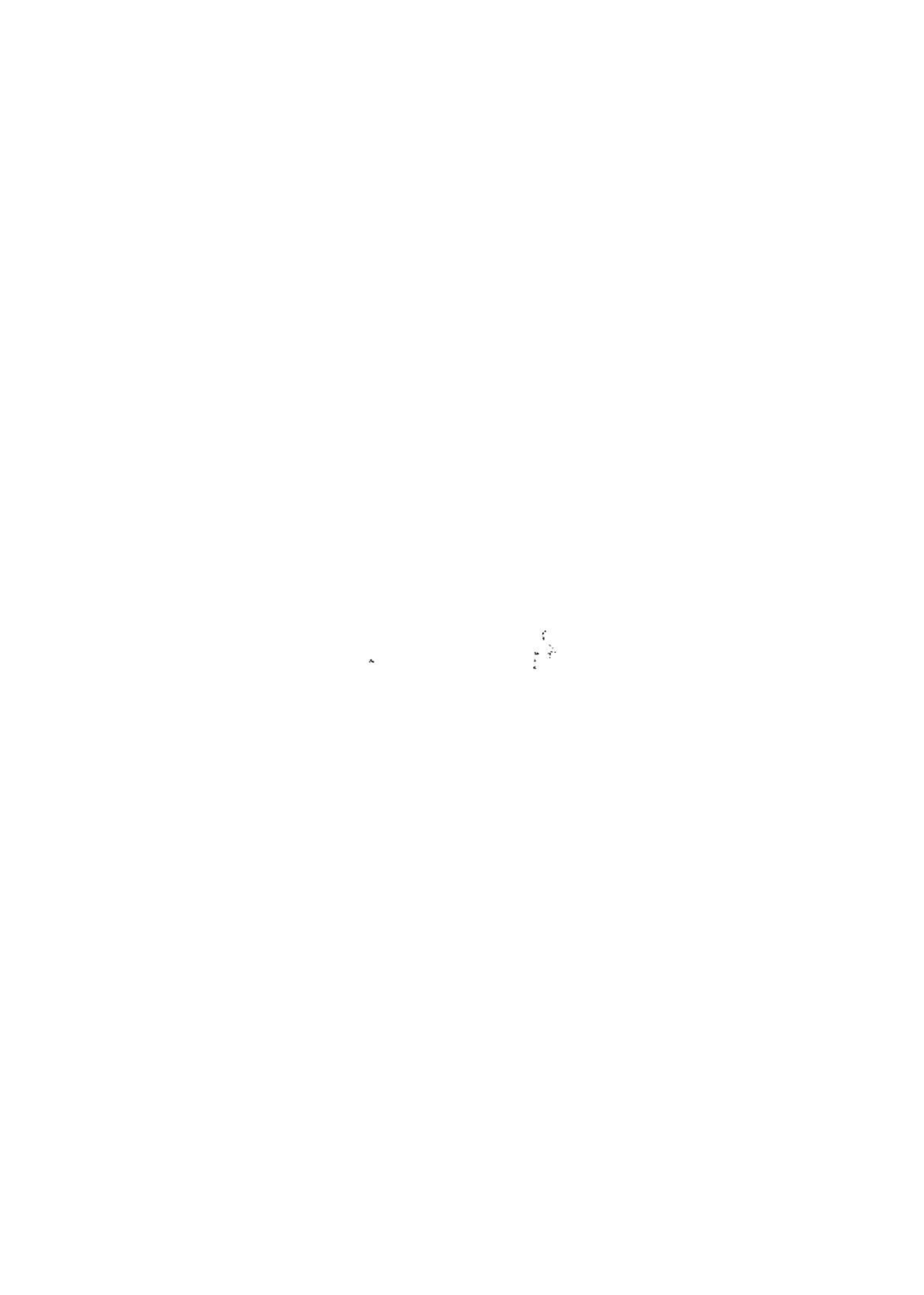
إني أجيز لنفسي أن أسميه تصرفاً متهوراً ، ذلك لأنني لم أعرض حياتى فقط لذلك الوحش ولبوءته ، بل حياة أربعة آخرين معى .

وبدأت أقارن بين مافعلته أنا ومافعله مبارك أمام الجاموس ، فوجدت أن الموقفين أسوأ من بعضهما .

* * * * *

الفصل السّادس

مَع جَارِي الأوربِي



فى صيف عام ٧٧ حضرت أسرتى من الكويت ، فاعتبرتها مناسبة لأحصل من السيد أبيل على رخصة لاصطياد فيل ، لأن صيده ممنوع إلا بتصديق رسمى من حاكم الإقليم ، فلم يتردد بمنحى رخصةً مجانية وقال : «إذا غرضك سن فيل لا تتعب نفسك فى البحث عن فيل فى الغابة ، يمكن أن نأمر بإعطائك سِنَّيْن كبيرين . .» شكرته وفضلت اصطياد الفيل لأن فى ذلك متعة للأولاد ... وهكذا وبعد يومين أخذنا كلّ مايلزم من أكل وماء ووقود وعدد من الشرطة وحرس الصيد الذين سيكونون بمثابة أدِلاّء لنا فى الغابة ، ثم ركبنا جميعاً ؛ الوالدة والزوجة والأولاد وحرّاسنا فى سيارتين ، وتوجهنا إلى الغابة وعلى بُعد حوالى سبعين كيلومتراً فى طريق مدينة ييى شمال غرب مدينة جوبا . طلب حراس الصيد منا الخروج من الطريق الرئيسى والدخول شمالاً فى طريق سيارات لم يستخدم منذ سنوات طويلة ، وكلما ابتعدنا إلى الداخل كلما واجهتنا صعوبة ووعورة فى الطريق ذات الأحجار الحادة والحفر الكبيرة ، وبسؤالنا لماذا أُتي بنا فى هذا المكان الوعر؟ قالوا : إنَّ الأفيال لاتتكاثر إلاّ فى مثل هذه المناطق ، وفعلاً كنا نرى آثار أقدامها واضحة على الأرض ، فالعُشْبُ سيىء الحظ الذى تطأه تحت أقدامها الثقيلة لا يقوم ولا يرتفع ثانية ، والأرض الهشة تنزل القدم فيها إلى عشرة سنتيمترات أو أكثر .

إرتفعت الشمس وتوسطت السّماء ونحن لم نقطع من هذه الأرض الوعرة أكثر من عشرة كيلومترات ، تعبت والدتى وزوجتى ، وحتى الأولاد الذين كانوا متشوقين لرؤية الفيل بدأ التّعب يظهر على وجوههم ، وأنا بطبيعة الحال لست أحسن حالاً ، فأوقفت السيارة تحت شجرة كبيرة ثم وقفت السيارة الثانية ، وطلبت من مرافقينا أن ينزلوا السجاد لنستريح ، ويقوم الطّباخ بإعداد طعام الغداء ،

وحرس الصيد عليهم أن يتجولوا بالقرب منا لعلهم يرون أفيالاً ، خاصّةً أن مرافقينا أفادوا أن صيد الفِيَلَةُ إنما يتم بالتّجوال على الأقدام وفى حذر تام ، وأن على الصيَّاد بمجرد أن يرى فيلاً أو قطيعاً منها ، عليه أن يغير اتجاه سيره بحيث يكون عكس الريح كي لاتحمل رائحته إلى الفيل فيهاجمه .. ذلك أن الفيل يعتمد على حاسة شمه أكثر من نظره الذى لايمتد أكثر من مائة متر.

وبعد حوالى ساعتين سمعنا إطلاق نار بعيد ثم توقف .. تغدينا وبدأت الشمس تميل نحو المغيب ، فبدأ الملل يتسرب إلينا ، خاصّةً أن أولئك الذين ذهبوا للبحث عن فيل لم يعودوا . والطريق إلى جوبا بعيد . فقررنا أن نترك ماء وطعاما وشرطيا بسلاحه ينتظر حرس الصيد ، على أن نعود لهم صباح اليوم التالى .

وصلنا جوبا بعد الساعة التاسعة ليلاً وسط ظلام دامس إلاّمن ضوء السيَّارتين ، وقد أصاب منا التّعب ماأصاب ، فلم تصدق الأسرة أنها وصلت حتى رمى كل منهم جسده على الأرض ، دون أن يستحم ليزيل الغبار الذى علق بجسمه وبلا أكل وراح يغط فى نوم عميق .

فى الثّامنة صباحاً استأنفنا العودة ، وماإن دخلنا طريق الغابة وقبل أن نصل إلى حيث تركنا الشّرطي يوم أمس ، إذا بحرس الصيد يستقبلوننا مستبشرين مهللين فرحين وهم يرددون . «أبشر .. أبشر ياسيادتك» فقد ضربنا فيلا كبيراً وآخر هاجمنا فأرديناه قتيلاً .

شعر ابنى صالح بالأسف بل وفاضت عيناه بالدّموع لأنه لم يضربه بنفسه . ولم يشاهده حياً .

ضحكت من منظره هذا وقلت له : ماذا ياصالح ؟ هل كنت تتوقع أن يربطوه لك إلى جذع شجرة حتى تأتى وتطلق عليه رصاصاً ؟ .

قفز الحراس إلى السيارة الثانية وتقدمونا ليرشدونا إلى الفيلين .. فى الطريق رأينا جمعاً من الأهالى يسيرون حفاة إلى حيث نريد .. بعض النّسوة يحملن أطفالهن وبعضهن يحملن أواني طبخ ، وعلى طول الطريق كنا نشاهدهم أفراداً وجماعات .

وصلنا إلى الفيل الأول.. فقال الحراس إنه الصّغير الذى هاجمهم. قاموا باستخلاص نابَيْه من الرأس، بينما كان الأهالى يقطعون من اللحم وآخرون يوقدون النار..

وما هي إلاّ دقائق وقبل استخلاص النّابين، حتى كان الأهالى قد وضعوا شرائح اللّحم على النّار المتأججة.

توجهنا بعد رفع النّابين إلى الفيل الكبير، فوجدنا الأهالى قد سبقونا إليه وبدأوا بشوي اللّحم.

الفيل ضخم، أوقفت السيارة الجيب اللاندروفر على يمينه، ونزلت فوقفت على يساره فحجب جسمه عنى رؤية السيارة.

إنه يزن أكثر من ثلاثة أطنان، وأحد نابيه قد انغرس فى الأرض أكثر من نصف متر، لأن الفيل اتكأ عليه وهو يهوي بجسمه الثّقيل على الأرض بعد ضربه.

إن استخراج النّابين من رأسه استغرق أكثر من ساعتين. كان طباخنا خلالهما يعد لنا طعام الغداء، أما الشّرطة وحرس الصّيد والأهالى ــ رغم إنشغالهم جميعاً فى فصل السِّنّيْن من الرأس ــ فقد كانوا يقومون أيضاً بتقطيع شرائح مستطيلة من لحم الفيل و يضعونها على النّار لمدة نصف ساعة حتى تنضج، ثم يقطعونها بالسّكاكين ليأكلوها.. تناولت منهم قطعة صغيرة ووضعتها فى فمي فإذا بى كأنى أمضغ قطعة من عجلة سيارة.. وطعمها مُر فرميتها من في.. وسألتهم أي جزء فى لحم الفيل أترف ويمكن تقطيعه بسهولة؟ فقالوا.. إن لحم خرطوم الفيل هو ألذ جزء فيه وأطيب، فطلبت منهم أن يُقَطّعُوه و يرفعوه فى السيارة.. إن طول مقدمة الفيل هذه (الخرطوم) حوالي مترين ونصف، فقطعوها قطعاً صغيرة كل قطعة بطول حوالى ٣٠سم، ولكن لكي يرفعوها إلى السيارة، كان اثنان يتعاونان على رفعها بواسطة جذع شجرة سميكة يدخلونه فى أنفه، واثنان آخران يدفعانها إلى صندوق السّيارة.

إننى سعيد بِسِنَّيْ الفيل.. إن طول كل منهما حوالى متر وربع المتر، و يزن أكثر من خمسين رطلاً، وهذا اللّحم الذى رفعوه فى السّيارة سوف أوزِّعه على

الأصدقاء فى جوبا .. أما أقدامه الأربعة فقد طلبت من الأهالى تقطيعها من عند المفصل (الركب)، واستخراج العظم واللّحم منها والإبقاء على الجلد والخف، على أن أعود لهم فى اليوم التّالى لاستلامها وأعطيهم مقابل ذلك بعض المال ومواد غذائية.

فى جوبا وزعت ما حملته من لحم على بعض الأصدقاء من الوزراء والجيران من حولى، الذين ما إن وصلهم اللّحم حتى توافدوا عليّ يشكرون ويهنئون لأنني تمكنت من صيد فيل فى يوم واحد، لأنها تعتبر فترة قياسية .. ذلك أن صيد الفيل يحتاج إلى معسكر فى الغابة لعدة أيام حتى، يتمكنوا من صيد فيل يحمل سنين كبيرتين كاللتين حصلنا عليهما.

أما أنا فقد أبقيت لنفسى قطعة من ذلك اللّحم تزن حوالى كيلو جراماً واحداً وأخذت بتقطيعها قطعاً صغيرة، وضعت منها أربع قطع فى مفرمة اللّحم الكهربائية لأطحنها .. وما إن دارت الماكينة حتى انكسرت سكينتها الداخلية، عجباً!!! أربع قطع صغيرة لم تتحملها السّكينة الكهربائية ..! ولم أعلق واكتفيت بأن هززت رأسى معلناً استسلامى، وقلت للطباخ والعاملين الذين كانوا ينظرون إليّ: أطبخوها وكلوها أنتم هنيئاً مريئاً.

فى اليوم التالى حملت (جوالين) من الذرة ومبلغاً من المال وذهبت إلى الأهالى مع سائق وحارس واحد فقط، وأنا أمنّي نفسى بأني سأمتلك أربعة أقدام فيل كبيرة، قطر كل واحدة لا يقل عن أربعين سنتيمترا وأني سوف أزيّن بها صالون منزلى كطاولات صغيرة، إلاّ أن فرحتى تبددّت عندما علمت من الأهالى أنهم حتى الجلد لم يبقوه .. فقد أكلوه .. كيف ..؟ .. الله وحده يعلم أن سُمك جلد هذا الحيوان الضخم حوالى ثلاثة أرباع البوصة .. خشن .. قاس وله وبر حاد كالدبابيس .. سألتهم مستغرباً (كيف أكلتوه؟)!!!

رد أحدهم ببساطة .. ناكلوه (أى نأكله).

لكن هذا جلد وقد تركت لكم لحم فيلين.؟!!!

وعدت إلى جوبا أجر معى خيبة الأمل.

أما سِنّا الفيل فقد بعثت بهما إلى نيروبى حيث تم تلميعهما وعمل قاعدتين جميلتين لهما.

بعدها قررت أن أعود مع الأسرة إلى الكويت فى إجازة، وقد حل مكانى مرة أخرى علي المنصور مدير الهيئة، لأنه كما قال استلطف جو جوبا الممطر فى مثل هذا الفصل من كلّ عام.

بعد انقضاء الإجازة عدت إلى الخرطوم فى طريقى إلى جوبا، فعلمت من بعض الأصدقاء أنَّ السفر إلى جوبا ممنوع، وهناك خطر على من يسافر لأنه يوجد مرض خطير ظهر فى مديرية غرب الإستوائية فى منطقة الزّاندي، يسمى مرض «القرد الأخضر». وأنه مرض لايرحم ضحيته و يقضي عليها فى ساعات قليلة، ولهذا وضع الإقليم الجنوبى فى «كرنتينا» ومنع السفر منه وإليه.

إن إقامتى فى الخرطوم لن تفيدنى، وعودتى إلى الكويت لن تفيد الهيئة، وعلي المنصور والمهندس عبدالمنعم عرفه، الذى لحق به ليطلع على سير العمل فى مساكن المدرسين والمدرسات معه فى جوبا وأن الحاجة لهما فى الكويت ملحة.. إذاً عليّ أن أسافر إلى جوبا بأيّة وسيلة، وأنه إذا كان مقدراً لى أن أموت فى السودان فالبقاء لله وحده.

فى اليوم التالى سافرت على متن طائرة كانت تقوم بنقل مواد طبية إلى الإقليم، فكانت عودتى مصدر سعادة ومفاجأة لكلّ من علي المنصور والمهندس عرفة، اللّذين لم ينتظرا طويلاً معى وعادا إلى الخرطوم على متن أول طائرة.

وبدأت أقوم كالمعتاد باتصالات مع الأصدقاء، وكان من بينهم الدكتور زاهر الذى كان يحرص أن يزورنى كل ليلة، بعد أن يقضي طوال النهار فى المستشفى يعالج حالات ذلك المرض، ولم يضايقنى وجوده فقد أصبت بمرض الملاريا وعانيت منها.

بعد فترة إنقشع المرض، مات به من مات، وشُفي منه من شُفي، ورفع الحظر عن جوبا، واستأنفت الطائرات رحلاتها.

* * * * *

أوشكت انتخابات عام ١٩٧٨ . وهي تُجْرَى عادة كل أربع سنوات ، وأذكر وقتها أنَّه دار حوار بيني وبين البروفيسور السَّماني عبدالله يعقوب مدير جامعة جوبا ، وكنت قد تعرفت عليه عام ١٩٧٦ وتوثقت علاقتى به . وفى هذا الحوار قال إن الإنتخابات ستجرى بعد أُسبوعين وطلب أن يعرف موقفى ، فقلت له إن هذه الإنتخابات لاتعنينى فى شيء ، ولاأعتقد أن هناك جديداً سوف يحدث . أما هو فقال إنه سيغادر جوبا خلال فترة الانتخابات ، فهو لايريد أن يزج بالجامعة فى المعارك الانتخابية ، حتى لايحسب على أحد خلال فترة الانتخابات أو يفهم أنه مع فريق ضد آخر، فاستحسنت رأيه وراقت لى كذلك فكرة الإبتعاد عن جوبا ، وقلت إنَّ كل السياسيين هنا أصدقائى ، فجوزيف لاقو صديق يزورنى كثيراً فى بيتى ، وأبيل صديق وجدت منه كل تعاون . وغادر البروفيسور السّمانى جوبا وأنا بعده .

وما عدت إلاّ بعد أن تشكلت الحكومة الإقليمية برئاسة جوزيف لاقو فذهبت وشكرت الحكومة السابقة على تعاونها معى خلال السنوات الماضية أثناء توليها السلطة ، كما هَنَّأتُ جوزيف لاقو والحكومة الجديدة وتمنيت لهم التوفيق ومزيداً من التعاون مع مكتب دولة الكويت .

فى منتصف عام ١٩٧٨ ، وبينما كنت جالساً بعد الظهر تحت شجرة النّيم فى المنزل ، دخل عليَّ خمسة من الشباب وسلمونى خطاباً ، وكان الخطاب من أسرة نادي الهلال بجوبا ، وقد أخطرونى فيه أنه وقع اختيارهم عليّ لأكون رئيساً فخرياً للنادي خلفاً للسيد/جوزيف لاقو الذى كان هو الرئيس الفخرى ، وبعد انتخابه رئيساً للحكومة أصبح راعياً لكلّ الأندية فى الإقليم ، ولايجوز أن يكون راعياً لنادٍ واحد فقط ، فأعربت لهم عن شكرى ، وبعد أيام أقيم حفل حضره السيد جوزيف لاقو وبعض الوزراء والمهتمين بشئون الرياضة ، وألقيتُ كلمة بوصفى رئيساً فخريا للنادي وسألتهم عما إذا كان اختيارهم لى جاء لمعرفة سابقة بنشاطى الرياضى فى الكويت أم مجرد تكريم باعتبارى مواطناً مقيماً بينهم ؟ وفى كلتا الحالتين اعتبرت أنّ اختيارهم لىَ هو بمثابة تكريم للرياضيين الكويتيين ،

ووجهت لهم الشكر، وتحدثت عن تجربتى فى المجالات الرياضية قبل مجيئى إلى جوبا .

خلال تلك الفترة أُنجِزَ مشروع الوحدات السكنية وكان ذلك عام٧٨ ، وجرى إفتتاح كبير شارك فيه السيد جوزيف لاقو حاكم الإقليم وحضره المسئولون فى الحكومة الإقليمية وكل من سفيري دولة الإمارات والكويت فى الخرطوم ، وفى هذا الاحتفال تحدث السيد/لاقو فشكر دولة الكويت على ماتقدمه من خدمات ، وقال إنه لايستطيع أن يفى شعب الكويت حقه أو يعبر عن مدى تقدير الشعب السودانى فى الإقليم الجنوبى للشعب الكويتى ، لذا قرر إطلاق اسم الكويت على أحد الشوارع الرئيسية فى جوبا ، ثم وجه حديثه لى قائلا : أما أنت فلا أستطيع أن أوفيك حقك بالكلمات .

علم الرئيس نميرى بذلك ، فقرر فى نفس الشهر منحى وسام النّيلين من الطبقة الثانية ..

وكانت المرحلة الجديدة هي إنشاء مستشفى للأطفال .. فلقد طلب الدكتور باسفيكو ــ وزير الصحة فى حكومة لاقو ــ إنشاء هذا المستشفى لأنه لايوجد مستشفى متخصص للأطفال ، وأبلغت الهيئة فى الكويت بهذا الطلب . فوافقت واعتمدت الميزانية اللازمة لإنشائه .

بعدها تعرفت على مواطن أوروبى ، فقد كان الأوربيون يتوافدون بكثرة ولفترات طويلة ؛ منهم من جاء ليعمل فى مشروعات تقوم بها دولهم ، ومنهم رجال كنائس ينتشرون فى مراكز الإرساليات التبشيرية ، وهذه الإرساليات لاتقتصر مهمتها فقط على الناحية الدّينية ، وإنمّا تُعَلِّم أبناء الجنوب أساليب الزّراعة والحرف الصناعية واليدوية واللّغات الأجنبية وأكثرها إنتشاراً اللّغة الإنجليزية .

وهذا الأوروبى الذى تعرفت عليه ، لم يكن قادماً فى زيارة سريعة ولم يكن لقائى به مصادفة ، وإنما كان جاراً لى . فقد كانت المنازل التى تجاور بيتى ومكتبى هي (بيوت جاهزة) يسكنها أوربيون ، معظمهم من المؤسسات الدينية ، وهؤلاء يعرفون هنا باسم « الخواجات » ، ورغم أن هذه المنازل كان عددها ستة

ويسكن كل واحد منها أكثر من شخص، إلاّ أنه لم تكن هناك بيني وبينهم علاقة الإإشارة باليد علامة التحية، إلى أن سكن بجواري رجل فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمره، ولازلت أتذكر ملامحه؛ له ذقن شقراء قصيرة، ونظارة طبية، نحيف الجسم، طوله حوالى مائة وسبعين سنتيمترا، جاء هذا الأوربى ليعمل بمجلس الكنائس العالمى وليس قساً، ولم يكن يفصلنى عنه سوى سلك شائك ومسافة ثمانية أمتار هي المسافة بين منزلى ومنزله، ومن السهل أن يرانى كل يوم أتناول الشاي فى المساء فى فناء المنزل (الحوش) وأراه وهو يعمل فى حديقة منزله الصغيرة، وكان لابد أن تنتهى هذه المشاهدة المتبادلة يومياً إلى دعوته لتناول الشاي معى، وأصبحنا بعد ذلك فى أكثر الأيام نتناوله سوياً.

كان حديثه معى عن الدّين بشكل عام، وانتشاره فى الجنوب، وعن الإسلام، وكان يتساءل عما إذا كنا قد جئنا إلى هنا لنشر الدّعوة الإسلامية؟ ثم توثقت علاقتنا فبدأ يطرح أسئلة متعمقة حول الدين. كان لايتكلم اللّغة العربية وكنت أتحدث معه بالإنجليزية، وقد أفادنى الحديث معه بتحسن لغتى، حتى أصبحت أتحدث بها مع الجنوبيين فى الوقت الذى بدأوا يتحدثون معى فيه بالعربية.

ازدادت علاقتى بهذا السيد الأوربى، فراح يَمُدُّني بالكتب؛ الإنجيل، والترانيم وغيرها من كتب دينية، وكنت حريصاً ألاّأخيب ظنه، واعتاد أن يسألنى عن الكتب التى يحضرها لى ويعيد شرح محتوياتها، ولم يجد منى أيّةَ غضاضة فى قراءة هذه الكتب أو رفضها، وقلت له إني قرأت الإنجيل من قبل، والمسلم لايكتمل إسلامه إلاّبالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والمسيحيون هم من أهل الكتاب.

ومع مرور الأيام توثقت علاقتنا إلى حد يسمح له بألاّيتحرج من قول مايريد، فسألنى ذات يوم بشكل مباشر: لماذا اخترتُ جنوب السودان للعمل فيه، وليس فيه أيّة وسيلة من وسائل الحياة الموجودة فى الكويت؟ وكيف رضيت أن أتخلّى عن تلك الحياة المريحة فى الدولة الغنية المتقدمة وأعيش فى هذه المنطقة المتخلفة؟ فأجبته بمثل ماسأل، لماذا هو الآخر ترك أوربا المتحضرة المليئة بكل وسائل

الرفاهية والراحة وجاء ليعيش هنا؟ فقال إنّه فى مهمة، فأجبته: وأنا موظف حكومى عليّ أن أعمل فى أيّ موقع، فلم يقنعه جوابى، ونظر إلى الأمر من زاوية مالية فلآبد أن حكومتى تمنحنى حوافز مالية أكثر لكي أترك بلدى لأعمل فى هذه المنطقة الصّعبة، ولم أعترض على رأيه، وقلت له ربما يكون هذا سبباً أيضاً، المهم أن نقوم معاً ــ نحن وأنتم ــ بعمل من أجل هؤلاء الناس الذين نعيش معهم الآن..

كان الحديث يدور بينى وبينه هكذا قرابة ثلاثة أشهر. واعتبرته حديثاً عادياً بين جارين ابتعد كلّ منهما عن موطنه وجمعت بينهما الغربة، لكن يبدو أنه كان يعد لشيء آخر، عندما تصوّر أن مشكلتى مالية وأنه يستطيع أن يجد لها حلاً دون أن يذكر الوسيلة لتحقيق ذلك ولكنى أذكر أنه قال بالحرف: إذا كانت مشكلتك مالية نستطيع أن نجد لها حلاً!

ومرة أخرى أكد ما يعنيه عندما قال: المشكلة ليست بوجود مكتب دولة الكويت ولكن المشكلة أنت بشخصك، ونحن على استعداد أن نعطيك مايكفيك من مال حتى لوكان مليون دولار.. هكذا فهمت منه.. إنّ وجود مكتب الكويت غير مهم.. والمهم هو أن أغادر أنا وأطلب ماأشاء.

وبما أن بيتى لا يخلو فى أيّ يوم من الأصدقاء ولاسيا المسئولين، فقد اعتقد جارى أنني أسعى بتكليف من حكومتى لإدخالهم فى الدين الإسلامى، وأني على وشك تحقيق ذلك.

وليته عَلِمَ أن هذا ماكان هدفى ولاغايتى، ولا هو تفكير حكومتى، ولم أحاول يوماً أن أتكلم مع أحد فى السياسة أو فى الدين، فكل ماكنت أقوم به لايعدو عن كونه تقليداً عربياً فى حب الناس واستضافتهم.

كان إخلاصى فى العمل وصداقتى مع السودانيين؛ من مسئولين ومواطنين فى الشمال والجنوب هو غايتى وقناعتى، وقد تحققت ثمار ذلك وحصلت على أوسمة الحب والوفاء، لكن صديقى (الخواجة) لم يستوعب ذلك فعرض عليّ ترك مكتب الكويت، وكان الموضوع بالنسبة لى بمثابة نكتة فقلت له ــ مجاملة ــ دعنى أفكر

هل أقبل أم لا ، لأني اعتبرت عرضه هذا مجرد أمنية يتمناها جار لجاره ، أو أنه قالها باعتبارنا صديقين جمعتنا الغربة ، ولكني لمست جِدّيته عندما كرر ذلك ولمدة أربعة أيام متتالية ، إنه ينتظر ردى ، فقلت له :ـ إنّني أعتذر عن قبول عرضه وسوف أستمر فى عملى .

أحسست أنه فقد الأمل تماماً .. وخاب ظنه فى صديقه العربى القادم من الكويت . فبدأت زيارته لى تقل ، وكان قد مضى على معرفتى به ستة أشهر.. وذات يوم حضر لزيارتى وقال :ـ إنه جاء ليودعنى لأنه سيعود إلى بلاده بعد أن فشلت مهمته .

كانت دهشتى كبيرة .. لأن صديقى الأوربى لم يستوعب موقفى وأنّ وجودى فى جوبا لم يكن لأي غرض سياسى أو دينى ، وإنما من أجل السودان الذى له حق علينا كبلد عربى شقيق .

وسافر صديقى الأوربى .. الذى حفزّنى موقفه على أن أقدم المزيد من العمل والجهد من أجل السودان وسمعة الكويت .

* * * * *

الفصل السّابع

مَع الأمير ووَلي العهَد

اكتشفت بعد فترة أن صديقي الأوربي لم يكن وحده الذى تساوره الشكوك حول مهمة عمل مكتب دولة الكويت فى جوبا ، بل إنّ هناك آخرين يظنون ظنوناً شتى ، لكن الذى يجب أن أسجله هنا ، هو أنني قد وجدت كل تعاون من المسئولين على اختلاف إتجاهاتهم ، ومن كل الحكومات التى تعاقبت (ست حكومات) خلال فترة وجودى فى الجنوب ، ولعل استمرار عمل المكتب مع تغيير الحكومات أثار الكثير من التساؤلات ، والواقع إنني لم أضع فى اعتبارى مثل هذه أو تلك ، وحتى موقف الصّديق الأوربى اعتبرته مسألة فردية ، إلى أن حدث ذات يوم أن زارنى صحفى من أبناء إقليم الإستوائية ، وكان ذلك عام ١٩٨٣ وطلب مني الإدلاء بحديث حول خدمات المكتب ومشروعاته المستقبلية ، ووضع أمامى أسئلة مكتوبة وأخرى غير مكتوبة وفوجئت بسؤال منه غير مكتوب يطرحه باللغة الانجليزية بما معناه :

لقد تغيرت حكومات كثيرة فى الجنوب ، ومكتب الكويت مازال مستمراً .. لماذا ؟

دهشت من صيغة السؤال ، وأجبت بأن حكومة وشعب الكويت لاتقدم خدماتها لحكومة معينة ، وإنما للشعب ، فالشعب هو الباقى ، ونحن لانتعامل مع الحكومة إلاّ من خلال موقعها كسلطة توجه سياسة الإقليم وتحدد إحتياجاته ، وتطلب منا ماتريد من خدمات ، ونحن نتعامل بوصفنا واجهة لحكومة أخرى هي دولة الكويت .

وأضفت :

وأرجو أن تسجل ما أقول على لسانى كمسئول ، وهو أنه لم يحدث أن قدّم

المكتب أيّة خدمات خاصة لأيّ مسئول على أيّ مستوى، ولم يحدث أن حصل أيّ شخص حتى على (جوال) أسمنت لنفسه، فالمكتب مكتب خدمات للشعب السوداني، ولايرجو من ذلك الحصول على مكاسب سياسية أو تبشيرية، وإنما هو تعبير عن محبة أخوية من الشعب الكويتي إلى أشقائه فى السودان.

ثم طرح الصحفى سؤالاً آخر، لم يكن من الأسئلة المكتوبة أيضاً بما معناه:

إنَّ البقرة لا تعطيك لبناً مالم تطعمها، فماذا أعطى جنوب السودان للكويت؟

أزعجني السؤال فدعوت موظفى المكتب، وكانوا خمسة أشخاص هم المهندس والمحاسب والطبّاع والسكرتيرة، وقلت لهم: ــ اسمعوا هذا السؤال، وقرأته عليهم، ثم أجبته منفعلاً:

ــ الخواجا[1] معكم منذ أكثر من ستين عاماً فماذا أعطيتموه كي يستمر؟ ونحن لسنا واجهة لمنظمة بل نحن واجهة لدولة، والعلاقة بين السودان ودولة الكويت علاقة الأخ بأخيه، ولاتنتظر دولة من الأخرى أن تقدم لها شيئاً مقابل عمل تقوم به.

ثم أضفت:

وهذا المكتب ليس شركة تبحث عن الرّبح المادى أو السياسى، ولكنه لتوثيق العلاقات بين الشعبين الشقيقين وليس بين الأشقاء حساب.. هذا، ماذا قدم..، وذاك ماذا أعطى؟.

وحتى الإعلاميين الآخرين لمست عندهم ذات الشعور، ففى عام ١٩٨٣ أعلن الرئيس نميرى تقسيم الجنوب إلى ثلاثة أقاليم، وكنت يومها فى إجازة خارج السودان، وعندما عدت، استقبلني فى المطار مندوب إذاعة جوبا وسألنى عن رأيي بعد التقسيم وهل دولة الكويت مع أم ضد التقسيم؟

ضحكت وقلت: تأكد ياصاحبى أن دولة الكويت لايعنيها هذا الموضوع فى شيء من قريب أو من بعيد، فالبلد بلدكم وأنتم أصحاب القرار. فهى مسألة

(١) أي الأوربى.

تخص أهل السودان وحدهم ، ولكن مايهم الكويت هو أن مكتبها سيستمر فى تقديم خدماته طالما أن حكومة السودان تريد ذلك .

أكثر هؤلاء غرابة ، وزير أتانى فى نهاية عام ١٩٨١ قبل تقسيم الجنوب وقال :ــ إننا ــ أيّ هو ومجموعته من فئة معينة فى تلك الحكومة ــ قررنا أن ننافس فى الانتخابات القادمة وأنه يرجو مني باعتبارى صديقاً أن أطلب من النواب الذين نهتم بهم (أي الذين ندعمهم لينجحوا ولنا تأثير عليهم) أن يُصَوِّتوا لهم .

أجبته : أنت عضو فى الحكومة ، هل سمعت أو لمست أن مكتب الكويت أو عبدالله شخصياً وقف إلى جانب أحد فى أيّ انتخابات .. ؟ ولم أنتظر منه رداً فواصلت : إني أعذرك فأنت جديد فى جوبا ولكي أطمئنك والآخرين معك .. إنني مسافر غداً حتى تنتهي انتخاباتكم .

كذلك عندما زارنى مسئول فى مكتبى وقد أُعْفِيَ من منصبه ومعه اثنان من الوزراء حيث قال :

ماذا يقول المسئولون فى الكويت عن هذا التغيير الذى حصل ، وهل يرضيهم ذلك ؟

أجبته بابتسامة :

لو سمعتم أنتم أن الحكومة الكويتية أقيلت بكامل أعضائها ، فهل ستتخذون موقفا ؟

فهم ما أعنى وقال .. أنت على حقّ.

ومثل هذه التساؤلات لا تزال قائمة تُطرح بين الحين والآخر، وهي تعكس حاجز العزلة بين جنوب السودان وسائر البلاد العربية ، نتيجة لسوء الفهم الذى أوجدته الحرب الأهلية بين شمال السودان وجنوبه ، على امتداد سبعة عشر عاماً ، وكان الرّد على هذه التساؤلات هو الاستمرار من أجل تقديم الخدمات غير المشروطة ، وهذا فى رأيي أفضل السُّبل لإزالة هذه الحواجز وهو ماشعرت به أثناء وجودى هناك ، فلم أشعر فى يوم من الأيام أنني بعيد عن أيّ بلد عربى .. وازداد اقترابى من الجنوبيين عاماً بعدعام .

ورغم أنهم يصفون أنفسهم بأنهم أفارقة زنوج وليسوا أفارقة عربا ، فبعضهم يرى أن تسعين بالمائة منهم ينتمون إلى أفريقيا ، وعشرة بالمائة إلى العرب ، وآخرون يرون أن ٦٠٪ إلى أفريقيا ، و٤٠٪ إلى العرب، وفى كلتا الحالتين فإن نسبة الإنتماء إلى أفريقيا الزنجية تغلب على نسبة إنتمائهم إلى أفريقيا العربية .

وهذا الاختلاف فى نسبة الانتماء يعكس أيضا اختلافاً فى الآراء والاتجاهات ، نظراً لتعدد القبائل وتعدد اللّغات وإختلاف فى بعض العادات ، وربما كانت هذه التّعددية سبباً من أسباب النّزاعات التى تحدث بينهم بين الحين والآخر، وقد كنت حريصاً طوال فترة إقامتى ألاّأتدخل فى قضاياهم السّياسية أو أتعاطف مع فريق ضد آخر، فكنت أتعامل معهم على أساس مجتمع واحد، أما خلافاتهم السّياسية فهذا أمر يخصهم وحدهم ، والأمر الذى لاتعلمه الهيئة التى كنت أعمل لديها فى تلك الفترة وحتى الآن ، أنني كنت أوقّت دائماً لإجازاتى مع فترة الانتخابات الإقليمية إلى أن تنتهي وتشكل الحكومة ، حتى لايفسر بقائى أنني محسوب على فئة دون الأخرى ، لأن كل الذين يتنافسون على السلطة والانتخابات هم أصدقاء شخصيون لى . لهذا أتجنب إحراجهم وإحراج نفسى خلال فترة وجودى خشية أن أزور واحداً منهم خلال هذه الفترة ، فيظن الطرف الآخر أنني مؤيد لهذا وأدعمه ، وحتى التّجار الذين كنت على معرفة بهم جميعاً لم أحاول خلال فترة إقامتى فى جوبا أن أوثق علاقتى بأىٍّ منهم ، ذلك أن كلّ واحد منهم له مصالحه مع السياسيين ، و يدعمهم وفق مصالحه أثناء الانتخابات ، ولهذا آثرت الابتعاد عنهم ، كي لايفسر الإخوة الذين يتنافسون على السلطة ، أنني أمول ذلك التاجر وهو بدوره يمول ذلك السياسى ، فقد كان بيتى مفتوحاً دائماً لكل الشخصيات السياسية فى الجنوب ، ولم يكن يدور أبداً حوار حول أية أمور سياسية ، ولذلك كان شيئاً عادياً أن تلتقى جميع الأطراف فى بيتى ، وذلك لعلمهم أن واحداً لن يتحدث فى شئون سياسية ، وأسعدنى أن سمعت تعليقاً من أحد الوزراء ذات مرة حين قال :

ـ إننا فى بيتك عندما نلتقى يتشكل منا مجلس وزراء كامل النصاب ، لكن بدون أجندة أو لائحة موضوعات .

أعود إلى أوراقى عام ١٩٨٠ وقرار الرئيس نميرى بتغيير حكومة جوزيف لاقو بحكومة أبيل. فقد قامت هذه الحكومة بوضع خطة للتنمية شملت تصور الحكومة لمشروعات الإقليم فى المستقبل، وزارنى السيد بوناملوال وزير الصناعة الإقليمى فى ذلك الوقت، وأحضر لى تقريراً عن المشروعات فى شكل كتيِّب، وأبلغنى أنه سيقوم بجولة إلى دول الخليج العربى للحصول على مساعدات وقروض لتمويل هذه المشروعات. وبالفعل قام السيد/ملوال([1]) بزيارة لهذه الدّول، وفى الكويت إلتقى بحضرة صاحب السمّو الشيخ جابر الأحمد الصبّاح، وأطلع سموه على تقرير المشروعات التى تحتاج إلى دعم من الكويت، فطلب منه الأمير أن يسلمنى هذا التقرير ليناقشنى فيه.

عاد السيد / ملوال من الكويت وأطلعنى على تفاصيل ماحدث، وسلّمنى التقرير.

وفى طريقى إلى الكويت توقفت فى الخرطوم، حيث أصدر مجلس إدارة الشركة الكويتية للاستثمارات الخارجية للتجارة والمقاولات قراراً بتعيينى مديراً للشركة بالخرطوم، بعد أن ترك مديرها السابق منصبه، على أن أتسلم عملى الجديد إعتباراً من ١٩٨١/١/١، فَوافقتُ ووقَّعت عقداً مع رئيس مجلس الإدارة الذى تصادف وجوده فى ذلك الوقت فى الخرطوم وتسلمت قرار التعيين.

هكذا سافرت إلى الكويت فى عمل حكومى، وفى جيبى عقد عمل أباشره بعد ثلاثة أشهر من الآن.

تشرفت بمقابلة صاحب السمّو الأمير، وكان بادياً عليه الاهتمام الجاد ورغبته فى معرفة احتياجات الأشقاء فى الجنوب.

وراح يسألنى عن تفاصيل المشروعات التى يقوم المكتب بتنفيذها والتى سيقوم بها مستقبلاً، فأجبته بالصراحة والصدق التى اعتدنا عليها فى الكويت:ـــ

---

(١) من قبيلة الدّينكا وكان يشغل من قبل منصب وزير الإعلام فى الحكومة المركزية والناطق الرسمى للحكومة السودانية ومن مؤيدى حكومة أبيل الير.

ـ طالما أنني الآن فى حضرة سموكم بدعوة شرفتمونى بها ، فأرجو أنِ أستأذن سموكم السماح لى بالتقاعد .

كان سموه جالساً إلى مقعده ، وعندما ذكرت كلمة (التقاعد) أسند ظهره إلى الوراء ، وسألنى بلهجة جادة :

ـ لماذا ؟ .. الآن وقد أسماك إخوانك هناك (عبدالله جوبا) تتركهم ؟ ..

أجبت : ـ

ـ إنني لن أترك السودان ، فعملى الجديد لازال فيه ، وآمل أن يُتِمَّ من سيخلفنى هناك مابدأته ، ذلك أنني تعاقدت مع شركة كويتية للعمل مديراً لمشاريعها فى الخرطوم ، وهذه فرصة لأجرب العمل فى القطاع الخاص بعد أن خدمت الحكومة بما فيه الكفاية ، ثم إن آخر مشروع أنفذه أوشك على الإنتهاء وهو مستشفى الصّباح للأطفال .

ـ إبتسم سموه وقال :

ـ عد إلى مكتبك .

ـ قلت ، وقد عوَّدنا سموه عدم التملق وتصنع الحديث : ـ

ـ هل هى رغبة سموكم ؟

اكتفى بابتسامة ، فشكرته ، وتوجهت على الفور إلى مقر الشركة الرئيسى ، وقابلت مديرها وسلمته خطاباً رسمياً باعتذارى عن قبول المنصب كمدير لفرعها فى الخرطوم .

كان حديثى مع صاحب السمو الأمير يوم أربعاء ، ومجلس الوزراء يجتمع عادة كل يوم أحد . وفى صباح يوم الاثنين إتصل بى مسئول بمجلس الوزراء وطلب مني الحضور إلى هناك ، حيث أبلغنى أن الحكومة اعتمدت مبلغ ثلاثة ملايين دولار لإنشاء وحدات سكنية فى جوبا ، وهي من بين المشروعات التى كانت الحكومة الإقليمية قد وضعتها فى برنامج التنمية ، كما أبلغنى أن سمو ولي العهد يطلبنى لأقابله .

أعرف أنَّ سمو ولي العهد لايختلف عن صاحب السمّو الأمير فى تواضعه وبساطته وصراحته مع الآخرين وعندما دخلت إلى مكتبه.

ـ بادرنى بقوله:

ـ مبروكِ.

ـ قلت: ـ أشكر سموّكم ولكنى أتمنى أن أخرج بشىء منكم.

ـ قال: ـ وما ذاك؟.

ـ قلت: ـ

ـ قبل قيامى بهذه المهمة تحدث معى السيد/أبيل، وقال إنَّ دولة الكويت قدمت مشكورةً الكثير لجنوب السودان، ولكنها حتى الآن لم تقم بإنشاء مشروع للمسلمين.

ـ قال سموّه:

ـ وماذا تريد؟

ـ قلت:

ـ طالما أن هذه الرّغبة أتت من الحكومة الإقليمية، فأرجو أن نقوم بإنشاء مسجد متعدد الأغراض ليقدم إلى جانب العبادة أغراضاً أخرى.

فطلب مني أن أعد تقريراً حول هذا المشروع مع ذكر التقديرات اللاّزمة له، وكتبت تقريراً ضمَّنته تصورى لهذا المسجد، بأن يكون متسعاً ويستوعب أكثر من ألف مصلٍ، وبه مكتبة دينية وقاعة محاضرات ومنزلان؛ أحدهما للإمام والآخر للمؤذن، وأن يضم اثني عشر دكّاناً كبيراً، يكونون وقفاً لمرتب الإمام والمؤذن وصيانة المسجد، وقدرت لذلك مبلغاً، ثم سلمت التقرير إلى مدير مكتب سموّه. وفى الإجتماع التالى لمجلس الوزراء أُقِرَّ المشروع.

طلبت بعد هذا موعداً لمقابلة حضرة صاحب السمّو الأمير وآخر لسمّو ولي العهد لتوجيه الشكر إليهما. وأذكر أنني قلت لسمو الأمير:

إنَّ أمر سموّكم لى بالعودة إلى عملى هو تقدير شخصىّ لى ، أعتزُّ وأفخر به ، وسوف يذكره أبنائى من بعدى ، وماأعتمد من مبلغ هو هدية قيِّمة من سموّكم لأشقائكم فى جنوب السودان ، كذلك أعربت عن شكرى فى مقابلتى لسمّو ولي العهد ، لكننى أضفت مطلباً آخر رأيت أن يتم تنفيذه هذه المرة من المال الخاص لسمُوِّه .

فسألني كعادته :

ــ وما ذاك ؟

ــ قلت : ــ

هناك مواطنون مسلمون يقيمون فى منطقة تسمى جبل (لادو) فى جنوب السودان يبلغ تعدادهم نحو ستين ألف نسمة ، وكانوا قد أوفدوا إلىّ مشايخهم وأبلغونى أنه لايوجد فى منطقتهم مدرسة ولامصحة ولامسجد صغير يؤدون فيه الصلاة ، وأنهم يأملون أن ينفذ لهم مكتب الكويت مشروعاً صغيراً فى منطقتهم ، وبما أني فى مجلس سموّكم فإننى أتمنى تمويل هذا المشروع من مالكم الخاص .

ــ فقال على الفور:

ــ وكم تقدر لهذا المشروع ؟

فكّرت لحظات ، فلم أكن قد زرت تلك المنطقة ــ لأن الطريق إليها وعرــ رغم أنها لاتبعد عن جوبا أكثر من خمسين كيلومتراً ، وذكرت رقماً تقديرياً يكفى لبناء مدرسة صغيرة ومستوصف صغير ومسجد صغير .

ــ رفع سماعة التليفون وتحدث مع مدير مكتبه وسمعته يقول :

ــ اكتبوا لعبد الله شيكاً بخمسين ألف دينار . .

صرفْت الشّيك وحوّلته إلى دولارات ثم إلى جنيهات سودانية وأودعت المبلغ باسم سموه فى حسابات المكتب .

كما سلمنى الشيخ فهد الأحمد الجابر الصباح مبلغ عشرين ألف دينار لبناء مسجد فى إحدى مدن الجنوب ، وقد تم إنشاؤه فى مدينة يامبيو (غرب الإستوائية) عام ١٩٨٢ .

الفصل الثامن

أفراح .. وأتراح

فى حياة كلِّ إنسان مواقف تبعث على السعادة وأخرى تثير الأحزان، وهذا أمر طبيعى يتفق مع سُنة الحياة، وبقدرماتكون لحظات الفرح مليئة بالسعادة بقدرماتكون لحظات الحزن مفعمة بالأسى، وكان من الطبيعى خلال سنوات متصلة أن أواجه أثناء إقامتى فى جنوب السودان مواقف مفرحة وأخرى محزنة، فَمِمّا سرّنى وأدخل البهجة فى نفسى أن أحصل على وسام، ثم بعد سنوات تمنحنى جامعة جوبا درجة الدكتوراه الفخرية مع أساتذة أجلاء ورجال سياسة لهم دور فى صياغة وتحقيق السلام فى بلادهم، وأن تختارنى بلادى سفيراً لها فى الخرطوم، وأن تقيم لى كلّ الأندية الرياضية هناك (ثمانية أندية) مهرجاناً رياضياً كبيراً شاركت فيه بكل فرقها، وحضره جمهور ضاقت به مدرجات وساحات الملعب، وعلى رأسهم حاكم الإقليم وحكومته، فهذه كلها أمور أحتسبها علامات نجاح فى ظروف صعبة تطلبت قدرة على التحمل، ورؤية الجانب الطَّيب من الأشياء، والتغاضى عن مشاعر الجحود والنكران من البعض، وكان ذلك أفضل السبل لمواجهة هذه الظروف. ومن جانب آخر كانت الحياة تأخذ ولاأرى فيها إلاّالأحزان، وذلك عندما تلقيت نبأ وفاة والدتى، ثم بعدها بعامين وفاة والدة زوجتى، وهي بمثابة أمى الثانية، ومواجهتى وأسرتى لمواقف حرجة بسبب سوء المواصلات ورحلة نيروبى ثم رحلة جوبا الخرطوم ونحن معلقون بين السماء والأرض ولاأعرف مصيرى ومصير أبنائى فى طائرات تثير الفزع، وفى النهاية، هذه هي الحياة بأفراحها وأحزانها.. كلمات وجدت نفسى أسطرها قبل أن أعود إلى تفاصيل بعضها.

الأفراح :

١ ـ أن أُمنح اسم مدينة فى مناسبة رسمية عام٧٦ ليس بالأمر الهيِّن ، وبذا أكون أول كويتى ، إن لم أكن أول عربى ، يلقب رسمياً باسم مدينة ليست فى وطنه الأصلى ، لذا فإنى أشعر بسعادة غامرة عندما أنَادَى (عبدالله جوبا) .

٢ ـ أن أمْنَحَ وساماً وأنا لاأزال فى مهمتى هو تقدير كبير، ذلك لأن مثل هذه الأوسمة ، تُمْنح عادة لمن يغادر مودعاً وقد قدم خدمات جليلة خلال فترة إقامته .

٣ ـ أن تمنحنى جامعة جوبا(١) درجة الدكتوراة الفخرية فى الآداب فى ١٥ديسمبر (كانون ثان) ١٩٨١ ، شىء يبعث السرور فى النفس ، ذلك لأنها مؤسسة علمية لاتمنح مثل هذه الدرجة إلابعد تدقيق وتمحيص شديدين ، شأنها فى ذلك شأن أيّ مؤسسة علمية .. فقد كانت تعد للإحتفال بمناسبة تخريج أول دفعة من طلابها ، ورأت إدارة الجامعة أن تمنح درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب لعدد من السياسيين الذين أسهموا فى تحقيق السلام ، ووقّعوا إتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢ .. فتقدم مدير جامعة جوبا البروفيسور عبدالرحمن أبوزيد باقتراح لمجلس أساتذة الجامعة ، بأن يشملنى ذلك التكريم فى تلك المناسبة ، فأجاز المجلس بالإجماع منحى شهادة الدكتوراه الفخرية فى الآداب ، ولقد قام بتزكيتى لدى الجامعة عدد من الأصدقاء ، على رأسهم اللواء عبدالله محمد عواض قائد الفرقة الأولى فى جوبا . وفى المساء حضر إلى بيتى البروفيسور أبوزيد واللواء عواض ، هنّآنى وأبلغانى أنني أحد الذين ستكرمهم الجامعة غداً فى يوم التخريج ، وأقيم الاحتفال الذى شهده المرحوم البروفيسور النذير دفع الله وزير التربية والتعليم وآلاف من أبناء الجنوب ، وتحولت ساحة الجامعة إلى مهرجان كبير، والفرحة تملأ قلوبهم وهم يرون أبناءهم يتخرجون من جامعتهم لأول مرة بعد سلام قد تحقق ، وأصبح هذا

---

(١) أنشئت عام ١٩٧٧ وبها عدة كليات .

الصرح العلمى شاهداً على ذلك، ووجدت نفسى بين إخوة سياسيين وأساتذة من جامِعتَيْ الخرطوم وجوبا، أرتدى معهم (الروب الجامعى) وأنا بملابسى الكويتية.

ومن الذين حصلوا معى على درجة الدكتوراه الفخرية: ــ هلرى باولو لوجالي، بيتر جات كوت، أبيل الير، وجوزيف لاجو، وهم من السياسيين الجنوبيين، ومن الأساتذة: ــ البروفيسور محمد عمر بشير، والمناضل ولسون مانديلا الأفريقى المعتقل فى سجون جنوب أفريقيا، وتسلمها بالنيابة عنه سفير تنزانيا بالخرطوم، وكذلك السيد/سر الختم خليفة رئيس وزراء سابق خدم كثيرا فى الجنوب وقد اعتبرت هذا التكريم تكريماً لشعب الكويت، ووفاءً من السودان لما قدمه مكتب الكويت من خدمات ومشروعات فى ذلك الجزء النائى من وطننا العربى، وقد كان لذلك ردود فعل إيجابية فى الصحافة الكويتية التى أشادت بمبادرة جامعة جوبا.

٤ــ أن تقيم الأندية الرياضية مهرجاناً رياضياً كبيراً وتقدم كأساً باسمي تتبارى على الفوز فيه كل فرقها، أمر أجله وأقدّره.

٥ــ وأن يقول أحد المسئولين(١) أمام جمع غفير وبدون حضورى: إنه من لم يعرف منكم العرب أو لم يسمع عنهم، فليذهب ويقابل عبدالله، وبهذا يكون عرف كل العرب... شهادة أعتَز بها.

٦ــ وفى أكتوبر عام ١٩٨٢ دعانى محافظ شرق الإستوائية السيد كاجوك لزيارة مدينة توريت مقر المحافظ التى تبعد عن جوبا بحوالى ثمانين كيلومتراً.

وهناك أُجري لى إستقبال رسمى وأقيمت احتفالات شعبية بهذه المناسبة، رقصت فيها مع الأهالى، لأنه عادة عندما يقام لضيف رقصات شعبية على إيقاعات الطبول، فإن على الضيف أن يجامل ويدخل الحلبة معهم ولو لدقيقة واحدة، وما إن نزلت وسطهم حتى ربطوا حول وسطي جلد قرد، ووضعوا بيدى حربة طويلة ورحت أدور معهم (وأنط) كما ينطّون وأضرب بقدميَّ الأرض كما

(١) اللواء روبن مايك مدير شرطة الإقليم الجنوبى ١٩٧٩م.

يفعلون ، فاقْتَرَبَتْ مني سيدة عجوز بيدها إناء فيه دقيق أبيض (طحين) ، ملأت كف يدها وراحت تطوف به على رأسي ووجهي وحول رقبتي ، وبما أن جسمي مبتل (عرقان) فقد لصق الدقيق به على الفور، ولم تظهر إلاعيناي وسط تصفيق الأهالي ، لأن هذا يعتبر تكريماً للضيف الذى نزل وشاركهم حفلهم .

تحدثت فى حفل الإستقبال وقلت : ــ بما أنني ضيفكم ولمدة يومين فإن أى إمرأة تلد فى مستشفى توريت سأمنح طفلها خمسين جنيهاً .

وشاء الله أن تلد ثلاث سيدات ؛ إحداهن أنجبت توءما ؛ ولد وبنت ، وأخرى أنجبت طفلة ، والأخيرة أنجبت ولداً ، وهي زوجة لعميد شرطة سابق متقاعد اسمه السيد ديسان من أهالى المنطقة ويشغل الآن وظيفة قاضٍ فى مدينة توريت ، سمى وليده «عبدالله السريع» وسجله فى شهادة ميلاده تكريماً لى بمناسبة زيارتي لمنطقتهم وليؤكد عبر هذه التسمية عن محبة وإمتنان وإعتزاز الجنوبيين لما تقدمه دولة الكويت من خدمات لهم .

لا أدرى إن كنت سأعيش لأرى هذا الطفل رجلاً . ولكن إذا حصل وزار هو الكويت فليتذكر أهلى ، عندما يرون اسمه مطابقاً لاسمى ، حياتى التى أمضيتها فى جنوب السودان .

٧ــ وكذلك اللواء قسم الله عبدالله رصاص رئيس المجلس التنفيذى الانتقالى للإقليم الجنوبى عام٨٢ ، بعد أن قام بوضع حجر الأساس لمشروع القرية السكنية ، قال إنّه لو كان رئيساً منتخباً وليس معيناً بصفة مؤقتة لأطلق اسمى على أحد ميادين جوبا .

٨ــ وأيضا المهندس جوزيف طمبره حاكم الإقليم ، بعد أن أقام لى حفل عشاء رسميا ليلة مغادرتى ، حضر كذلك فى صباح اليوم التالى إلى المطار لوداعى ومعه المحافظ وبعض أعضاء حكومته وجمع غفير من الأصدقاء وكبار ضباط القوات المسلحة ، وانتظروا جميعاً حتى إقلاع الطائرة ، أمر يشدنى إلى السودان وإلى ذلك الجزء منه .

٩ــ وأن يقول لى نميرى يوم تقديم أوراقى له سفيراً : ــ إنك أصبحت جزءاً من تاريخ جنوب السودان الحديث ، وإنَّ أيّ مؤرخ يكتب عن الجنوب بعد إتفاقية الوحدة عام ٧٢ ، ولايذكرك ، يكون قد جهل دورك وماقدمته أنت و بلدك هناك .

هكذا عبّر الشعب السودانى عن تقديره لمن تحمّل وصبر وعمل معهم مخلصاً .

ومن الكويت

١ــ أن يطلب مني جابر الأحمد العودة إلى عملى .. تكريم مابعده تكريم ، وفضل لن أنساه .

٢ــ وأن يكتب لى سعد العبد الله شيكاً باسمى وليس باسم أي جهة رسمية .. ثقة أتمنى دائماً أن أكون أهلاً لها .

٣ــ وأن يتوج صباح الأحمد جهودى باختيارى سفيراً بوزارة الخارجية ثم سفيراً لحضرة صاحب السمّو الأمير لدى رئيس جمهور ية السودان الديمقراطية .. شرف يطمح له كل مواطن مخلص ، وهو دليل على أن الوطن يعطي بقدرمايقدم المواطن له .

هذا بعض ما أردت ذكره عن أهلى ، أماالكثير الكثير فصعب حصره ، وأذكر فى هذه المناسبة أن وزيراً كويتياً سألنى لماذا كل هذا الحب للسودان ؟ .. قلت : لأني أحب الكويت .

* * * * *

أحزان ومعاناة :

ومن الأحزان المفجعة أن يتوفى الله والدتى فى ٥يناير ١٩٨١ ، وذلك عندما حضر لى محافظ جوبا السيد فانانسيو وقال :ــ

ــ والدتك مريضة ، وأنا أنصحك أن تسافر إلى الكويت لتطمئن عليها . ودهشت ، فهل تلقَّى المحافظ معلومات تدعوه إلى هذا القول ، بينما لم أتلق أنا أية رسائل من الكويت ، لاعن طريق البريد أو السفارة أو الهيئة ، ولوهلة قدرت أن

مرض والدتى ليس خطيراً، وإلاّفإن الهيئة فى الكويت كانت ستخطرنى بأسلوب أسرع من ذلك.

ولم يطل التفكير كثيراً حيث رنَّ جرس الهاتف، وكان المتحدث أحد ضباط الجيش من أصدقائى، وقال بلهجة عسكرية وبدون مقدمات: البركة فيكم ياعبدالله فقد تلقيت إشارة الآن من العميد عباس عبدالعال فى الخرطوم، يفيد فيها أن والدتكم توفاها الله، وقد حجزنا لك مقعداً على الطائرة السودانية لتسافر بعد غدٍ إلى الخرطوم.

كانت الساعة هي السابعة مساء عندما جاءنى هذا النبأ المفجع، وكان المحافظ لايزال جالساً معى، حين دخل علينا العميد محمد عبدالعزيز مدير أمن الإقليم، فقال له المحافظ: عزِّي عبدالله، ثم دخل علينا السيد بونا ملوال وعلم بالأمر، فتناول ورقة وقلماً وكتب عليها نعياً باسم الحكومة الإقليمية، واستدعى السائق ليحمل الرسالة إلى مدير الإذاعة فى منزله ليذاع النعي فى نشرة أخبار الساعة السابعة صباحاً. وبعد إذاعة النبأ امتلأ البيت بكل المسئولين بما فيهم السيد أبيل الير، وكذلك بالعديد من المواطنين، فبقى المسئولون والمواطنون معى طوال اليوم حتى منتصف الليل وقالوا: ــ لاتظن أننا لانشعر أنك تعب ومرهق وتحتاج إلى الراحة، ولكننا تعمدنا أن نمكث معك الى هذا الوقت حتى ينالك التعب، لتذهب إلى فراشك وتنام فوراً دون أن تفكر فى والدتك، فنحن هنا إخوتك وأهلك.

كانت مواساة أكثر من طيِّبة.

سافرت إلى الخرطوم، وفى تقديرى أن والدتى توفيت أمس فقط، وكنت حريصاً على السفر إلى الكويت بأسرع ماأستطيع، وعند سلم الطائرة فى الخرطوم استقبلنى أحد مديرى الخطوط السودانية، واللواء يوسف أحمد يوسف، والعميد عباس عبدالعال، وكانوا من أصدقائى الذين تعرفت عليهم فى جوبا، رافقونى إلى فندق الهيلتون.

وكان عليَّ أن أبقى يومين حتى تقلع الطائرة المتوجهة إلى الكويت ، وخلال هذين اليومين ظل هؤلاء معى لم ينقطعوا عن زيارتى إلى أن ودعونى فى المطار متوجها الى الكويت ، ولم ألتق بأحد غيرهم . عندما وصلت ، علمت أن والدتى قد توفيت يوم ٥ يناير (كانون ثان) أي منذ تسعة أيام ، فتضاعف الحزن عندى ... فهكذا تشاء الأقدار ألاَّ أرى والدتى قبل وفاتها ، ولا أشارك فى تشييع جثمانها إلى مقره الأخير، ولا أكون فى مقدمة المستقبلين لتقبل العزاء خلال الأيام الثلاثة التقليدية الأولى ، رحمها الله .

عدت بعد فترة إلى مقر عملى فى جوبا .

وتمضى الأيام ..

وفى صيف عام ١٩٨٢م جاءت زوجتى وأبنائى من الكويت كعادتهم لقضاء عطلة الدراسة الصيفية معى فى جوبا ، فطلبت من الهيئة إجازة لمدة أسبوعين وسافرت معهم إلى نيروبى بالطائرة لقضاء الإجازة هناك ، أقمنا فى نيروبى خمسة أيام استمتعنا فيها كثيراً ، فالشعب الكينى يعامل الأجانب معاملةً حسنةً ، ثم أخذنا القطار إلى ممباسا .. فى اليوم الأول لوصولنا ، أصيب أحد أبنائى بالملاريا ، أعقبته زوجتى ثم بقية أفراد الأسرة وأنا من بينهم ، باستثناء واحد لم يصب ، وأثناء ذلك جرت فى كينيا محاولة إنقلابية للإطاحة بالرئيس الكينى أراب موى ، وكنا نتابع أخبار هذا الانقلاب ونحن فى ممباسا كأننا فى بلد آخر ، فقد كانت ممباسا تبدو كأن الأمر لا يعنيها لبعدها عن العاصمة ، فالحياة فيها عادية تماماً إلا من قلق يبدو على الوجوه . وتأتى الأنباء من نيروبى بأنها مغلقة وتسودها الفوضى وتتعرض فيها المحلات التجارية للسرقة والنهب .

أمضينا فى ممباسا أربعة أيام قضيناها بين الفندق والمستشفى ، كان علينا أن نعود إلى جوبا عن طريق نيروبى ، فتوجهت إلى مكتب الخطوط الكينية ، وفى مكتب الحجز نسيت ذلك المفعول السحرى ، فلم أعط موظفة الحجز أيَّ مبلغ من المال كما هو متبع عادةً لتسهيل الأمور وخاصة فى ظروف كهذه ، ولم ينبهنى عبدالكريم عكاشة الذى كان برفقتنا ، فكانت النتيجة وبالا علينا ، فعندما

توجهت إلى المطار ومعى عائلتى ــ التى لا زالت تعانى من الملاريا وخاصة ابنتى التى كانت ترتجف على مقعدها ــ لم أجد أسماءنا فى كشف الرحلة المقرر أن نسافر عليها، ولم يحفل بنا أحد والناس تتسابق للسفر إلى نيروبى، وذهبت محاولاتنا عبثاً للسفر على تلك الطائرة، وبقينا فى المطار نتدبر أمرنا، وحاول عكاشة أن يفعل شيئاً، فذهب إلى مدير المطار وتحدث معه وأفهمه ظروفنا، وأنَّ ستة منَّا مصابون بالملاريا، فتعاطف الرجل معنا وقام بجميل لا زلت أحمله له؛ فقد أدخلنا الصالون المخصص لكبار الزوار وسمح لنا أن نتناول طعامنا وشرابنا كما نشاء، ووعد بأن يحجز لنا على الطائرة القادمة من أديس أبابا عبر ممباسا إلى نيروبى، وظللنا طوال اليوم من الساعة العاشرة صباحاً حتى الخامسة بعد الظهر، إلى أن جاءت الطائرة وقد تأخرت ساعتين عن موعدها.

ركبنا الطائرة، وقبل المغادرة وضعت فى يد مدير المطار مبلغاً من المال تقديراً شخصياً مني له حيث كان مهتماً بأمرنا للغاية، واقفاً على راحتنا طوال فترة الانتظار، فاعتذر عن استلام المبلغ، وقال إنَّ ما قدمه لنا هو واجب عليه وخاصة فى مثل هذه الظروف، فشكرته وشكرت عبره كل الشعب الكينى على هذه المعاملة الطيبة النبيلة.

وصلنا نيروبى فى المساء، وكانت المدينة وقتها تواجه حالة حظر تجول بسبب الأحداث الطارئة، باستثناء سيارات الإسعاف والسيارات العسكرية، فتم حجزنا بالمطار، وكان عدد المسافرين على هذه الطائرة نحو ثمانين راكباً؛ منهم عشرون أوربياً وسُعُودِّيان. وبعد ثلاث ساعات أحضروا لنا باصين تحرسهما سيارات عسكرية، وتسابق الركاب نحوهما، فالكل فى حالة إعياء وإرهاق، ويحلم بكيفية الوصول إلى الفندق الذى حجز فيه مسبقاً، وتحرك الباصان وسط حراسة ثماني سيارات جيب عسكرية محملة بالجنود المدججين بالسلاح؛ أربع تسير أمامهما وأربع أخرى خلفهما، وكل ثلاثة كيلومترات يتوقف الموكب عند نقاط التفتيش، فالمسافة بين المطار والمدينة نحو اثنى عشر كيلومترا، والوقت ليل والجو خارج السيارة شديد الظلمة، فنحن هكذا مكشوفون ويمكن أن نكون هدفاً سهلاً للمتمردين، سيطرت عليَّ هذه الفكرة وأنا أجلس تحت لمبة الضوء قرب النافذة الزجاجية،

وبجوارى زوجتى وطفلان من أبنائى واثنان على الجانب الآخر، وبالقرب مني المواطنان السعوديان يتحدثان فيما بينهما و يرددان: ـ متى نصل فى هذا الظلام.. السيارات تسير ببطء شديد.. ماذا نفعل لووجِّهت نحونا قنبلة أورصاصة... الله لايبارك فى هذا السَّواق الذى ترك ضوء «الأوتبيس» الداخلى مضاء، فأصبحنا **مكشوفين للذين فى الخارج، طوال ساعة تقريبا وهما فى حالة قلق** وخوف، والحقيقة أنهما لم يكونا وحدهما، فالكل يتملكه الخوف، وأنا أحاول أن أتظاهر باللامبالاة أمام زوجتى وأولادى، فأبتسم لهم بين الحين والآخر، وتارة أتظاهر بالنوم أوأسند رأسى على زجاج النافذة، وقد جعلت من ذراعى حاجزاً بين رأسى والنافذة، لأوهم زوجتى وأولادى أنني غير مكترث، ولكن الحقيقة أنني لم أكن أقصد إسناد رأسى للنوم، ولكنى كنت أتوقع أن تنطلق رصاصة من الخارج وتخترق الزجاج فتصيب رأسى، لذا أضع ذراعى عَلَّ الرصاصة تصيبه وتستقر به وتفتته إن شاءت، خير من أن تخترق رأسى، وكنت أكرر وضع ذراعى كثيراً خاصة عندما يتوقف الموكب للتفتيش وسط ذلك الظلام الدامس.

القلق يتزايد، وتسيطر على الجميع حالة وجوم وصمت.. الجو بارد والدنيا ظلام، ولا توجد أيُّ سيارة أوحركة على الطريق غير موكبنا الذى يبعث على الرهبة.

هكذا أمضينا أكثر من ساعة إرتعدت فيها مفاصلنا، حتى دخلنا أطراف المدينة فى حوالى الساعة الحادية عشرة مساء، حيث بدأ القلق يتبدد وبدأ الركاب يتجاذبون أطراف الحديث مع بعضهم البعض بعد أن كان الصمت هو السائد، وكان الباصان وسط هذه الحراسة المسلحة، والموكب يمضي فى شوارع المدينة يثير استطلاع الناس فى مساكنهم، حيث راحوا يفتحون النوافذ و يتطلعون نحونا، ولا شك أنَّهم كانوا ينظرون إلينا بإشفاق، فقد كان وضعنا وسط هذه السيارات المسلحة كما لو كنا هاربين وألقي علينا القبض أومجموعة من المتمردين سقطوا فى كمين، ولم يكن أحد منا يعرف إلى أين نحن ذاهبون، حتى مدير الخطوط الكينية الذى كان يرافقنا لم يقل لنا شيئاً، وبعد تجوال استغرق نحو ربع ساعة فى شوارع المدينة **توقف الموكب أمام فندق (بان أفريكا هوتيل) وطلب من الجميع النزول،**

فأدركنا أننا سنبيت فى هذا الفندق .. وكان من الواضح أن السلطات قد نقلت كل النزلاء الذين كانوا فيه أو أكثرهم وخصصوه لنا نحن القادمين من ممباسا، بينما كان كل واحد منا قد حجز فى فندق آخر. وعندما طلب منا النزول اعترضت واحدة من الركاب وهي عجوز أوربية، كانت تجلس غير بعيدة منا، وقالت إنها قد حجزت فى الهيلتون وزوجها ينتظرها هناك، فرد عليها أحد حاملى السلاح بأن عليها أن تنزل وألاّ تكثر من الكلام، فلم يكن أمامها إلا السمع والطاعة.

بتنا هذه الليلة فى هذا الفندق بعد أن تعشى من تعشى فى ضيافة الخطوط الكينية، وفى الصباح خرجت فى الساعة السابعة ولم تكن المدينة قد استيقظت بعد، فالعمل يبدأ فى التاسعة ورحت أتجول أمام مدخل الفندق فى انتظار تاكسى لنذهب أنا وعبدالكريم إلى مطار ويلسون[1] كى نستأجر طائرة صغيرة خاصة نذهب بها إلى جوبا .. ظللنا نحو ساعتين حتى استطعنا أن نجد تاكسياً وركبناه وتوجهنا إلى المدينة بقصد الذهاب إلى السفارتين السودانية والكويتية .. فى الطريق شاهدنا زجاج واجهات المحلات التجارية وقد تحطمت، وكان من الواضح أن أسواق المدينة قد تعرضت لحالة من الفوضى والنهب.

لم يكن أحد من موظفى السفارة الكويتية أو السودانية قد وصل بعد، فتوجهنا إلى مطار ويلسون حيث لم يكن قد سمح للطائرات المدنية بالنزول فى مطار نيروبي الدولي ولازالت حالة حظر التجول سائدة رغم أن أراب موى عاد الى السلطة وأحبط الإنقلاب.

وبعد جهد، أبدى أحد مكاتب شركات (التاكسى) الجوى موافقته على نقلنا إلى جوبا فى طائرة تتسع لسبعة ركاب، ولكن بشرط أن تحمل إذناً رسمياً بالهبوط فى المطار الذى تتوجه إليه .. فطلبوا مني هذا الإذن من السفارة السودانية، فأبلغتهم بأني سأحضره بعد ساعة ونصف وعليهم أن يقوموا بإعداد الطائرة وتجهيزها، كانت أوراق إذن السماح للطائرة بالهبوط موجودة لديهم ولا تحتاج

---

(١) مطار خاص بهبوط وإقلاع ووقوف الطائرات الصغيرة والتى يمكن لأي شخص أن يستأجر منها فى أي وقت.

إلا إلى ختم السفارة السودانية وتوقيع المسئول عليها ، ولكن قائد الطائرة استخف بكلامى عندما طلبت منه أن يعد الطائرة ، وقال : ــ إن هذا الإذن يحتاج إلى أسبوع لأنهم فى السفارة يقومون بإرسال تلكس بأسماء الركاب والطيار إلى الخرطوم ، وتنتظر السفارة أياماً حتى يأتيها الرد بالموافقة ، ولو كان لديهم حظ طيب يأخذ الإذن خمسة أيام، قلت : ــ أنت عليك أن تعد الطائرة الآن وأنا سأعود إليك بالإذن وباقى أفراد العائلة بعد أقل من ساعتين ، لم يصدق كلامى وظل جالساً فى مكتبه وتوجهت إلى السفارة السودانية ، ووجدت القنصل أبوبكر الذى لم يتأخر فى تصديق أوراق الإذن الخاص بالطائرة ، فقام بتوقيعها وختمها ونحن نتناول الشاى معه ، حملت الإذن وتوجهت إلى الفندق وأخذت زوجتى وأولادى الذين كان معظمهم لا زال يعانى من ذلك المرض ، لم يصدق المسئولون بمكتب شركة التاكسى الجوى أننى أنهيت الإجراءات الخاصة بإذن السماح للطائرة بالهبوط فى مطار جوبا ، واتصلوا بالسفارة السودانية ليتأكدوا أن التوقيعات والختم على الإذن صحيحة ، وهنا فقط بدأوا يُعِدُّون الطائرة للإقلاع ، وقائد الطائرة يقول لى إنه يعمل على هذا الخط بين جوبا ونيروبى منذ عشرة أعوام ، ولم يحدث أبداً لأحد أن حصل على إذن الهبوط للطائرة فى مطار جوبا فى ساعة واحدة ، فأجبته : ــ لأن المسئولين فى السفارة يعتبروننى مواطناً سودانياً لذلك لم يؤخروا التصديق .

ركبنا الطائرة ، وبدأت المحركات تدور، وظلت تسير على مدرج المطار مسافةً طويلةً ، كما لو كانت طائرة كبيرة قبل أن تقلع ، وقال الطيار نأمل ألاّ يحدث شىء فى الطائرة لأنها ثقيلة جداً ، وعند سماعى هذه الجملة وضعت يدى على قلبى ، ودعوت الله مخلصاً أن نصل سالمين من أجل هذه الأسرة التى أتحمل مسئوليتها . إنها ليست المرة الأولى التى أسافر فيها من نيروبى إلى جوبا على طائرة صغيرة كهذه ، فقد سافرت قبلها عدة مرّات وعلى طائرة ذات محرك واحد لا تتسع إلا لراكب واحد مع قائدها ، ولم أشعر بخوف ، أما فى هذه المرة وبعد الذى سمعته من (الكابتن) ، فقد تغير الموقف ، ذلك لأن معى تقريباً كل أفراد أسرتى .. هنا فعلاً شعرت بقلبى يهبط إلى أسفل بطنى أكثر مما كنت أشعر به وأنا راكب فى الباص من مطار نيروبى إلى داخل المدينة .. لأنه فى الباص قد يصاب واحد منا

أو اثنان ، أمّا لو حدث مكروه لهذه الطائرة فالله يرحمنا جميعنا .. هكذا كان شعورى إلى أن بدأ (الكابتن) يتحدث معى وهو يبتسم ، بعد أن عبرنا الأجواء الكينية ودخلنا الأجواء السودانية حيث نقص الوقود الذى استهلكته الرحلة ، حتى قطعنا هذه المسافة فَخَفَّ وزن الطائرة وبدأت تحلق إعتيادياً ، ولما هبطنا مطار جوبا ، صليت ركعتين ثم صمت يومين متتاليين عرفاناً بفضل الله علينا .

كان علينا أن نبدأ الرحلة الثانية ونسافر إلىٰ الخرطوم ، فقد كنا فى يوم ١٥ أغسطس وعلى الأولاد أن يكونوا فى الكويت فى أول سبتمبر، حيث تبدأ الدراسة . والرحلات بين جوبا والخرطوم متوقفة لوجود نقص فى وقود الطائرات ، ولا أحد يعلم متى تأتى الطائرة من الخرطوم ، وعن طريق إحدى شركات التاكسى الجوي علمت أن طائرة صغيرة سوف تصل إلى جوبا بعد يومين من الخرطوم وتعود فى نفس اليوم ، فطلبت حجزها كاملة فهي تتسع لسبعة ركاب .

وبعد يومين بدأنا رحلة عذاب أخرى على تلك الطائرة الصغيرة التى تقطع المسافة بين جوبا والخرطوم فى أربع ساعات ونصف الساعة ، بينما تقطعها الطائرة العادية فى أقل من ساعتين . كانت حالة أولادى فى الطائرة تدعو إلى الرثاء ، فهي وسط ظروف جوية غير عادية ، وضباب وأمطار ومطبات هوائية ، وكلما تتأرجح الطائرة فى أحد هذه المطبات يتصاعد الصراخ لشعورهم كما لوكانت تهوى بهم إلى الأرض ، وعليَّ أن أكون رابط الجأش وأن أهدىء من روعهم وهم يكتمون خوفهم مرة ولا يقدرون مرات ، ذلك أنهم يتعاملون معى كما أتعامل معهم فى منتهى الإحترام ، وكان الطفل الصغير ذو الأربعة أعوام قد انعكست عليه الحالة بشكل مغاير عن بقية إخوته ، مما جعلنى أشفق عليه أكثر، فحالته مصدر ألم لى ولوالدته ، فكلما تهبط الطائرة فى مطب هوائى لم يكن يصرخ وإنما يتغير لون وجهه وتَزْرَق شفتاه ، مما سبب الكثير من التعب لوالدته التى راحت تعتنى به كطفل فى سنته الأولى حيث لا توجد بالطائرة منافع صحية . وبعد ساعة من الإقلاع سيطر الوجوم على الجميع ، ولم يكن أمامى إلاَّ أن أتماسك وأترك الأمر لله . وبين وقت وآخر أبدد الصمت المخيم على الأسرة بكلمات ، وأشجعهم على رؤية المناظر الأرضية التى تبدو من نافذة الطائرة ، وبين الفينة والأخرى أنظر إلى ساعتى التى

أشعر مع بطء الوقت كما لو كان الزمن قد توقف. وبعد ساعات مضنية كأنها الدهر اقتربت الطائرة من مطار الخرطوم، وبدأت تظهر لنا معالمها، فاستعاد أولادى معنوياتهم وبدأوا يتحدثون. فبعد قليل ستهبط الطائرة، وينتهى هذا الكابوس الثقيل، وراح الطيار يهبط تدريجياً، فبعد دقائق ستحط الطائرة على مدرجها، وعلى غير ما كنا نتوقع عادت الطائرة ترتفع من جديد فعاد إلينا القلق، وسألت (الكابتن) ماذا حدث وهل هناك سبب جعله يرتفع ثانية؟ فقال إنه تلقى تعليمات من المطار بأن ينتظر فى الجو لمدة نصف ساعة، لأن الرئيس نميرى ستقلع طائرته بعد قليل إلى القاهرة.

أيُّ منطق هذا؟!!!

وهل أرواح الناس رخيصة إلى هذا الحد؟ وهل يعلم الرئيس بهذا الإجراء الغريب..؟ كان ذلك رد الفعل السريع لديَّ، ولمحت من النافذة عدداً من الطائرات، كبيرة وصغيرة وهي تحلق فى الجوبلا هدف، سبع طائرات فى الجو؛ فوق المطار، طائرتان كبيرتان وخمس صغار. وعاد أبنائى إلى وجومهم، وأصغرهم إلى حالته الأولى زرقةً وسواداً فى الشفتين، وانتابنى الخوف من أن ينفد وقود الطائرة أو أن تصطدم الطائرات فى الجو على هذا النحو.

وأقولها صراحة، إني لا أجد فى هذا الإجراء أيَّ نوع من الحكمة، فماذا كان يمكن أن يحدث للرئيس لو أن الطائرات هبطت؟ إن هذا ظلم!!! فى هذه الطائرات عشرات من الناس قد يكون من بينهم المريض أو الطفل الصغير أو المرأة الحامل، ألم يكن هناك إجراء آخر كأن تهبط الطائرات فى مكان بعيد عن طائرة الرئيس!!! وحجز الركاب داخل قاعات المطار بدلاً من حجزهم فى الجو حيث احتمال الأخطار أكبر، نصف ساعة هكذا، وقد تكون طائرات جاءت قبلنا وهناك من ستصل بعدنا، كل هذه الطائرات معلقة بين السماء والأرض، ولا أدرى هل يحدث ذلك كلما سافر الرئيس أم أنّه اتخذ لسوء حظنا، ثم لماذا الخوف على حياة الرئيس من المسافرين، وطالما أن جهاز أمن الدولة يعلم أن الرئيس مسافر أو قادم وهم على علم أيضاً بحركة جدول الطائرات القادمة إلى الخرطوم فى هذا

الوقت. فلماذا لم يتصلوا بتلك الطائرات أن تؤخر إقلاعها من مطاراتها لمدة ساعة أوحتى ساعتين، فخير للركاب الانتظار فى المطار بدلاً من الإنتظار فى الجو؟

مر علينا نصف الساعة أصعب من الساعات التى قطعناها بمشقة فى الرحلة، وجاء الفرج من الله وبدأت الطائرة تهبط، ونزلنا وتنفس أبنائى الصعداء، وكأنَّ الحياة قد كتبت لهم من جديد، وقد أنستهم فرحة الوصول أن يتناولوا الطعام، فالكل ذهب ليستحم وَيُغيِّر ملابسه وينام، فقد كانت رحلة المعاناة من ممباسا إلى نيروبى ومن نيروبى إلى جوبا ومن جوبا إلى الخرطوم فى أيام متتاليات أتمنى ألا يريها الله لأحد كما رأيتها. ولم يفكر أبنائى بعد وصولهم فى مواصلة الرحلة إلى الكويت، فقد أرادوا أن يبقوا أياماً حتى ينسوا مشاق السفر الذى عانوا منه كثيراً.

اسْتَعَدَّت الأسرة للسفر بعد إجازة مليئة بالمتاعب، وسافرت معهم، وكان عليَّ أن أبتعد عن جوبا خلال هذه الفترة بسبب مايسودها من أحداث سياسية لانتخابات يعدون أنفسهم لها.

ومضى عام ١٩٨٢ والعمل مستمر فى مشروع الوحدات السكنية. وفى ذلك العام بَدَأْتُ عملية بناء سكن لى، وقد حرصت على أن أرسم بيدى شكل البيت الذى سوف أسكنه، ووضع المهندس تصميماته على أساس هذا الرسم، وكنت سعيداً بذلك لأنه بعد تسع سنوات من العمل سيكون لى بيت ـ بما تعنيه هذه الكلمة ـ يليق باسم الكويت كدولة. ولكن إحساساً غامضاً سيطر عليَّ بأنني لن أسكنه، ولم أخف مشاعرى الغامضة هذه على موظفى المكتب وخاصة المحاسب الذى كان بمثابة مساعدى، فكنت أقول له: أشعر بأنِّي لن أسكن هذا البيت بعد أن يكتمل، قد أنقل أويتوفانى الله أوأترك العمل.

وكان يوم العاشر من فبراير ١٩٨٤م حين دخل عليّ المحاسب حاملاً البريد، ومعه برقية لم يفتحها، وهو يبتسم بعد أن قَبَّلنى بقوله (مبروك)؛ كانت أنباء البريد تحمل خَبَرَيْن فى وقتٍ واحد؛ أحدهما سار والآخر محزن إلى درجة البكاء، وفى لحظة وجدت أن الحزن قد تغلب على الفرح، عندما فضضت خطابات بريد

ذلك اليوم، أحدهما كان من نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح بتعييني سفيراً فى وزارة الخارجية، وفى رسالة ثانية كتاب من الهيئة يفيد بأن شخصاً آخر سيصل قريباً ليستلم المكتب، أي أن مرحلة عملى بالهيئة قد انتهت.. شعرت بالسعادة الممتزجة بالارتياح لأن الخبر لم يكن مفاجئاً لى ولكن التنفيذ واتخاذ القرار أسعدانى كثيراً، وكان مع البريد برقية فتحتها لأُفاجأ بخبر نزل عليَّ كالصاعقة، وبدّد تلك الفرحة التى استمرت دقائق.. لقد توفى الله والدة زوجتى، فاختلط عليَّ الأمر، ونسيت كل شىء، فهي أمُّ زوجتى، وهي التى شاركت فى تربيتى وتربية أولادى الواحد بعد الآخر، وتخيلت حالة زوجتى فى تلك الساعة بمفردها فى الكويت، وأنا وحدى هنا فى جوبا. كان يوماً غريباً، الموظفون بالمكتب يقدمون لى التهانى بتعييني سفيراً، وفى قلبى حسرة وألم وعيناي تختزنان الدموع حزناً، ووجدتنى فى المساء وحيداً بمنزلى وعلى سريرى أبكي كالطفل.

كان عليَّ أن أسلم المكتب للمدير الجديد الذى لم يصل بعد.

فهل أنتظر وصوله وعندى حالة وفاة، فى حين كان يجب أن أكون بجانب زوجتى أشاركها أحزانها التى هي فى نفس الوقت أحزانى. فسافرت الى الخرطوم وأجريت اتصالاً من السفارة مع الهيئة بالكويت وأبلغتهم أنني قادم، فطلبوا مني أن أنتظر لأن المدير الجديد سيصل على نفس الطائرة المقرر أن أغادر فيها، فرددت أنه عندى حالة وفاة تستدعى حضورى، ويمكن للمدير الجديد أن يتأخر وقد حدث، وعندما وصلت وجدت زوجتى فى حالة نفسية سيئة ليس فقط لأن أمها قد توفيت (فالأعمار بيد الله)، بل ولأن زوجها الذى اقتسمت معه الحياة منذ الطفولة غير موجود معها يواسيها، فكانت آلامها مضاعفة ولم تفصح لى عن مشاعرها، لأنها تعلم أنى فى جوبا.

لقد تركت بلدى مغترباً إلى بلد بعيد لم أشعر فيه مع مرور الوقت بالاغتراب، ولكن هل اغترب الآخرون مثلى هكذا فى مكان يصعب فيه عليهم الاتصال بأهاليهم؟ وهل المواطن الكويتي الذي يعيش فى الدول المتقدمة يعتبر نفسه مغترباً

وهو يستطيع الاتصال بأهله وبمن يريد فى أيّ وقت؟ سيطرت عليَّ مشاعر من هذا النوع فى لحظة حزن، وكان ذلك أمراً طبيعياً حتى لوكانت قاسية على نفسى وعلى الآخرين.

وَدَّعْتُ جوبا فى حفل كبير أقامه حاكم الإقليم الاستوائى فى أواخر فبراير (شباط) عام١٩٨٤، لأعود إلى الخرطوم فى مايو (آيار) من نفس العام سفيراً لبلدى الكويت فى بلدى السودان.

* * * * *

الفصل التاسع

ساندوتشات



إن مدينة جوبا لا توجد بها محطات بنزين كتلك التي توجد عادةً في المدن الكبيرة. وكان على كلٍّ من يريد أن يتزود بوقود لسيارته أن يطلب ذلك من وزارة التجارة الإقليمية أو يشتريه من السّوق المحلي في براميل، وأذكر أنه ذات يوم وبما أنني لم أكن قد اعتدت على طبائع أبناء الإقليم، فقد طلبت من الخفير (الحارس) أن يملأ نصف الصفيحة بنزيناً ويفرغه في السّيارة.

بعد قليل سمعت صوت فأس ومطرقة في فناء المنزل (الحوش)، وكان الوقت ظهيرة، فخرجت لأستطلع الأمر ومصدر الصّوت، فاذا بي أرى الخفير وقد خط بواسطة قطعة من الفحم على نصف جسم الصّفيحة من الخارج، كما لو كان قاسها بشريط السنتيمتر. وراح يقطع بواسطة الفأس والمطرقة هذا الجزء الّذي خطه، وبسؤالي له لماذا؟ أجاب لقد طلبت مني أن أملأ نصف الصّفيحة، فكيف لي أن أعرف أن البنزين قد وصل النّصف مالم أقطعها. !!(1).

* * * * *

ويوماً عدنا من الغابة ومن ضمن الصّيد كان معنا تيتل فطلبت من الطّباخ أن ينظف رأس ذلك الحيوان من اللّحم واللّسان والجلد وكل شيء، ويبقي لي عظم الرّأس (الجمجمة) والقرنين...

وبعد قليل سمعت صوت فأس في فناء المنزل فخرجت لأستطلع الأمر، فإذا بي أرى الطّباخ يستعمل السّاطور لكسر القرنين. وبسؤالي له لماذا يا أخي

(1) إنه ليس غباء بل حرص على تنفيذ التعليمات بدقة.

تكسرهما؟ أجاب ببساطة: «الجلد أبى»[1]، ذلك أنّه سلخ الجلد عن عظم الرّأس وأراد أن يخلعه بواسطة رفعه إلى أعلى كما لو كان إنسان يخلع جلابيته (الدّشداشة) أو امرأة تخلع فستانها، فقد صعب عليه أن يمزق الجلد أو أن يقطعه بالسّكين، وهان عليه أن يكسر القرنين لاعتقاده أنهما ليس أهم من الجلد. فسألته: ــ كيف تعيد القرنين وقد طلبت منك الرأس بقرنيه؟ فأجاب ببرود.. ياهو دا كلام (بمعنى هنا تكمن المشكلة).

* * * * *

ومرةً وبعد الظّهيرة خرجت بسيارتى من المنزل متوجهاً إلى سوق جوبا، إذا بشخص ينادي أبوعبده.. أبوعبده. فأوقفت السيارة فأتى مسرعاً وسأل «ماشي بيوين»؟ (أي: إلى أين أنت ذاهب) أجبت إلى جوبا، ففتح فاَه إلى آخره مندهشاً وقال أيوآ (شدُ ومَدُ واستغراب) كما لو كنت قلت له إنني ذاهب إلى القمر، وأضاف كويس (بمعنى تفضل). طبعاً أدركت أنه مخمور.

* * * * *

وفى ليلة ممطرة أوصلت ــ بسيارتى الجيب ــ صديقاً إلى منزله الّذى يقع فى شارع لا يتّسع لمرور سيارتين فى وقت واحد، ولما كان المطر لا يزال يتساقط خفيفاً فقد كنا رافعين زجاج السّيارة، وبما أن حديثى معه لم ينته فقد توقفنا أمام منزله لنكمله.. إذ بصاحبى يسأل: من الذى (راصّاً) وجهه من خلف الزّجاج؟ فالْتَفَتُّ وأنزلت الزجاج، وسألت الشّخص[2] ماذا يريد؟ فإذا به يقول، وقد رأى لونى فاتحاً: ــ ياكَّواجا[3] دَتَّا قافِلْ شِيكَّهْ تَّاعي (بمعنى: إنني قاطع الطّريق عليه بسبب وقوف سيارتى، فهو يريد أن يعبر الشّارع من شماله إلى يمينه سيراً على قدميه ووقوف السيارة على هذا النحو يعيقه)

---

(١) أي أن الجلد رفض أن يخرج من القرنين.

(٢) مخمور لايستطيع أن يثبت على قدميه.

(٣) لقد اعتاد الأهالى هناك على تسمية كل رجل لونه أبيض أوفاتح بلقب خواجه.

بهدوء أدرت محرك السّيارة ورجعت إلى الخلف مترين ، وأشرت له بيدى بمعنى تفضل ، فإذا به يتقدم نحوى و يقول « سُكراً كواجا » بمعنى شُكراً يا خواجا ، واستمر فى سيره .

* * * * *

تربّى فى حظيرة منزلى غزال حتى كبر وقد ألف الخروج من الحظيرة والرّعى خارج المنزل ، و يعود جارياً إذا ما ضايقه ولحق به أطفال أو رأى كلباً .

وذات صباح أبلغنى الخفير « الحارس » أن الغزال مات . فقلت : — ارمه فى الخارج . وذهبت للمكتب كعادتى ، بعدها لم أر الخفير طوال ذلك اليوم . وجاء فى اليوم التّالى . و بسؤالى له أين كنت ؟ أجاب بأنه شعر بآلام فى معدته فذهب إلى البيت .

وفى تلك الحظيرة إلى جانب الغزال كانت تُوجد أيضاً أغنام ، و بعد حادث الغزال بعشرة أيام إذا بالخفير يقول لى إن نعجة قد ماتت ، رأيتها فإذا هي منتفخة . وهذا يعني أنّها ماتت أول اللّيل . قلت : — ارمها فى الخارج ، ثم غاب الخفير يومين وعاد ليقول : — إنه كان مريضاً بالملاريا .

و بعدها بأيام جاء ليقول إنَّ خروفاً مات ، قلت : — ارمه . وطلبت من السّكرتير بالمكتب أن يتصل بالقسم البيطرى ليجري كشفاً على هذه الحيوانات ، ظناً مني بأن مرضاً قد أصابها ويميتها ببطء . وتسرب الشّك إلى نفسى : لماذا يغيب الخفير عند موت كل حيوان ، فإذا بأحد العاملين بالمنزل يقول إن الخفير يحمل هذه الميتة على كتفيه و يغيب ليحتفل بها وأهله و يشربون مع لحمها المريسه[1] .

إذن تلك الحيوانات لم تمت بل أُميتت لتؤكل ، جاء الخفير بعد ثلاثة أيام معافى تبدو الصّحة واضحةً على ملامحه فسألته لماذا تَغَيَّب ؟ فقال : إنه كان مريضاً .

---

(١) المريسه نوع من المشروبات الكحولية يصنع محلياً في البيوت من الذره . وأي مشروب كحولي آخر في جوبا يطلق عليه اسم مريسه .

قلت أين تذهب بالحيوانات الميتة؟

فتردد، ثم بادرتُه قائلاً: ــ إنني علمتُ أنك تأكلها. فردّ بالإيجاب.

استغربت كيف يأكل جيفةً منتفخةً، فابتسم وقال: ــ إننا نأكل لحم أيِّ حيوان يموت حتى الدّجاجة لو ماتت نأكلها، ولم أجبه بل اكتفيت بأن طلبت منه أن يلحق بي إلى المكتب. وهناك طلبت من المحاسب أن يدفع له استحقاقه ويفصله عن العمل، وسألت كل العاملين وعددهم ثلاثة هل هم أيضاً يأكلون لحم الحيوان الميت؟ فابتسموا.

كيف أتصرف؟

إن حيواناتى كلها ستموت لتؤكل..

فخير إذن أن آكلها أنا. فبدأت أذبح منها على التّوالى، ولكن وعندما انتهت الخراف بدأ الموت يظهر فى الدّجاج والبط، وكما فعلت بالخراف فعلت بهذه أيضاً.

* * * * *

فى آخر عام ١٩٨٠، وبعد أن عدت إلى جوبا وكنت قد أمضيت أكثر من ست سنوات فى جنوب السُّودان، سألت نفسى لماذا لا أكتب ما عشته من تجربةٍ فى الجنوب، وأسجل ما رأيته فى هذه القبائل من عادات وتقاليد، لأعرّف بها القارىء العربى الّذى لا يعرف إلا القليل عن هذا الجزء العزيز من وطنه العربى الكبير.

استغرقت هذه التّجربة معى شهوراً تنقلت خلالها بين مكتبى فى جوبا ومناطق القبائل، ونمت فى الأكواخ وأصبت بالملاريا. إن هذه هي أول مرة يُكْتَبُ فيها عن عادات وتقاليد قبائل جنوب السودان باللّغة العربية، ولكي يكون تحركى بين القبائل مشروعاً حتى لا يثير شبهة، فقد استأذنت السّيد أبيل حاكم الإقليم فوافق.

أعطانى المحافظ مترجماً من قبيلة الباريا، حيث قررت أن أبدأ بها. وركبنا سيارة جيب لاندروفر ومعنا اثنان من رجال الشّرطة والسائق، واخترت أن أكون قائدها وبجانبى المترجم والمهندس حبيب عبدالله فهو مصور جيّد، وقد تزودنا بوقود كاف وبدأنا الرّحلة.

وقبل وصولنا مقر السلطان الذى يبعد عن جوبا بنحو ستين ميلاً ، مررنا بقرية صغيرة شبه مهجورة ، وقبل أن أسأل مرافقى قال : هذه « الِحلّة »[1] كان يسكنها خمسمائة فرد ، مات منهم أربعمائة قبل عام .

وقبل أن أسأله عن السبب واصل حديثه بهدوء وهو يبتسم ، لقد أصيبوا بمرض ذبابة التّسي تسي ... (مرض النّوم) .

إهتزّ بدنى لكنى اجتهدت فى ألاّ أُظهر خوفى مما سمعته ، ورحت أتظاهر مثله بالهدوء ،بينما يدى تمتد براحة لأرفع زجاج نافذة السّيارة رغم حرارة الجو، وعيناي تطوفان فى الداخل ، متمنياً ألاّ تكون تلك الذبابة فيها ، حتى لانقع ضحيتها فى أول رحلة لبرنامج طويل يتطلب منا اليقظة لا النّوم .

وصلنا إلى مقر السلطان ، وهو عبارة عن كوخ كبير وحوله أكواخ صغيرة تسكنها زوجاته وأبناؤه وأقرباؤه ، نزل المترجم واختفى ثم عاد ومعه رجل طويل القامة ، نحيف الجسم ، كبير السّن ، إنه السّلطان (أندريا) الّذى رحب بنا من خلال حديثه مع المترجم وصحبنا إلى كوخ لنبيت فيه هذه اللّيلة ، وعلمنا أن هذا الكوخ يستخدم فصلاً دراسياً وأنه لامكان غيره نبيت فيه ، دخلناه فوجدنا جذوع أشجار متراصة أفقياً وترتفع عن الأرض على قوائم من خشب الشّجر، إنها مقاعد للتلاميذ وبعد قليل أرسل لنا السلطان تيساً لنذبحه ونتعشى به ، أخذه السائق ورجال الشّرطة المرافقون وراحوا يعدون العشاء ، وذهب المرافق (جاد) إلى أهله فى نفس القرية ، وبقيت أنا وحبيب جالسين نتأمل الطّبيعة من حولنا على ضوء القمر؛ الجبال هنا وهناك متناثرة على شكل سلسلة متصلة والقمر يكسوها بلونه الفضى .. والأرض رملية تبدو منبسطة خضراء ، والجو رطب منعش ، الشىء الذى أنسانا عناء الرّحلة ، فرحنا نتحدث عن هذه الطّبيعة الخلابة فى انتظار العشاء ، وإذا بصاحبى يسألنى :ـــ

ـــ ألا تشم رائحة نحاسية ؟

قلت :ـــ

---

(١) القرية .

ـ لا أستبعد أن تكون هذه الجبال من حولنا مملوءة بالنّحاس والحديد ومعادن أخرى لأنها لا تزال أرضا بكراً لم تكتشف بعد.

قال مبتسماً: ـ

ـ لا، ليس الموضوع هكذا، هناك نوع من الأفاعى تفرز مادة لها رائحة كرائحة النّحاس.

كان كل منا يجلس على مقعد خشبى، وما إنْ أتمّ حديثه حتى وجدتني بحركة لاشعورية أرفع قدميّ عن الأرض وأجلس القرفصاء على المقعد، ورحت أتابع حديثه وهو يقول:

ـ إن هذا النّوع من الأفاعى بالإضافة إلى أنها سامة، فهى تفرز تلك المادة ذات الرّائحة النّحاسية، وهذا لطف من اللّه كي يتجنبها الحفاة من النّاس عندما يشمون تلك الرائحة.

ـ قلت فى نفسى لطفك يا أرحم الرّاحمين، فقبل قليل حدّثنا مرافقنا عن ذبابة التّسي تسي، وهاهو حبيب يضيف حديثاً عن الأفعى ذات الرّائحة النّحاسية.. ورحت أتخيل كيف سننام هذه اللّيلة، ودعوت الله أن تمضي على خير فشوارى طويل ونحن لانزال فى أول الطريق.

وما هو إلا وقت قصير حتى جاءوا باللحم المشوى، وافترشنا جميعاً الأرض حول اللّحم السّاخن، وراحت أصابعنا على ضوء القمر تنغمس فيه، والشّاطر منا من ترفع أصابعه قطعةً أكبر.. لم أُصِبْ كثيراً من اللّحم رغم جوعى ذلك لأنني كنت ألتفت يميناً ويساراً، مستعيناً ببطارية يد صغيرة كنت أحملها بيدى أمرِّر ضوءها حولنا خشية أن تفاجئنا تلك الّتى تسمى نحاسية.

فى الصّباح ودعنا السّلطان وشكرناه على استضافته لنا.

وفى طرِيقنا لقبيلة أخرى اصطدنا حيواناً ضخماً «تيتلاً»، قدمناه للسلطان (سباسيو) سلطان قبيلة المادي الّذى رحب بنا كثيراً لأنه على معرفة سابقة بى،

أنزلنا فى دكانين متجاورين ليكونا مقر إقامتنا ، وفى المساء وبعد العشاء دخلتُ وحبيب إلى أحد الدُكَّانَيْن ، ومرافقنا والشرطيان للمبيت فى الدكان الآخر.

وبينما نحن بين اليقظة والنّعاس فى حوالى الساعة العاشرة ليلاً إذا بصراخ يبدد سكون اللّيل ينطلق من الدّكان المجاور.

أسرعت أنا وحبيب إلى مصدر الصّوت ، فإذا بمرافقنا جاد الّذى عرفناه منذ يوم أمس بهدوئه ، قد سيطرت عليه حالة غريبة .. فوجئنا به يتحدث مع نفسه بعصبية ، وقد سيطرت عليه أوهام تخيل معها أنَّ زوجته وأولاده لحقوا به من جوبا وجاءوا إلى نيمولي لمضايقته ، وتسلقوا الشّجرة الّتى تجاور الدّكان الّذى ينام فيه ، وَخُيِّلَ إليه أنَّ زوجته تهدده من فوق الشّجرة وهو من تحتها يحاورها بلغة قبيلة الباريا .. وبصوت مرتفعٍ أدخل الفزع إلى قلوبنا.

فى البداية لم نفهم شيئاً ، وكان الموقف لأول وهلة يثير الأسى والضّحك ، فقد ظننا أنه شرب خمراً ولكن أحد الشّرطيين الّذى يفهم قليلاً من لغة الباريا شرح لنا الحالة الّتى انتابت مرافقنا ، فطلبت إحضاره إلى الدّاخل حتى لايوقظ النّاس بصوته المرتفع وشجاره الحاد مع زوجته الوهمية .. حاولت أن أوضح له أنه لايوجد أحد هنا .. لا زوجته ولا غيرها ، فصاح بى أنت مابتعاين وما بتسمع كمان (أي ، أنني لا أرى ولا أسمع) ، فقد سيطرت عليه حالة نفسية صورت له أنَّ أغصان الشّجرة وقد عكس القمر ظلها على الأرض ، كأنَّها ظل زوجته وأطفاله ، فاستسلم لهذه الأوهام وتعامل معها كحقائق .. فَشَلَتْ كلّ محاولاتنا لإعادة الرجل إلى حالته الطبيعية ، وإن كنا قد نجحنا فى إدخاله وهو يهذي بصوت مرتفع ، ثم يبكى ويصرخ.

لم أكن قد نمت اللّيلة الماضية ، وهاهي اللّيلة الثانية أتناوب فيها الحراسة مع الشرطة على هذا الرّجل الذى يهدأ مرةً وينفعل أخرى ، إلى أن أشرقت الشّمس ، فيما كان يغط الآخرون فى نوم عميق وخاصة حبيب الّذى أدار ظهره لكلّ هذه الجَلَبَةْ وراح شخير نومه يزداد ارتفاعاً ، إلا عندما يعلو صراخ مرافقنا فيقفز صارخاً :ـــ ماتِسَكّتُوا هذا .. لننام.

وفى الصباح أركبت هذا المرافق مع أحد الشرطيين فى باص ليعود به إلى جوبا.

بعدها بقليل حضر السلطان ليطمئن علينا وهو يأمل أن أكون قد نمت نوماً هادئاً ــ فقال: ــ

ــ كيف يا سيادتك.. إن شاء الله نمت كويس؟

فرددت عليه مبتسماً:

ــ جداً يا سلطان.. فقد نمت خيراً من الليلة الّتى سبقتها.

وبطبيعة الحال لا يعلم السلطان أنني لم أنم الليلة قبل البارحة.

* * * * *

كنت مع جمع من الأصدقاء قدموا من الكويت، فوقفنا ذات مساء مع مغيب الشمس على مراح (قطيع) كبير من البقر، فرأينا الأهالى بأجسامهم العارية يجمعون أبقارهم داخل حظيرة وهمية (أي ليس لها سور)، بل أكوام أقاموها من روث(١) البقر الرطب وأوقدوا تحتها ناراً، وبما أنها رطبة فلا تولد ناراً بل دخاناً كثيفاً يتصاعد، لايقل عدد هذه المواقد عن عشرة، يبعد كل واحد عن الآخر حوالى خمسة عشر متراً، فيشكّل دخان هذه المواقد سحابة لوكانت هناك شمس لحجبتها، وإذ ذاك كان كل واحد من الأهالى لا يُرى منه سوى عينيه، لأنه أخذ من رماد تلك المواقد ومسح به على كل جسمه، حتى الأطفال الصغار مسحوا أجسامهم ــ الجميع عراة ــ ذلك لأنهم وأطفالهم وأبقارهم ينامون حول هذه المواقد، فالدخان يبعد عنهم الحيوانات المفترسة ويمنع البعوض عن أبقارهم، وأنهم يمسحون أجسامهم بالرماد للسبب نفسه لأن البعوض لايحط على جسم فوقه رماد.

لفت نظرنا منظر الأطفال دون الثانية عشرة بما فيهم البنات يجلس كل واحد منهم القرفصاء تحت بقرة، ويرضع مباشرة من ضرعها الى أن يرتوى، إنها وجبة العشاء.

---

(١) فضلات البقر أى البراز.

سَألَنَا واحد منهم إذا ماكان معنا طعام فهم جياع ... رددت ــ وأنا لا أقصد إثارتهم ــ كيف تجوعون وأنتم تملكون كل هذه الأبقار.. ؟ اذبحوا عجلاً وكلوه.. فما إنْ أتممت كلاميْ حتى كاد يغشى عليهم من الضّحك.. كيف أقول كلاماً كهذا.. ؟ يمكن أن أعتذر وأقول لا يوجد معنا أكل أو أي شيء آخر إلاّ كلمة إذبحوا عجلاً.

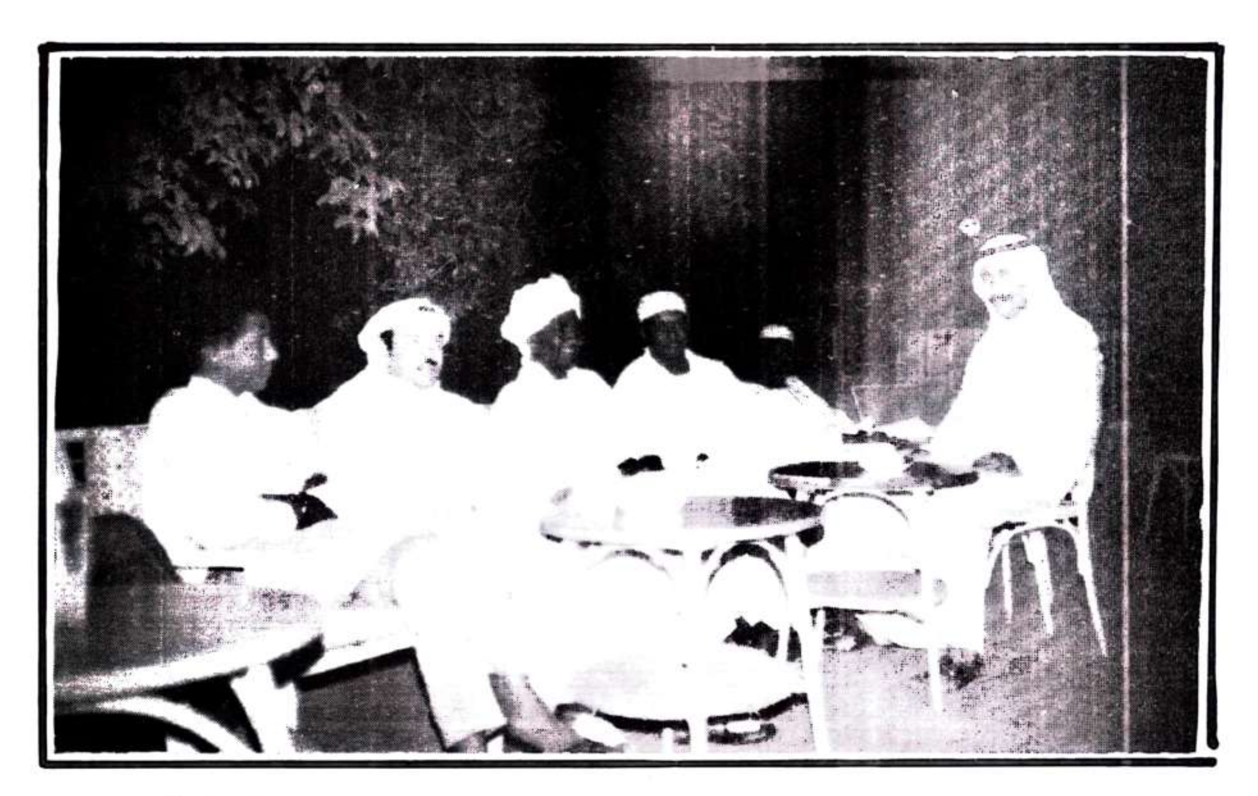
ذلك أنَّ ثروتهم هي البقر وأنَّهم حريصون على تكاثرها، فهي الركيزة التى يعتمدون عليها فى الزواج ويسعدون عندما تُزّف فتاة منهم، لأنها بهذا سوف تجلب للأسرة المزيد من الأبقار.

فسألت.. هل تُحَرِّمُونَ أكل لحم البقر.. ؟

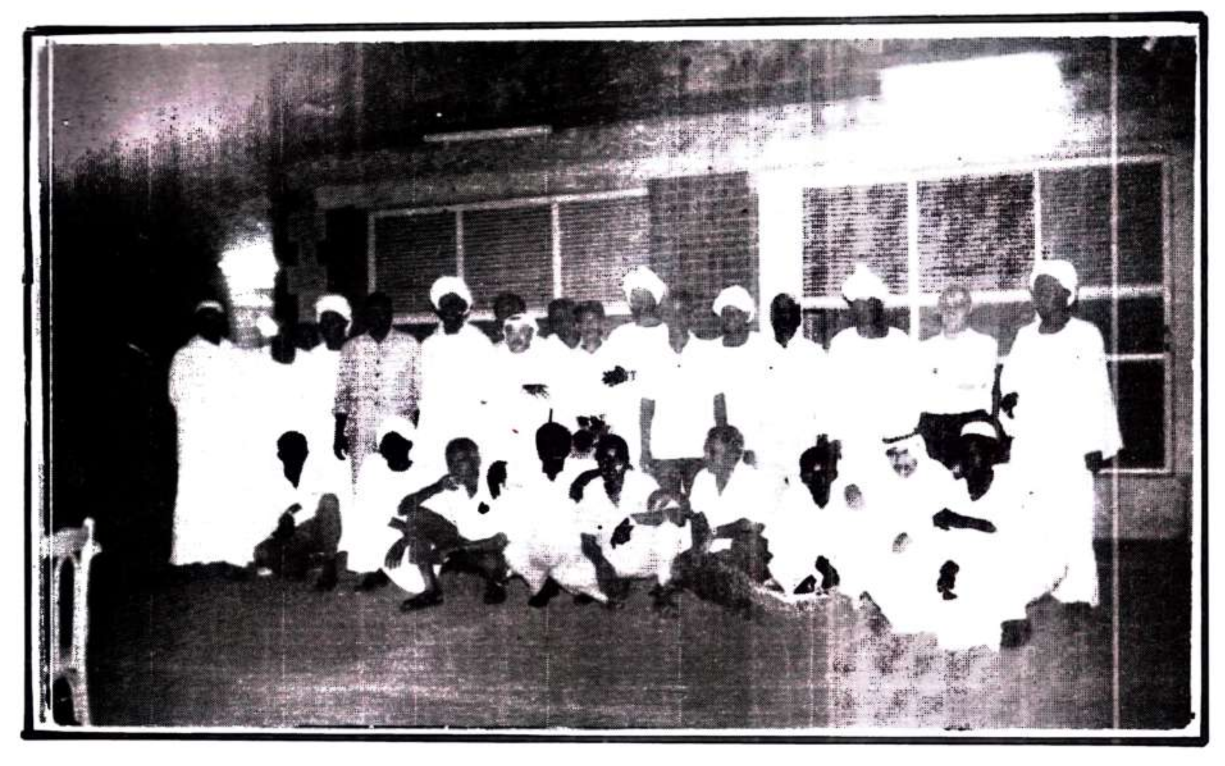
قالوا: لا.. إنما لا نريدها أن تنقص.. أما إذا مات أحدها.. هنا فقط نأكلها.

* * * * *

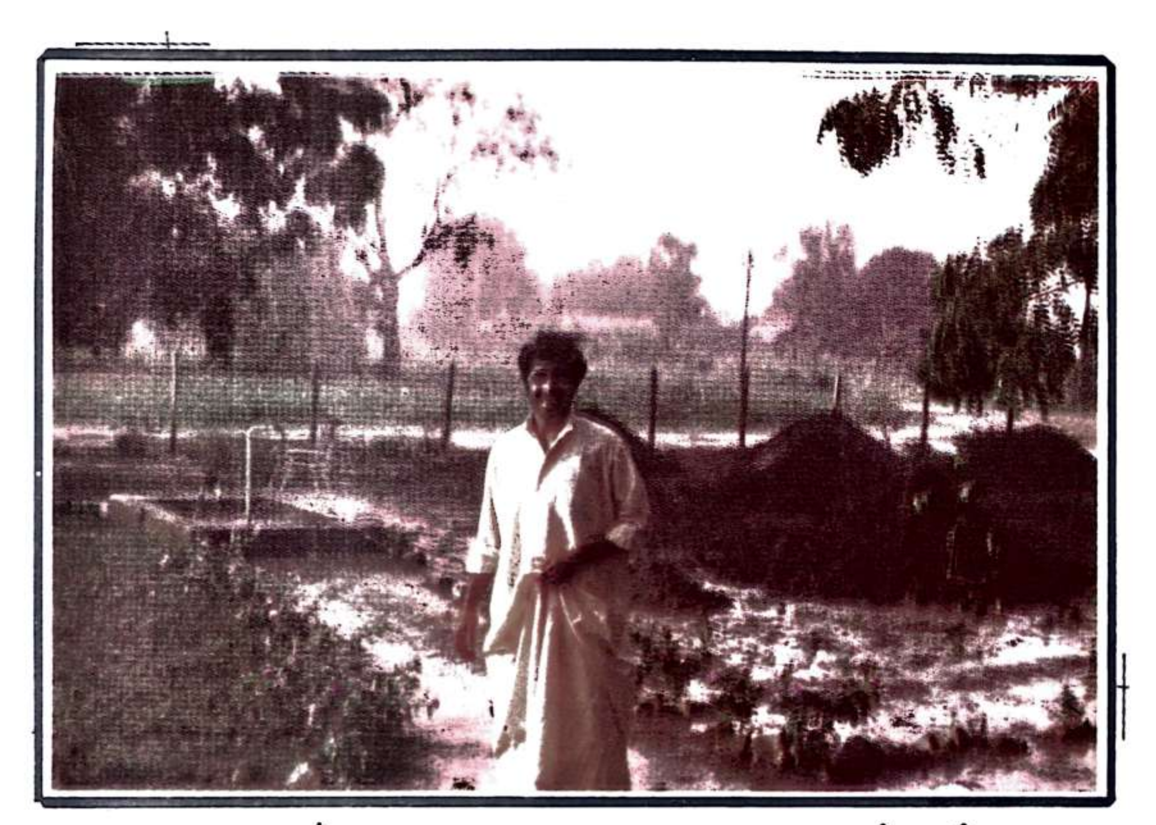
مجموعة صور
الجزء الأول



جاسم الرشيد، الى اليمين ليلة مغادرته جوبا ـ سبتمبر ١٩٧٤ م. الى شمالي المرحوم / العميد محمد يحيى منوّر والى يميني المقاول محجوب محمد على (المكان فندق جوبا).



صورة جماعية لحفل التوديع أعلاه.

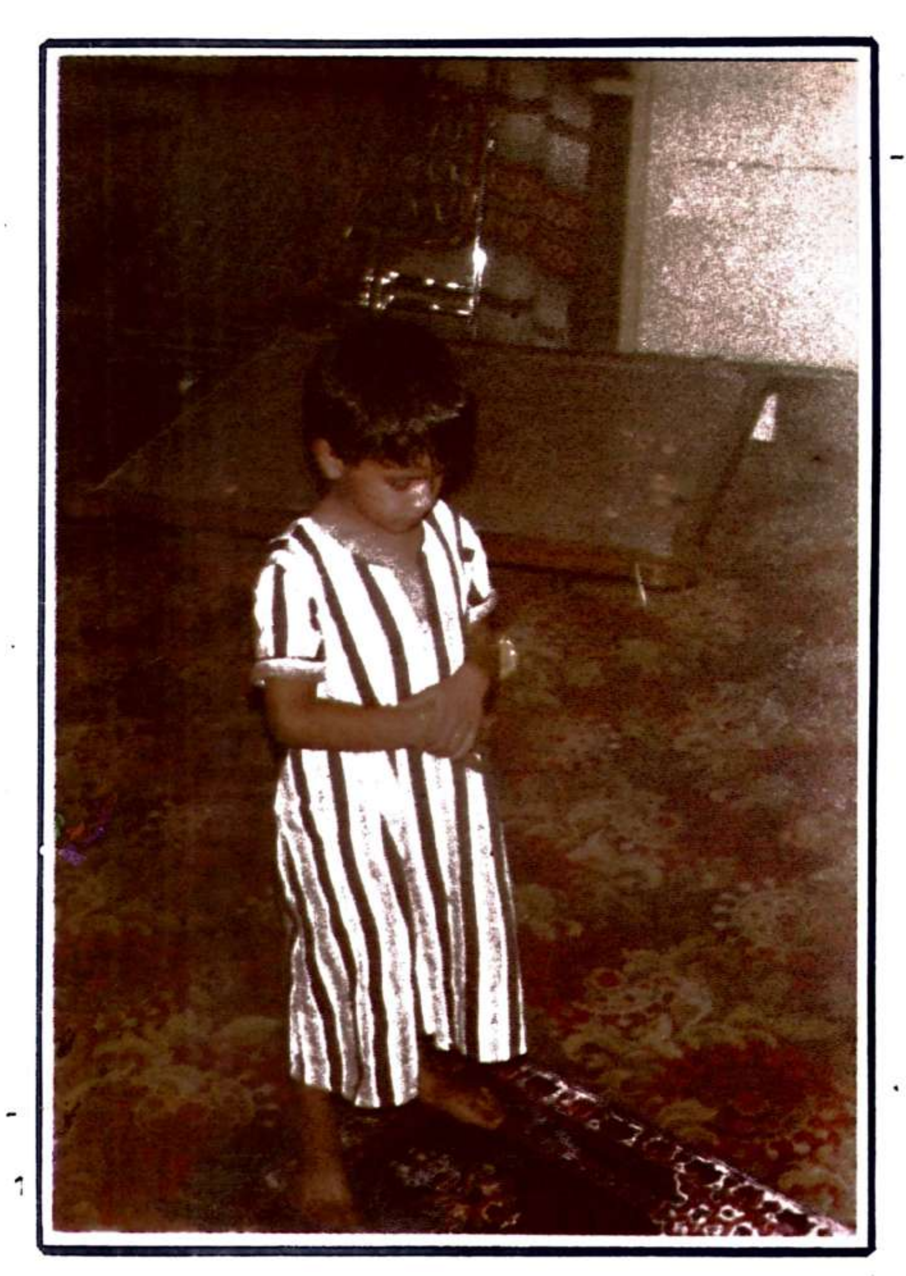


صالح أكبر الأبناء ــ إنه يتوسط ساحة المنزل والمنظر خلفه ، الأشجار حول منزلنا .

نوّاف .. أصغر الأبناء وهوايته فى عامه الأول ــ داخل المنزل .



نوّاف ـــ رغم صغر سنه لم ترحمه الملاريا .



وبعد أن شفاه الله يصلي شاكراً.



المرحومة الوالدة وأم صالح فى الغابة تُحضّران الإفطار ونحن من حولها نصطاد غزلانا .



منهمكات فى التحضير والطباخ يساعدهما بينما ابنتى تنظر إلى الكاميرا .



فى وسط الغابة ، وقد اختفى نصف أجسامهم وكذلك السيارة داخل الأعشاب .



السيارة بمن فيها تكاد تختفى خلف أعشاب السافانا .



هكذا ... فالطريق ليس سهلاً فى الغابة . فكم مرّة نزلنا لنرفعها .



والزّراف هنا يتفرج علينا .

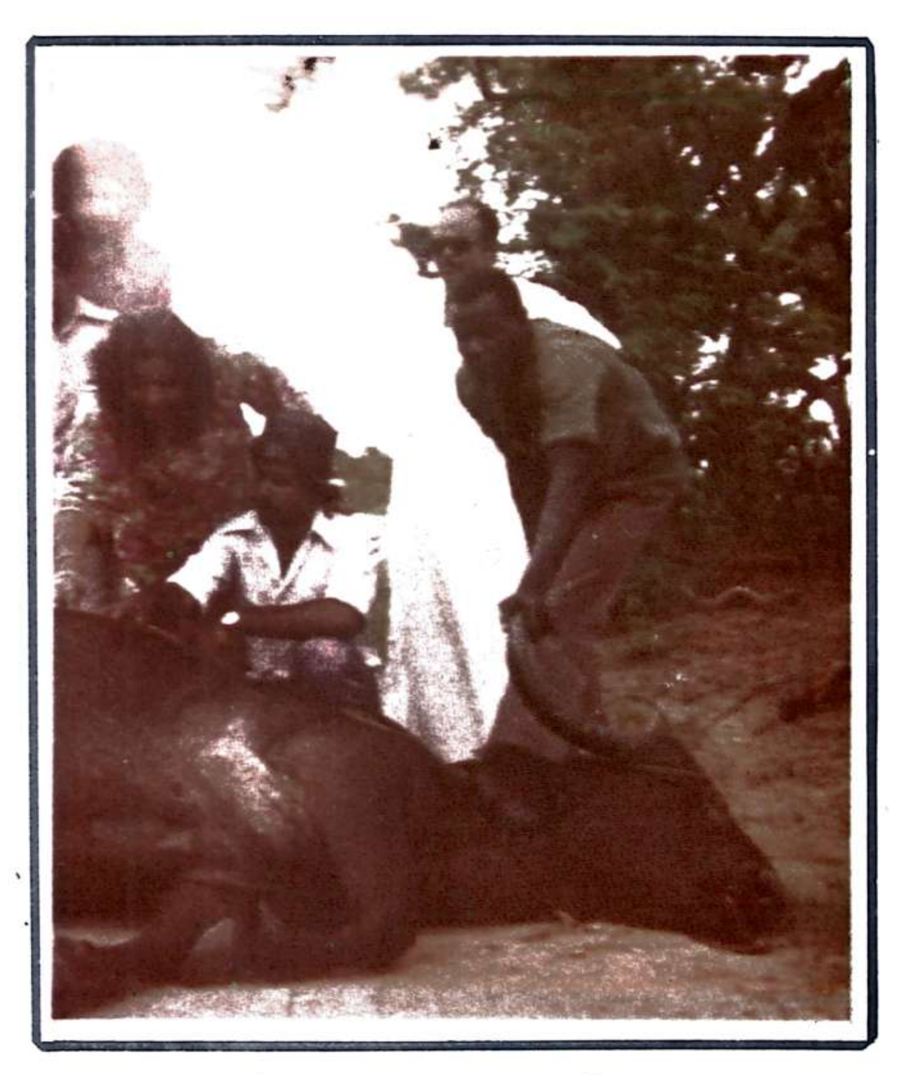
الطبيعة والطبيعة.

وصيدٌ سمين.

التأهب لدخول الغابة .



ابنتى ... إنها تخاف من الصرصار، وهنا تُصَوَّر مع أشرس حيوان فى الغابة . إنه ميت .
(جاموس)



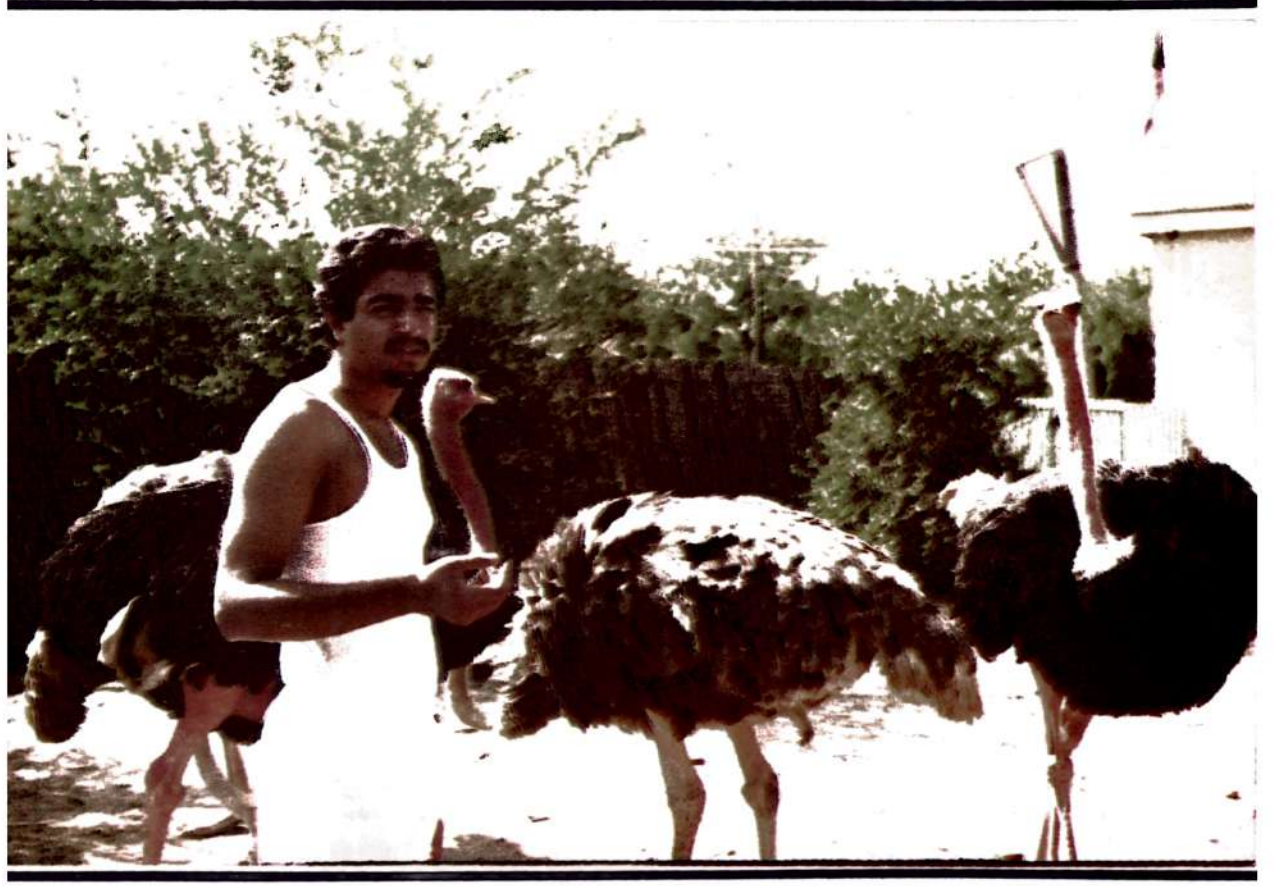
المؤلف ينظر إلى زوجته وهي تَجِسّ الجاموس بيدها ربما لتتأكد إن كان سميناً أم لا .



ويمنون أنفسهم بأكلة دسمة



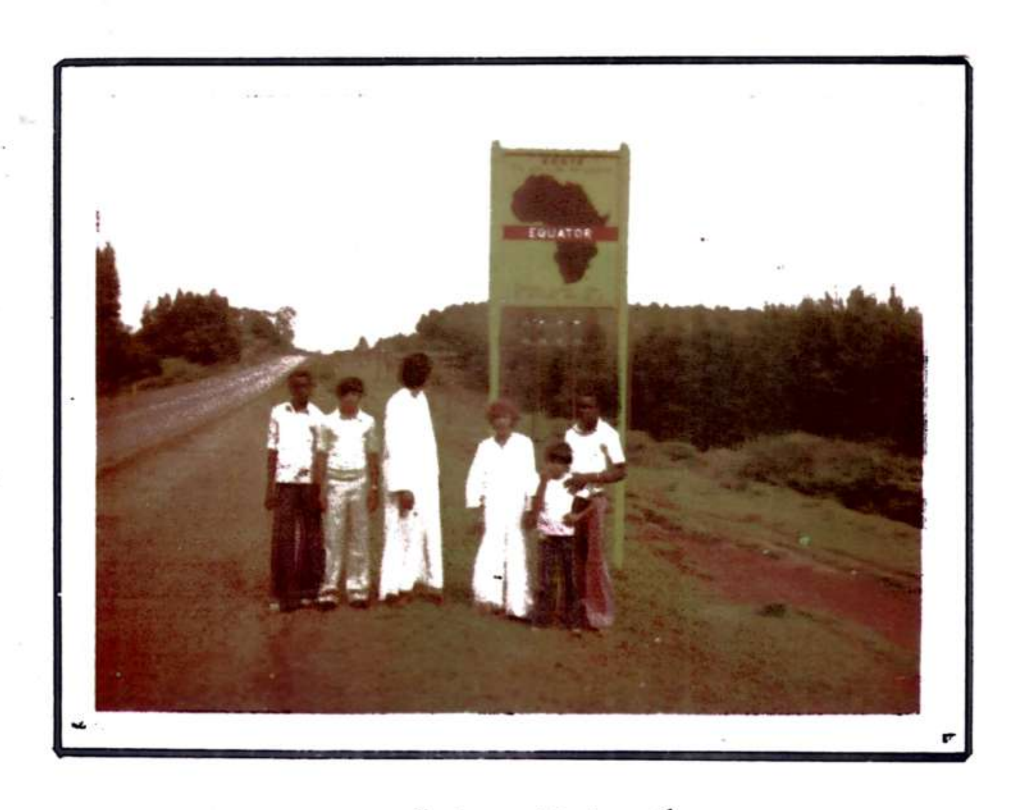
إنها تكره هذا الحارس (الخفير) ولا تود رؤيته قرب حظيرتها .



ولكنها مع الآخرين أليفة .

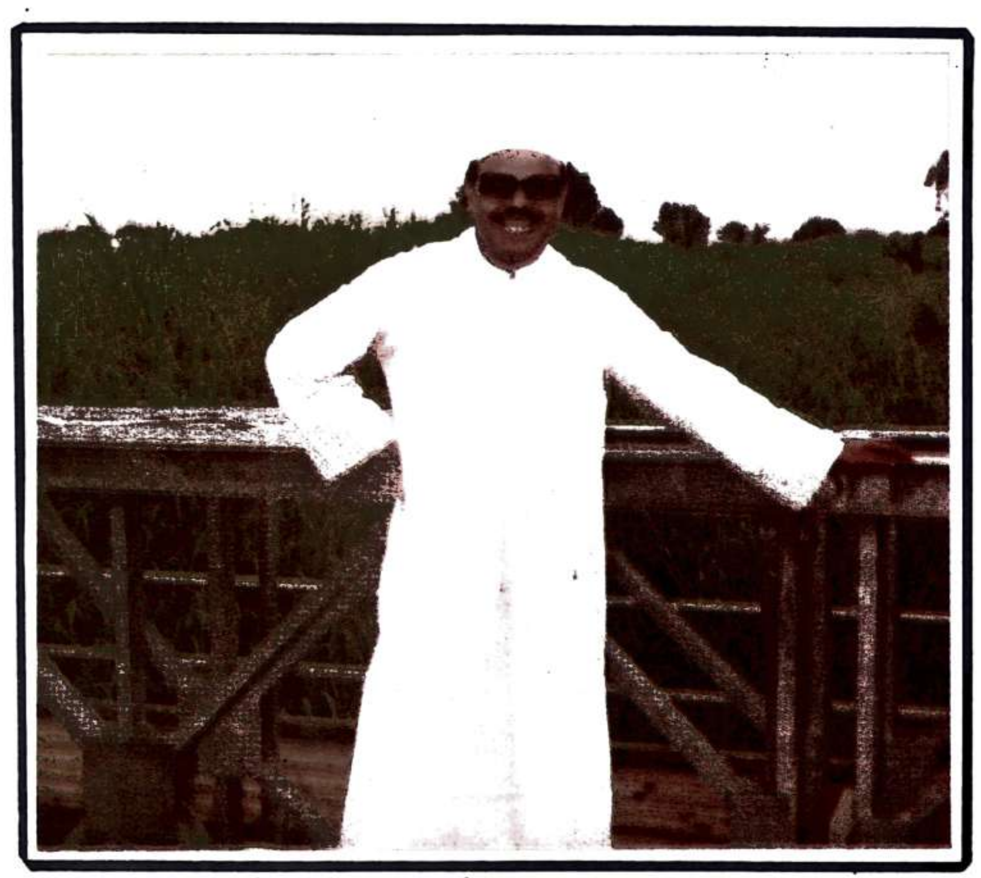


أم صالح وأبناء الجيران .



مركز خط الاستواء فى كينيا .





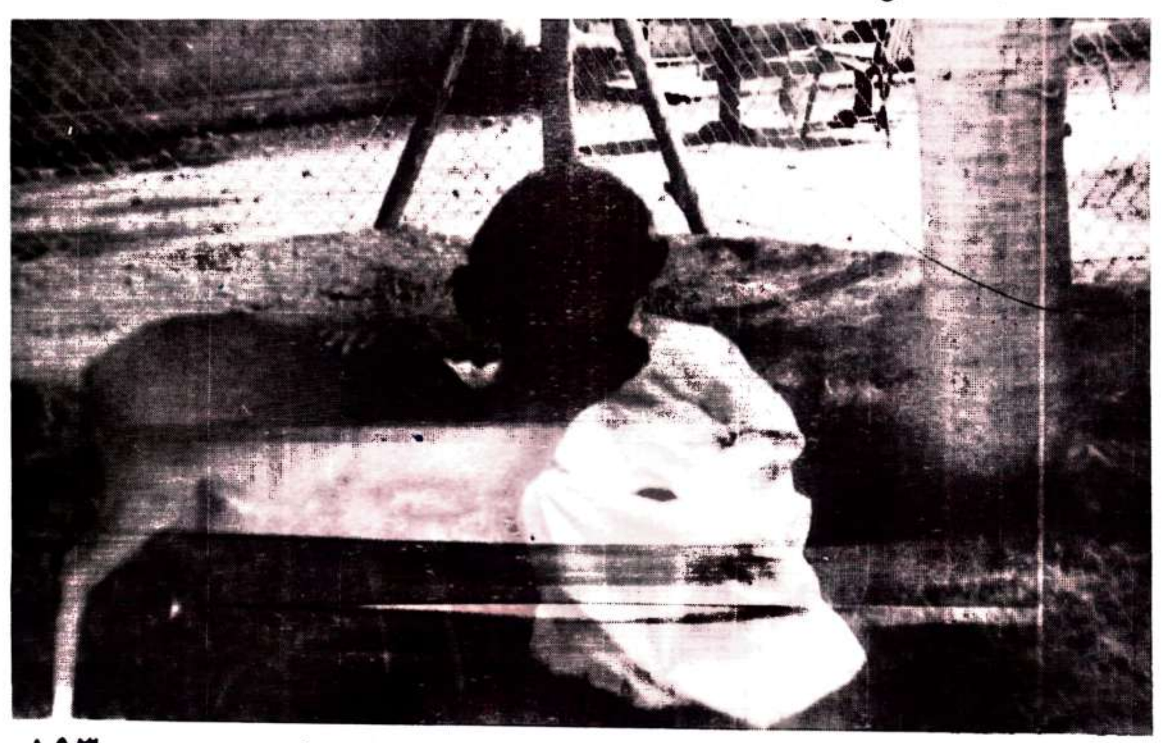
الحدود السودانية اليوغندية. نصفي الأيمن في يوغندا والأيسر في السودان. إنني أتوسط الكُبْري بين البلدين.



من الخلف شلالات نيمولي القادمة من بحيرة فكتوريا في يوغندا والمنتهية بعد مصر في البحر الأبيض المتوسط.



غزالنا الطليق – يرعى فى الشارع ولا يخاف الناس ، ولكنه يجرى إلى الداخل إذا رأى كلباً أو لحقه طفل .



إنهما يقبلان بعضهما – لم يرحمه الحارس (الخفير) ، قتله ليأكله .



فوق جبل جيلو مع الضباب ، سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر.



إنه يصوِّر فصوروه وقد حجب الغيم والضباب بينه وبين الذى صورهما . إنه جبل جيلو أجمل وأبرد موقع فى الإقليم الاستوائى .



الفيل الصغير والأهالى يتعاونون على سلخه ليصلوا إلى لحمه . يلاحظ أن ارتفاع وسطه أكثر من ١٢٥ سم .



كلنا على الفيل الكبير متكئون ، إنه يزن حوالى ثلاثة أطنان .



الفيل الكبير، الكل جالس فوق جسمه .



سنا الفيل الكبير بعد استخراجها من رأسه ، إرتفاع الواحد أكثر من متر وربع .



رأسا الفيلين على جانبي مدخل منزلي فى جوبا .

الشيخ مبارك والاستعداد لدخول الغابة .



وقد تحقق له ما أراد وأصاب الجاموس كما تمنى .



مبارك ، وجهاً لوجه مع الجاموس .



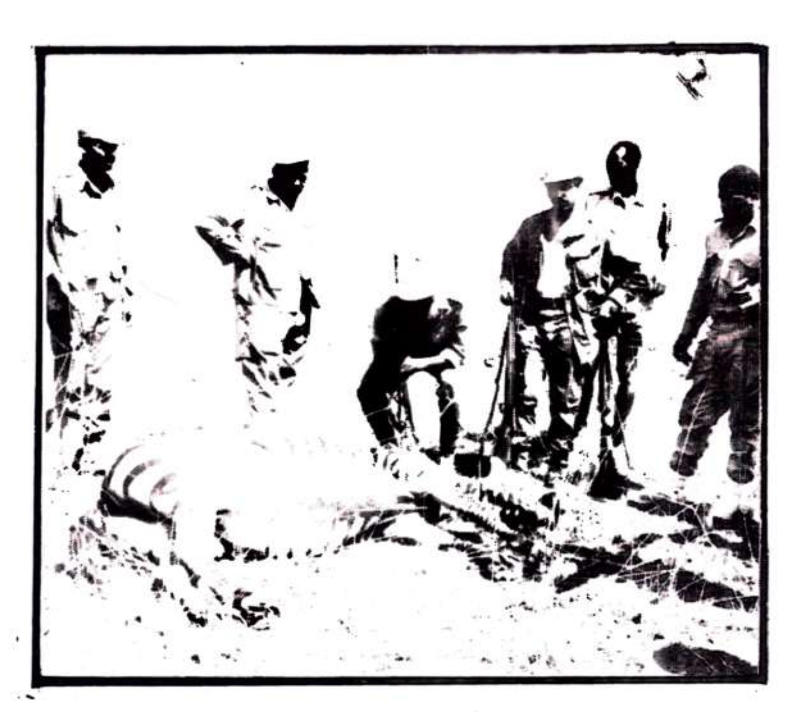
ويلتقط صورة تذكارية مع صيده .



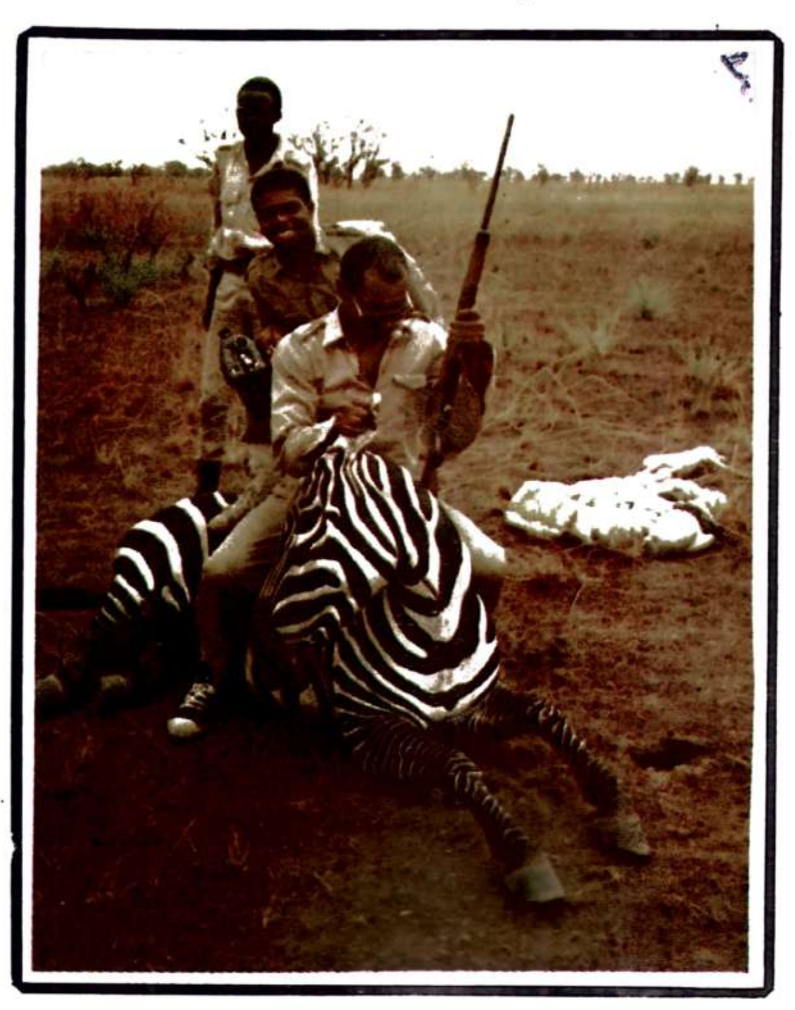
الشيخ علي صباح السالم وقد استعد لدخول الغابة .



وبملابس الفدائيين يتفرج على جاموسٍ أرداه قتيلاً .



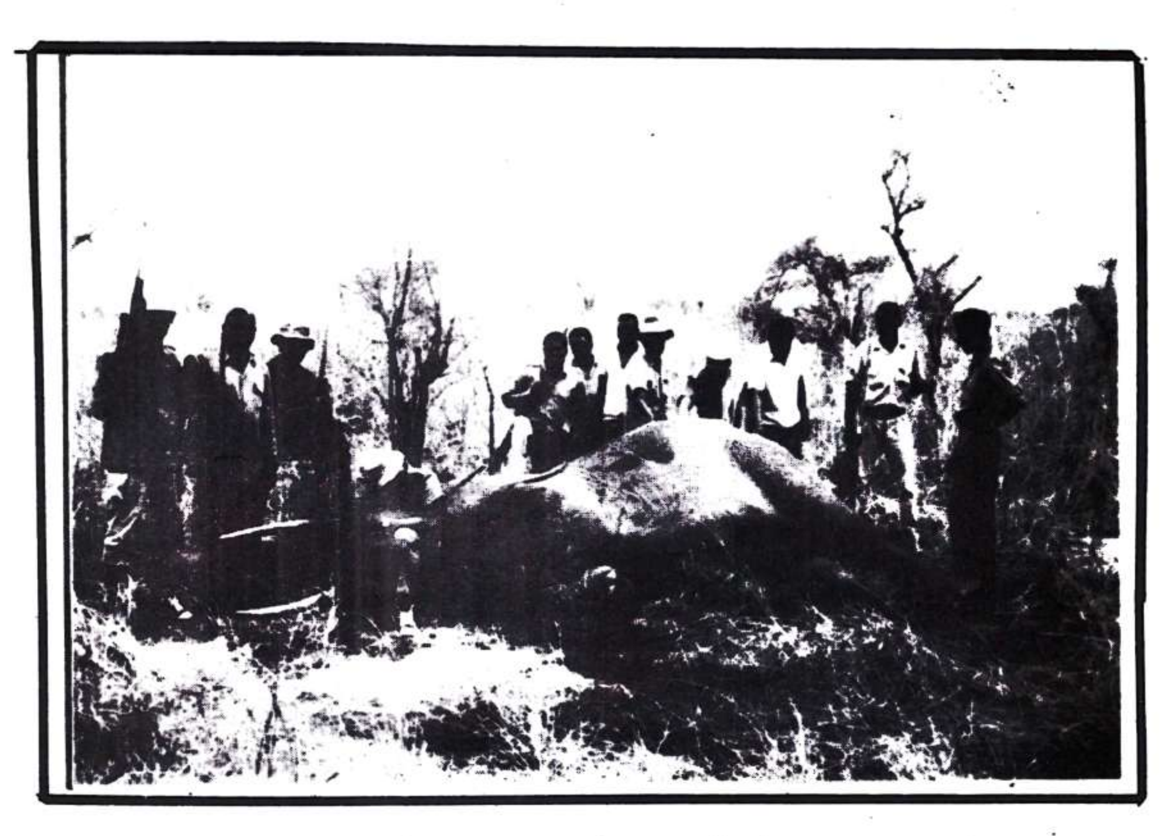
علي ، أمام حمار الوحش .



وقد ركبوه بعد أن إطمأنوا إلى موته .



علي ، بعد أن قتل الفيل ركبه وكل من رافقه ليلتقطوا صورة تذكارية معه .



بعدها طرحوه أرضاً ليقتلعوا أسنانه العاجية الكبيرة .

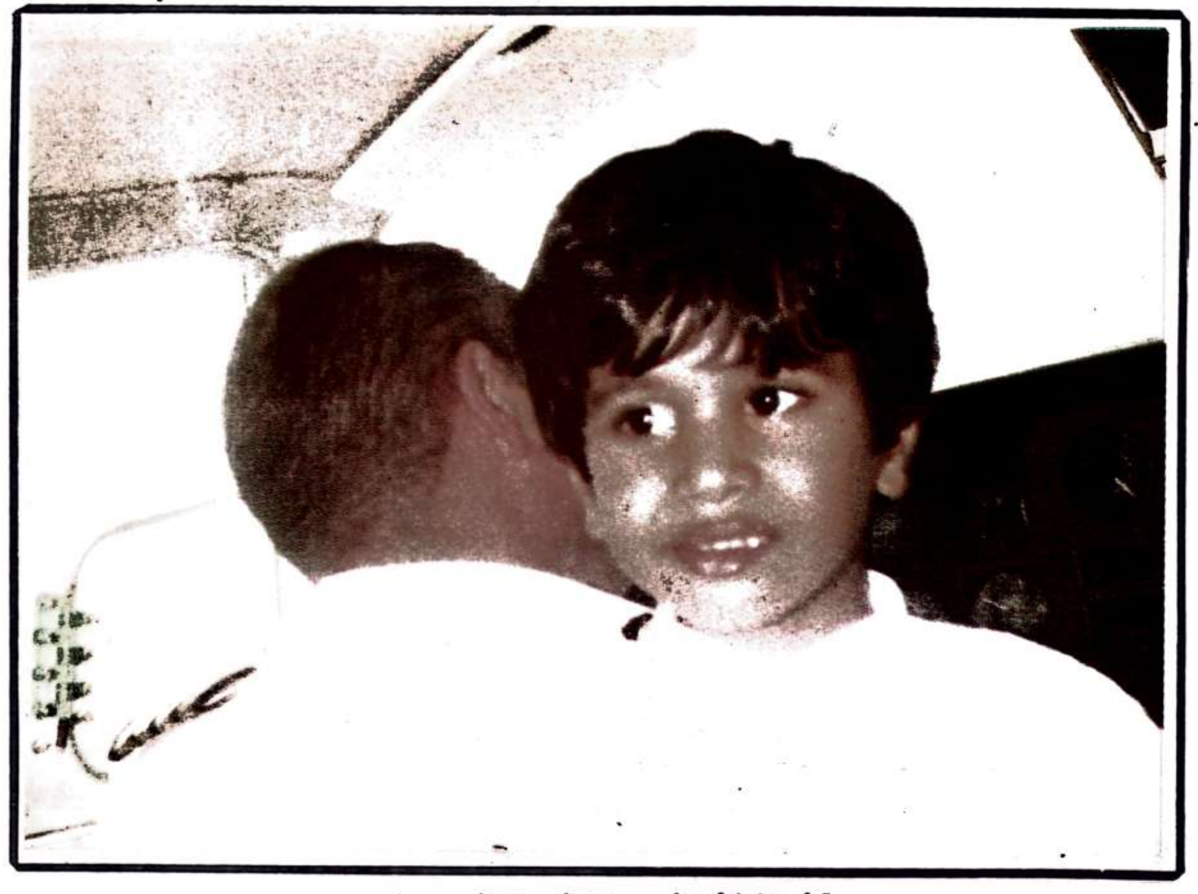
رياض ، مع جوز الهند فى ممباسا وخلفهم المحيط الهندى .



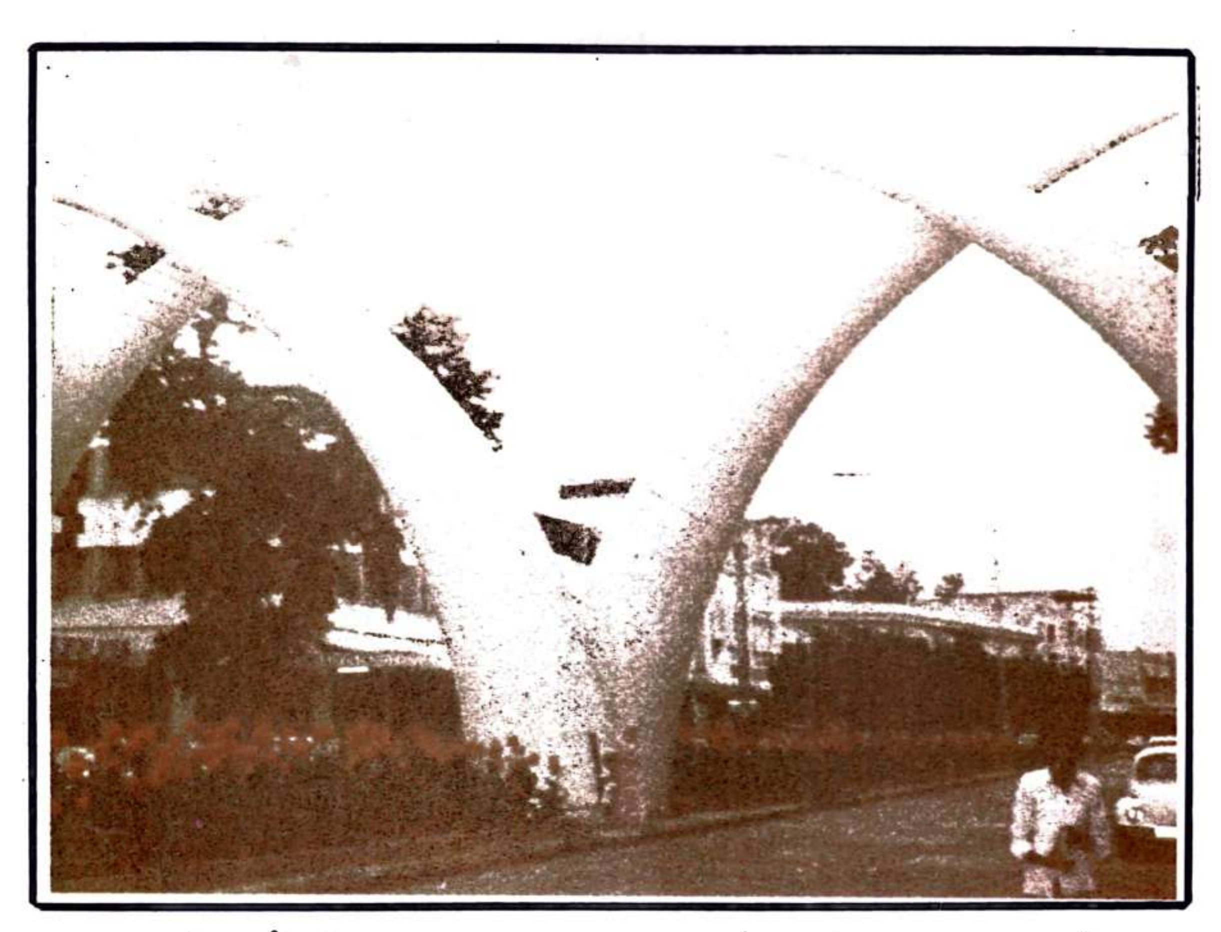
× اسمه ماوا ، إنه يعمل معنا فى المنزل بجوبا . كان معنا فى هذه الرحلة ، أرسله الأولاد ليأتى بكمية من جوز الهند .



نوّاف ، يحمل واحدة من جوز الهند ، إن ماءها قد ملأ كأسين (فى ممباسا) .



مع قائدِ الطائرة فى رحلة العودة إلى جوبا .



أحد شوارع ممباسا فى كينيا ، أقواس من الصفيح السميك على شكل أنياب فيل .



نفس المنظر أعلاه ، والمؤلف مع ابنه أحمد .

عبدالكريم عكاشة وعصام ابني فى القطار، من نيروبى إلى ممباسا .

المؤلف وأبناؤه فى جوبا بعد العودة من نيروبى .

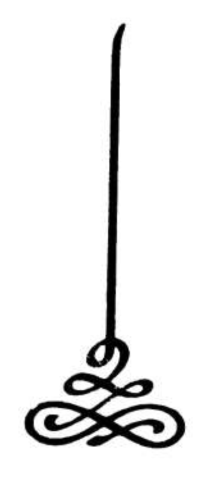


الطائرة الصغيرة التى أقلتنا من نيروبى إلى جوبا .



والثانية التى أقلتنا من جوبا إلى الخرطوم.

الجزء الثّاني



مقدمـــــة

موضوع هذه الدراسة ــ التى تتجه اتجاهاً بنائياً وظيفياً ــ هو عصارة تجربة وباقة ورد تفوح بأريج الانطباعات الطيبة، لازمت صاحبها طيلة فترة تواجده بجنوب السودان قضاها فى رحابه عاملاً ومنفذاً مخلصاً لمشاريع دولة الكويت الشقيقة وباحثاً منقباً لهذا الجزء وقاطنيه ــ كدراسة مقارنة فى علم الانثربولوجيا الإجتماعية، متنقلاً من منطقة لأخرى، أمله تعزيز فكرة الكتابة عن ذلك المجتمع كتجربة فريدة، مسجلاً عاداته وتقاليده، دافعه فى ذلك حماس لايفتر، إحساساً منه بأهمية دعم المكتبة العربية بإضافة قدر من المعرفة، عن ذلك الجزء من وطننا العربى الكبير، رغم مشاغل عمله الدبلوماسى. وقد أفاد البحث اعتماده على الدراسة الحقلية. كما أفاد كثيراً من توجيهات شخصيات من هذا الجزء معروفة بثقافتها وعمق تفكيرها وتاريخها الاجتماعى والسياسى فجاءت هذه الأفكار ــ ونتيجة تلاقحها ــ مخاضا عسيراً يكشف عن مولود بار بوالده ومتعلق بوالدته، السودان، العمق العربى فى أفريقيا.

ويضم البحث جزءين؛ يعنى الجزء الأول منه بتجربة المؤلف فى الجنوب فى تسعة فصول، كبحث خاص من مباحث الأنثربولوجيا الاجتماعية. ناقلاً القارىء عبر سرد تاريخى لحياته، التى ضمت بين دفتيها من الأفراح نصيباً ومن الأتراح كذلك.

أما الجزء الثانى وهو دراسة اجتماعية لبعض قبائل الإقليم الاستوائى، وكان ديدنه فى ذلك التنقل فى مناطق تلك القبائل، ونومه فى الأكواخ وإصابتة بالملاريا. ونجده فى هذا الجزء يعنى بسمات البناء الإجتماعى والأنساب الاجتماعية لبعض القبائل، كأول محاولة لكاتب خليجى يكتب عن عادات وتقاليد قبائل المادي والآشولي والزاندي والبو يا والتابوسا والمورو والباريا واللاتوكا والدادينجا باللغة العربية.

وقد لوحظ اختياره لتلك المجتمعات القبلية كأساس للدراسة المقارنة، على اعتبار أنها تبرز بوجه خاص سمات المجتمع مع تنوع أنماطه الانقسامية واللاانقسامية، وخاصة فيا يتعلق بالقرابة والظروف الاقتصادية ونظم التفاضل الطبقى والسلطة والوحدة العشائرية.

وهذه الدراسة تقتصر على البناء الإجتماعى، مبرزة تلك العلاقات التى تقوم بين الجماعات التى تتمتع بدرجة عالية من الثبات والاستمرار فى المجتمع، مع ضرورة الإيمان بحتمية التغيّر الذى تتعرض له كل الموجودات فى الكون. فالوحدة الاجتماعية فى الأسرة مثلاً تختلف فى مدى قدرتها على البقاء والاستمرار عبر الأجيال المتعاقبة بمقارنتها بقدرة الجماعات القبلية، كما أن العلاقات الثنائية التى تقوم بين الأفراد إنّما هي علاقات سريعة التغيّر والتحول، ولكن تلك العلاقات التى تربط بين الجماعات القبلية هي علاقات تقليدية تفرض أنواعاً من التعاون أوالتساند إزاء الجماعات الأخرى من نفس النوع والدرجة على الرغم من التناقضات الداخلية التى تقوم بين أعضائها فى الحياة الاقتصادية والسياسية.

فعموما هذه الدراسة مجهود مقدر، وصالحة للنشر، ويمكن أن تكون ثمرة لدراسة اجتماعية أوسع وأشمل وأكثر موضوعية، إذأن الخبرات الحقلية تؤثر كثيراً فى تكوين التجريدات النظرية التى ينتهي إليها الباحث الاجتماعى، كما حدث لبعض الكتاب الاجتماعيين كايفانز بريتشارد الذى انتهت به خبرته بمجتمع النوير إلى إبراز العنصر الإقليمى كعضو مميز فى البناء الاجتماعى والسياسى.

وبعد... فلعل هذه الدراسة يمكن أن تكون ركيزة يستند إليها الباحث فى دراسات حقلية فى الأنماط الاجتماعية التقليدية، وذلك كمحاولة للمساهمة فى مناقشة المشكلات التى تعنى بها الأنثربولوجيا الاجتماعية والسياسية التى بدأت تحتل مكاناً هاماً من الإهتمامات الأكاديمية الحديثة.

والله ولي التوفيق....

محمد عمر موسى
معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية
جامعة الخرطوم ــ سبتمبر ١٩٨٥م

قبيلة
المــــادى

(١)

المـــادي

تعني كلمة «مادي» بلغة القبيلة (هأنذا)، والاسم يدل على أن أهل القبيلة يعتزون بأنفسهم، و ينتمى إلى هذه القبيلة جوزيف لاقو الذي قاد العمليات المسلحة فى الجنوب حتى توقيع اتفاقية أديس ابابا عام ١٩٧٢ من خلال حركة انيانيا، والتى تعني بلغة المادي «الحشرة السامة».

وتتفرع عن القبيلة بطون تعيش فى مناطق متعددة، مساحتها ستون ميلاً طولاً وخمسة وأربعون عرضاً فى أقصى بقعة جنوب شرق السودان، وهذه المناطق هي نيمولي، لوا، مادي، كربي، أربي، بانجوا باميري، لينيا، تماتو، اللّو، موجالي، اولوبيه، وأهم هذه المناطق هى نيمولي ولوا، اللتان تقعان على الحدود السودانية الأوغندية، وتجاور المادي قبيلَتَيْ الآشولي والباريا، ولا توجد حدود رسمية بين القبائل، وكل قبيلة تعرف حدودها مع القبائل الأخرى، ولا توجد إحصائية رسمية لسكان القبيلة ولكنهم يقدرون عددهم بنحو أربعين ألف نسمة.

إن قبيلة المادي جاءت من غرب الاستوائية، ومنها قبائل مورو، وأبوكايا، وكاليكو فى منطقة «ييي»، ولوجو فى زائير، ولوجيارا ولولوبو، بجوار جوبا، وتتداخل القبائل الصغيرة هذه فى علاقاتها مع قبيلة الباريا، فثقافتهم ولغتهم هي لغة المادي، وترقص قبيلة كوكو رقصة موريه التى تختص بها المادي.

وتتحدث القبيلة لغة واحدة، وقد تختلف بعض الكلمات فيها من منطقة إلى أخرى، والديانة الغالبة هي المسيحية، والمذهب الغالب هو الكاثوليكى، وهناك

أيضاً البروتستانت وقد دخلت المسيحية إلى القبيلة عام ١٩١٦ عن طريق القساوسة الإيطاليين القادمين من يوغندا ، أما المسلمون فعددهم أقل من المسيحيين ، ودخلها الإسلام عن طريق الجنود القادمين من شمال السودان بمن فيهم الأتراك والمصريون ، كذلك نقل التجار القادمون من الشمال معهم اللغة العربية والإسلام ، قبل ذلك كان الدين فى القبيلة مجرد عادات وطقوس يتوارثها أبناء القبيلة جيلاً بعد جيل ، يمارس المسيحيون شعائرهم واحتفالاتهم الدينية فى كنائس صغيرة ، و يؤدي المسلمون والمسيحيون الصلاة على أرض فراغ لم يُبْنَ عليها شيء بعد ، ولا تخلو احتفالات القبيلة من المناسبات الدينية ويحتفل المسيحيون بعيد الفصح وأعياد الميلاد ، ويحتفل المسلمون بعيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوي الشريف ، هذا إلى جانب احتفالات أخرى خاصة بالقبيلة كانتصار أحد أفرادها بتمكنه من قتل أسد أونمر، أوحقق بطولات فى غزوات خارج منطقة القبيلة .

يمارس سكان القبيلة حياتهم اليومية فى الزراعة ، فابن المادي يستيقظ مبكراً و يغتسل ، و ينظف أسنانه بالسِّواك حسب العادات القديمة ، و يذهب الرجال إلى أعمالهم فى الزراعة أوالرعى ، أما المرأة فتقوم بأعمال تنظيف البيت وهو الكوخ المعروف باسم القُطِّيَّة ، وتقوم بزيارة جاراتها لتقديم أي مساعدة أوواجب اجتماعى ، وفى الماضى كان الصغار يذهبون مع الكبار إلى الزراعة والرعى ، أما الآن فانهم يذهبون إلى المدارس و يساعدون أهلهم بعد انتهاء الدوام المدرسى .

وعادة ما يجلس الرجال بمفردهم حيث يتسامرون و يتناولون طعامهم ، وتجلس النساء بمفردهن ، وكذلك الأطفال ، و يبلغ متوسط العمر فى القبيلة نحو ستين عاماً ، وفى الماضى كان متوسط العمر يصل إلى ثمانين عاماً ، وربما كان السبب فى ذلك هو انتشار الأمراض ولاسيما مرض النوم الذى تسببه ذبابة (التّسي تسي) ، وهناك مرض ظهر فى السنوات الأخيرة واسمه (برووللي) لادواء له ، وقد جاء مع الأوغنديين الذين لجأوا إلى المنطقة بعد الحرب التنزانية الأوغندية التى أطاحت بعيدى أمين عام ١٩٧٩ .

بدأ التعليم ينتشر فى أوساط القبيلة فى السنوات الأخيرة . وتهتم الأسرة الصغيرة بتعليم أولادها ، و يوجد فى منطقة قبيلة المادي تسع عشرة مدرسة ابتدائية ، ومدرسة

ثانوية واحدة، ويتلقى التلاميذ تعليمهم باللغات الانجليزية والعربية ولغتهم الأصلية ومن يحصل على الثانوية العليا يلتحق بالجامعة، ولايزيد عدد الذين تلقوا تعليماً جامعياً فى القبيلة كلها على خمسة عشر شخصاً.

للقبيلة عاداتها فى الزواج، ففى الماضي كان الأب هو الذى يختار عروساً لابنه، أما الآن فقد قلّت هذه الظاهرة ويمكن للشّاب أوالفتاة أن يختار كل منهما شريك حياته، وسمعة الشاب فى القبيلة هي جواز سفره إلى الزواج، ومن الأفضل أن يكون للشاب مصدر دخل من عمل يقوم به، أو يكون معروفاً بجرأته وشجاعته، ويكون قادراً على دفع المهر الذى يطلب منه وهو عادةً من الأبقار أو الأغنام، ويتراوح مابين خمس إلى اثنتي عشرة بقرة حسب الحالة المادية للأسرة، أما الأغنام فتصل إلى أربعين رأساً، وعليه أن يساعد والد زوجته فى الزراعة، وتجديد بناء كوخه، خاصة إذا كان والد الفتاة فقيراً، والمهر هذا مسألة ضرورية، وإذا لم يكن الشاب قادراً على دفع مايطلب منه من أبقار وأغنام، يصبح ديناً عليه واجب السداد حتى عندما يكبر أطفاله من البنات ويتزوجن، فإنه إذا زوّج إحداهُنّ يخصم جزء كبير من مهرها ويسدده لأهل زوجته، للجد أو الجدّة أووالدة العروس، ورغم أن معظم السكان مسيحيون، إلا أن الرجل قد يتزوج أكثر من زوجة، لأن القبيلة تعتبر تعدد الزوجات عادة من عاداتها وتقاليدها تفصل بينها وبين الدين.

ومن العادات الشائعة فى القبيلة أنّه لا يجوز أن يتزوج شخص ما، شقيقة زوجته، وفى الماضى لم يكن يسمح لابن القبيلة أن يتزوج من قبيلة أخرى، ولكنهم الآن تغاضوا عن هذه العادة، ويمكن للشاب أن يتزوج من قبيلة أخرى، ويحرّم على الشاب الزواج من أي فتاة تنتمى إلى الأسرة بالقرابة، كما يحرّم زواج الأخ أو الأخت فى الرضاعة، ولا زالت هذه التقاليد قائمة حتى الآن.

فيما مضى كان المهر عبارة عن أبقار وأغنام وأدوات زراعية تُسَمّى (المالوده) أما هذه الأيام فيمكن تقديم المال بجانب الأبقار، وفقاً للإمكانيات المادية لدى الشاب، وكان يجرى الاحتفال بالزواج فى منزل أسرة الفتاة، ولكن الآن يمكن أن يقام الاحتفال بمنزل الشاب.. ولأن والد الفتاة كان يتحمل مسئولية اختيار

شريك حياة ابنته ، فإنه يتحمل أيضاً مسئولية ما إذا كانت الفتاة بكراً أم لا ، لأن هـذا يمـثل فضيحة لوالدها ، وفى هذه الحالة فإن من حق الشاب أن يعيد العروس إلى أهـلـهـا و يـسترد ماله ، وعلى الشاب الذى انتهك عذرية الفتاة دون زواج أن يدفع غرامة ، وَ يُرْغَم على الزواج منها و يدفع لها مهرها كاملاً ، أما الآن فليس من حق الفتى أن يشكو إذا وجدها غير عذراء لأنه هو الذى اختارها ، وهذا النوع من الفتيات يسمونها فى القبيلة (مكسورة) ، وسن الزواج بالنسبة للفتاة هي العشرون ، وكـان فى المـاضـى يتم الـزواج مـن سـن الخـامـسـة عشرة ، أما الآن فالسن المناسبة للزواج هي من خمسة وعشرين إلى ثلاثين عاماً .

أما مـوقـف الأسـرة مـن الـفتاة سيئة السمعة التى تختلط كثيراً بالرجال ، فإن الأب فى هذه الحالة يطردها من البيت ولا تعود إليه أبداً .

ومـاذا عن الميراث ؟ .. لو أن رجلاً لديه أكثر من زوجة ولديه أبناء فهل يرث الأبـنـاء زوجات الأب كما هو سائد فى بعض القبائل الأخرى ؟ ، والإجابة أنه فى الماضى كان يحدث أن يرث الابن الأكبر كل زوجات أبيه بحيث يصبحن زوجاته مـاعـدا أمه ومن تكبره سناً ، و يسمى الأبناء الذين ينجبهم باسم أبيه المتوفى ، وفى هـذه الحالة يصبح أولاده هؤلاء إخوة له ، وإذا لم يكن للأب أبناء من زوجاته فإن أخـاه الأكبر هو الذى يرثه فى هذه الحالة ، وكل هذا بهدف جمع أفراد الأسرة حتى لا تـتـفـتـت ثـروتها التى هي عادة أبقار وأغنام ، والابن الأكبر يصبح بعد وفاة أبيه مـسـئـولاً عن رعاية إخوته وإخوانه ، يزوجهم عندما يكبرون و يساعدهم ، وإذا أُخِذَ عـليه أنه مهمل فى أداء مهمته ، فإن الكبار فى القبيلة يغضبون منه و ينقلون الإرث إلى من يليه من أشقائه .

ولقبيلة المادي رقصاتها ، والرقصة تسمى (نُقَّارة) وهناك رقصة الزواج ، ورقصة النَّصر الـتـى تـرقـص عـنـدما يتمكَّن أحد أبناء القبيلة من قتل أسد أونمر ، ورقصة الحـرب ، ورقـصـة المـوت الـتـى تـقـام حزناً على الفقيد ، خاصة إذا كان المتوفى ــ أو المتوفاة ــ كبيراً فى السن أو ذا مركز اجتماعى فى القبيلة ، وفى المناسبات الدينية يـقـدمـون رقـصات شعبية ليس لها اسم معين ، وهناك أدوات موسيقية للرقص مثل « تـور يـه » وهـي مـن الخـشـب وتـشبه الناي ، و يرقصون على أنغامها رقصة تحمل

نفس الإسم ، وهناك أيضاً « تورولو» « و بيريه » ، وكلها آلات موسيقية يستعملونها فى حفلاتهم ورقصاتهم حسب المناسبة حزناً أو فرحاً .

ولا تعرف القبيلة عادة الختان عند الذكور أو الإناث ، وفى الماضى كان يتم توليد الأم بمساعدة النساء المُسِنّات ، أما الآن فيوجد فى كل قر ية مولِّدة « داية » متخصصة ، وَتُسَمَّى البنت بعد أربعة أيام و يسمى الولد بعد ثلاثة أيام ، وأهل القبيلة لا يفرقون بين الذكر والأنثى فكلاهما عند القبيلة سواء .

وللقبيلة سلطان ، فى الماضى كان يمثل السلطة و يُوَرَّثْ ، أما الآن فإن انتخابات تجرى لاختيار السلطان ، وهو مسئول عن القبيلة ، يتعرف على مشاكلها و يعمل على راحتها . وكان السلطان يتلقى العون والمساعدات من أهل القبيلة ، وله الحق فى الحصول على ثلاثة أرباع مايصطاده أى فرد ، والسبب فى ذلك أن السلطان مسئول عن جميع أفراد القبيلة ، وهو الذى يستقبل أفرادها من أماكن بعيدة وعليه أن يطعمهم و يسكنهم و يستضيفهم ويحل مشاكلهم ، وهو الذى يختار مساعديه من القبائل الصغيرة التابعة للقبيلة الأم ، وهم ينوبون عنه فى أماكنهم ، فالمسافات بين القرى متباعدة ولا يستطيع السلطان أن يتحرك فى المناطق كلها بسبب عدم وجود وسائل انتقال ، ولا تستخدم الحمير فى التنقل ، وإنّما يسيرون على الأقدام ، أما الآن فالسلطان فى القبيلة موظف حكومى مثل المختار أو العمدة .

ولكل قبيلة صغيرة سلطان ، وهو بمثابة رئيس الحى ، ولا زال السلطان حتى الآن يتمتع بامتيازاته القديمة وحقوقه فى أن يحصل على كميات كبيرة من الصيد والطعام و يزرعون له أرضه ، وإذا اصطاد أحد فيلاً فسن الفيل وكمية كبيرة من لحمه من نصيب السلطان ، وإذا اصطاد نمراً أو أسداً فالجلد من نصيبه أيضاً . وكان السلطان فيما مضى يرتدى ملابس مميزة له ، مثل جلد النمر وأشياء أخرى تميزه عن أفراد القبيلة ، أما الآن فإنه يرتدى ملابس حكومية وعليها علامات المدير ية ، وقد رأيت السلطان مرتدياً على ملابسه الحكومية روباً أحمر بزخارف من خيوط ذهبية ، و يرتدى الآخرون الملابس العادية المتيسرة لديهم .

والسلطنة وظيفة، فهناك سلطان «النقارة» أى الذى يقوم بمهمة الحفلات الراقصة أياً كان نوعها، وهناك سلطان «الكيجور» الذى يقوم بأعمال السحر، وأهم السلاطين، سلطان المطر وله امتيازات خاصة فوظيفته تُورَّث، وله الحق فى الحصول على نصيبه من عوائد محصول الحصاد، وكل أفراد القبيلة يعملون على خدمته من زراعة أرضه وتنظيف مسكنه وإعادة تجديده، وكل مهمته هي إنزال المطر، وهو يعتمد فى عمله على قطع صغيرة من الحجارة الجبلية يحملها فى وعاء فخاري صغير به ماء وزيت، وبعيداً عن أعين الناس يتلو فى الوعاء قراءات خاصة و يغمس أصابعه فى الإناء وَ يَرُشُّ ما يعلق بها من ماء وزيت على الأرض وعلى أغصان الشجر، وبعد وقت قصير ينزل المطر، وإذا لم ينزل خلال فترة عشرة أيام، فمعنى ذلك أن السلطان غاضب على شخص ما، لأنه غمطه حقه، ولم يرسل له نصيبه من المحصول الزراعى، أو أن هناك نزاعاً بين أفراد القبيلة، كأن يكون شخص مَا، وعد فتاة بالزواج ولم يدفع لها مهرها.. المهم أن يكون هناك سبب يبرر به عدم سقوط المطر، وفى هذه الحالة يجتمع كبار أفراد القبيلة من نساء ورجال لدراسة الأسباب والبحث عن أصل المشكلة أو النزاع وإقامة الصلح بين المتنازعين، ويسدد كل من عليه دين ما عليه، وإذا ثبت أن شخصاً ما غمط سلطان المطر حقه، يحاكم ويدفع غرامة للسلطان بالإضافة إلى مستحقاته، أي أن سلطان المطر[1] يقوم بدور المصلح الاجتماعى، وإذا قل المطر أو زاد أو لم يسقط، فإن سلطان المطر يحاسب ويمنع عنه ما يريد ويجلد، ويخلع عنه اللقب، ويتم اختيار سلطان آخر، ونادراً ما يحدث هذا، ويؤمن معظم أفراد القبيلة بدوره فى إنزال المطر، وهناك قلة لا تثق فيما يفعله، ولكل قبيلة سلطان مطر خاص بها.

وطعام سكان القبيلة هو عادة من الذرة التى يصنعون منها العصيدة والمريسة، والسمسم ويصنعون منه الشوربة، وبامبيه وهي مثل البطاطس ويصنعون منها الطعام الذى يسميه السودانيون (الملاح) ـ بضم الميم ـ والبافره وهي تشبه

(١) أعتقد أن سلطان المطر هذا يتمتع بذكاء فطري وهو يقوم بعمله من خلال متابعته لحركة الرياح والطقس كما يفعل الفلكيون، وهو ليس فلكيا بطبيعة الحال، ولكن لديه احساس خاص بحركة الرياح واحتمالات سقوط المطر.

البطاطا، حلوة المذاق و يستخرجون منها الدقيق بعد تجفيفها، والتلبون، والأشاريف (الذرة الشامية) وهذا هو طعامهم الشائع، وإذا كانت الأسرة ذات وضع مالى جيد فيمكن أن يأكلوا لحم الأغنام والدجاج و يصنعوا الكِسْرَه والمَدِيدَه كأهل الشمال.

ومن عاداتهم أكل لحم الحيوانات والطيور الميتة، و يندر أن يذبحوا ثوراً أوخروفاً إلا فى المناسبات الاجتماعية الهامة، و يعتمدون فى أكلهم على ما يصطادونه من حيوانات الغابة وما يموت من الأغنام والدجاج، وهم لايذبحون من ماشيتهم، رغبةً فى تكاثرها لأنها مقياس الثروة، ولديهم نحو خمسة عشر ألف رأس من البقر وخمسة آلاف رأس من الغنم والماعز، ولديهم دجاج كثير، ومن الطيور الجارحة الصقور، فهم يسمونها بأسماء متعددة، مثل لاكوليبا، وموكو، وميلواتييه، وادنجوجو، وكانت لديهم طيور الببغاء المقلدة للأصوات لكنها انقرضت.

لا زال يوجد فى قبيلة المادي أفراد من سكان القرى النائية لم يسمعوا بالراديو والتلفزيون، ولم يزوروا حتى مدينة نيمولي، ومعظم السكان يهتمون بزراعة الذُّرة والقمح والفول وإنتاج عسل النحل الذى يُكَوِّن له خلايا داخل الأشجار، ويجمعون العسل بإشعال النيران وإثارة الدخان نحو الخلية مما يجبر النحل على التطاير بعيداً، وعندئذ يأتون لنقل الخلية كاملة بشمعها قبل أن ينتهى تأثير الدخان.

إنَّ حرفتي الزراعة والرعى ليستا هما فقط وَظِيْفَتَيْ أهل القبيلة، فهناك من يعمل بالتجارة، و يشترط أن يكون لدى التاجر رخصة، وَ يُحْضِر السِّلع من أسواق جوبا، والدكاكين عادة ليست كبيرة، فهي صغيرة تحتوى على السلع الضرورية. وعندما كنت هناك عام ١٩٨١ لاحظت أن بعض الأطعمة مثل الخبز والبيض واللحوم غير متوفرة، فذكر لى سلطان القبيلة السيد ساباسيو أنَّ سبب ذلك هو نزوح اللاجئين الأوغنديين الذين بلغ عددهم فى منطقة نيمولي وحدها حوالى ثمانين ألف لاجيء، وهم ينتمون إلى نفس القبيلتين السودانيتين؛ المادي والآشولي وْ يتحدثون لغتهما، وقد أحدثوا بمجيئهم هذا حالة من الرواج الاقتصادى حيث نزح بعضهم بأموالهم هرباً من الحرب وانخرطوا بعد ذلك فى العمل والزراعة، فازداد الإنتاج والاستهلاك.

بجانب التجارة، هناك أعمال يدوية مثل الخياطة والنجارة، ولكن عدد العاملين بها قليل، ويقبل الأولاد الآن على التعليم ويساعدون ذويهم فى الزراعة بعد الظهر، وتكثر فى مناطق القبيلة الحيوانات البرية مثل الجاموس الوحشى، والتيتل، والغزلان بأنواعها المتعددة ويسمونه الدقدق وأبوعُرُفْ، كما توجد الأفيال والخنازير البرية، والأسد، والنمر، والخرتيت، والتماسيح فى مياه الأنهار، وفرس النهر المعروف باسم سيد قشطة.

ويصطادون النمر عن طريق فخاخ ينصبونها، ويربط الى جوار الفخ خروف أوماعز، وعندما يرى النمر فريسته يسرع إليها ويهم بافتراسها فتقع أحد أطرافه فى الفخ فيمسك به، وعند ذلك يسرع إليه الصياد فينهال على رأسه ضرباً بعصا غليظة — وهو فى الفخ — حتى يسقط صريعاً، فيضمن الصياد أنه احتفظ بجلد النمر سليماً، أما من يخاف منه فيضربه بحربة تصيب قلبه، ولكن الصياد الذى يفعل ذلك لا يستطيع أن يتباهى أمام أقرانه بأنه شجاع، لأنه استخدم الحربة فى قتل النمر وليس العصا، ومن يصطاد نمراً يحتفظ بجلده ليرتديه فى المناسبات دليلاً على شجاعته.

وللقبيلة قضاؤها الخاص، فإذا ارتكب أحد جريمة قتل أوسبَّب أذىً لشخص آخر، أوسرق، تشكل محكمة من كبار السن ويتداولون القضية ويحكم على القاتل بالإعدام، ويسجن السارق، وإن كان صغيراً يودع سجن الأحداث. والاغتصاب جريمة، وفى الماضى إذا شَكَت الفتاة لوالدها أنّ شخصاً اغتصبها، فقد يقوم إخوة الفتاة بقتله، أما الآن فيذهبون إلى والد الشاب ويحكمون عليه بدفع خمس بقرات كغرامة، ثم يدفع مهراً آخر ويتزوجها رغماً عنه، وفى حالة رفضه لقرار القبيلة تحول القضية إلى المحاكم المدنية، وقد تصدر حكماً بسجنه لمدة تتراوح بين سبع وأربع عشرة سنة بالإضافة إلى فرض غرامة مالية.

وإذا حدثت مشاكل بين الجيران، يجتمع عدد من كبار رجال القبيلة لفض النزاع، وهو عادة ما يكون نزاعاً على الأرض الزراعية التى يزرعونها.

ولم يكن للفرد من القبيلة حق الاستئناف إذا أصدر السلطان أومجلس القبيلة حكماً ضده، أما الآن فهناك محكمة التميز ومحكمة الاستئناف ومحاكم ايكو، وبيكو،

وسيكو، أى محاكم متدرجة وفقاً للحروف، و« سيكو» هي المحكمة العليا، ومن يرفض حكمها يعود إلى الحكومة المركزية أوحكومة الإقليم حيث يعرض أمره على قاضى العاصمة. أما قضايا القتل، فنى الماضى إذا ارتكب شخص ما جريمة قتل، فإن السلطان يجمع كل سلاطين وشيوخ القبيلة ولا يحكمون بإعدام القاتل، وإنّما عليه أن يدفع بنتاً شابة من أسرته كفدية لأسرة القتيل، وقد استبدلت الفِدْيَةُ الآن بدفع دِيَةٍ من الأبقار، أو يحاكم بواسطة القضاء، وتطبق عليه العقوبة المناسبة.

وللقبيلة عاداتها فى دفن الموتى، فالميت يدفن فى نفس البيت، وليس لهم مقابر عامة يدفنون فيها موتاهم، وإذا كان الميت شخصية معروفة، أوكان قد اصطاد نمراً فى حياته، يوضع على قبره جلد ذلك النمر، وبعد ذلك تقام رقصة الموت حيث يحضر كل أفراد القبيلة من نساء وشيوخ و يرقصون رقصة يتخللها البكاء والعويل، وتهيل النساء التراب، على أجسادهن، و يتمرغن فى التراب، و يشرب الكبار والصغار المريسه[1] بإسراف فى ذلك اليوم.

---

(١) المريسة نوع من الخمور تصنع من الذره المخمرة.

قبيلة
الآشـــولى

(٢)

الآشـــولي

تقع مناطق قبيلة الآشولي على مساحة سبعين كيلو متراً طولاً وثمانية وثلاثين (كم) عرضا[1]، فى المنطقة الواقعة بين نيمولي وجوبا شرقى الإستوائية، تجاورها غرباً قبائل المادي ومنطقة «توريت»، وشرقا منطقة «ايبوتي»، وجنوبا منطقة ليمورو، وشمالا منطقة «دايوه». تمتد مناطق الآشولي شرقاً إلى الحدود مع كينيا، ويقع فى أراضيها أعلى جبل فى السودان وهو جبل «أبّاتالانجا» الذى يبلغ ارتفاعه نحو سبعة آلاف وخمسمائة قدم فوق سطح البحر، وعلى قمته توجد منابع مائية كثيرة، تصب جداول فى اتجاهات مختلفة، يرتوى منها الأهالى المقيمون على سفوحه ومعظمهم من الأوربيين الذين استصلحوا الأراضى وزرعوا سطح الجبل بالشاي، وأيضاً زرعت الخضروات والبطاطس والأشجار الحمضية.

وتهطل الأمطار على قمة الجبل طوال العام باستثناء ديسمبر و يناير وفبراير حيث تقل كمية الأمطار فى هذه الشهور، وترتفع درجة الحرارة لتصبح سبعا وعشرين درجة، أما فى بقية شهور السنة فينزل المطر يوميا، و يبدأ نزوله فى منتصف النهار ليتوقف بعد منتصف الليل، و يظل الجو غائماً، ولا تزيد درجة الحرارة فى موسم الأمطار على عشرين درجة، وفى الصباح تشرق الشمس وتنقشع الغيوم و يصفو الجو، وعندئذ يخرج المزارعون لمزاولة نشاطهم وأعمالهم الزراعية بهمة ونشاط قبل موعد هطول المطر، وهذا الجو ملائم لزراعة الشاى، ولذلك يعتبر الشاى المنتج فى هذه المنطقة من أجود أنواع الشاى.

تتميز الجبال بوجود معادن بها لم تكتشف بعد، مثل الحديد والنحاس والرخام.. وأحياناً يذهب الأهالى إلى خيران المياه المتدفقة من ينابيع الجبل ليجمعوا قطع النحاس المتساقط منه.

فى زيارتى «ماجوي» مركز القبيلة لتسجيل عاداتها وتقاليدها، التقيت بسلطان القبيلة واسمه «كوتابيانو كوبرياك»، يبلغ من العمر نحو خمسة وخمسين

---

(١) مصدر شفهى.

عـامـا ، ولـه زوجتـان وعـشـرة أبناء ، تقلد منصبه منذ عامين ونصف بالانتخاب ، و يـؤدى عـمـلـه كـمـوظـف حـكـومـى ، له مكتب و به موظفون ، كان معنا مفتش المنطقة وهومساعد المحافظ واسمه «ماركوألوماكي يو» ، عمره خمسة وثلاثون عاما وهو من قبيلة المادي وقد عمل مفتشاً منذ عام ١٩٧٧ ، وجاء إلى هذه المنطقة عام ١٩٨٠ ، وكان معنا سلطان آخر اسمه « اوتانوا او ينو» عمره أكثر من ثمانين عاما ، والتحق بالعمل بالحكومة كسلطان منذ عام ١٩٢٠ ، وهو متزوج ولديه ثلاثة أبناء كبار وأحفاد كثيرون ، والسلطان (يوكاس كومو) ولديه ثلاث زوجات واثنا عشر ولدا .

كـان الـسلاطين يجيبـون على أسـئـلـتـى بلغتهم ، بينما تولى المفتش الترجمة إلى العربية بلكنة جنوبية .

وأول مـا عـرفـتـه منهـم أن « الآشـولي » يتفرع عنها قبائل صغيرة تسمى بأسماء المناطق مثل ماجوي ، أوميرو ، أجورو أكوازا أوبو ، بالوا ، لوبولي ، ايجيلي ، وكل هـذه المنـاطـق لهـا سـلاطينها الذين يرأسهم السلطان ، وعدد أفراد القبيلة نحو خمسة وأربعين ألفا ، أى أكثر بقليل من سكان قبيلة المادي .

ترجع تسمية القبيلة إلى مؤسسها الأول « شول » ، وكان ذلك منذ ثمانمائة عام تـقـريـبـاً ، وهـو أصـلاً من قبيلة الشُلُك التى تستوطن إقليم أعالى النيل ، وهي من الـقـبـائـل الكبيرة فى جنوب السودان المعروفة باسم النيلية ، وتختلط فروع من قبيلة الـدنـكـا (أكبر القبائل فى جنوب السودان) بقبيلة الآشولي . وتنتشر هذه القبيلة فى يـوغـنـدا وكـيـنـيـا عند مناطق الحدود مع السودان ، وقد تفرع عن « شول » مؤسس الـقـبـيلة أبناؤه الذين ملكوا المناطق وَوَرَّثُوها لأبنائهم مثل « لو باتو» ، « جوتيو» ، « بوجـول » ، « بـرتـا » ، « كين » ، « تـالـروجـا » ، « ماج » ، فتاريخ القبيلة يمثله تسعة جدود تعاقبت فى عدة ممالك خلال ثمانمائة عام .

يـتـحـدث أبـنـاء الـقـبـيـلـة لـغـة الآشـولـيين ، وهـي لغة مشتركة مع لغة قبيلة « الشُلُك » وقبيلة « نوكورو» المجاورة لها ، وتستطيع قبائل « المادي » و« جبر يه » و« بـيـركـا » و« نـوات » الـقـريـبـة مـن مـنـطـقـة « بـور» بـأعالى النيل فَهم لغة

الآشولين ، وللآشولى فرعان فى يوغندا ؛ يسمى الأول « انجانجو» والآخر فى غرب يوغندا يسمى « اللوي » ، وفرع فى كينيا يسمى « لو» فى منطقة ماداما .

يدين معظم سكان القبيلة بالديانة المسيحية حيث تبلغ نسبة الذين يدينون بها ٥٨٪ بالمائة ، والمذاهب السائدة هي الكاثوليكية والبروتستانتية ، ونسبة المسلمين قليلة ٥ بالمائة ، أما غير المتدينين فنسبتهم عشرة بالمائة ، ويحتفل أبناء القبيلة بأعياد الميلاد وعيد الفصح ، ولهم احتفال خاص فى شهر نوفمبر من كل عام يسمونه THE SAME DAY (نفس اليوم) ، ومن الاحتفالات الخاصة بهم احتفال يوم الحصاد و يسمى فى لغتهم « كُوروجو» ومعناها الزراعة .

يتعدد السلاطين فى القبيلة كما هو موجود فى القبائل الأخرى ؛ فهناك سلطان للمطر ، وسلطان للحرب ، وسلطان للسحر (المعروف باسم الكيجور) وسلطان للأرض ، وأهمهم جميعاً سلطان المطر ، و يعتقد أهل القبيلة أن هذا السلطان بحكم علاقته الخاصة مع الإله الأكبر يستطيع أن ينزل المطر و يتحكم فيه بواسطة صلاة خاصة يؤديها ، وهم يثقون به و بقدرته على إنزال المطر والتحكم فيه وإيقافه إذا زاد كي لا يضر بمحاصيلهم ، و يعتقدون أن سلطان المطر يستطيع أن يمنع نزوله إذا جار عليه أحد ، أو غمطه حقه فى الحصول على نصيبه من المحاصيل الزراعية ، أو أهملت زراعة أرضه والعناية ببيته ، فيشيع بأنه خاطب الشمس لتحرق محاصيلهم أو يأتى بمطر منهمر ليقتل بهائمهم وَ يُفْسِدَ زراعتهم ، وعندئذ يتوجه إليه الناس متسائلين عن عدم سقوط المطر أو شدة نزوله ، الأمر الذى يسبب لهم ضرراً ، فيبلغهم أن فلاناً لم **يدفع له حصته من المحصول ، فإذا سئل الرجل وثبت أنه لم يدفع ، يطالبونه بدفع حصته للسلطان ، فيدفعها على الفور .**

أما إذا زاد سقوط المطر أو انقطع و يكون الجميع قد أدّوا ما عليهم من حقوق ، فإن سلطان المطر يعطى فترة إنذار لمدة أسبوع ، وعليه أن يؤدى واجبه كسلطان طالما أن القبيلة لم تهضم حقه ، وإذا زاد المطر بعد ذلك فإنهم يدفنونه حيا عقابا له ، أما إذا لم يسقط المطر فإنهم يوقدون ناراً وَ يُقَيِّدُونَه بجوارها ويحادثونه بأنه إذا كان سلطانا للمطر حقيقة ، فعليه أن ينزله ليطفىء النار حتى لا تحرقه ، وهم

يعتقدون أن هناك رباً أكبر من السلطان لايعرفون مكانه وهو وحده الذى يتصل به من خلال صلواته، وإذا سقط المطر وهو مقيد بجوار النار فإنهم يطلقون سراحه ويعتذرون له، وبهذا يتأكد لهم أنه سلطان للمطر حقيقة، وإذا لم ينزل المطر يتركونه هكذا بجوار النار إلى أن يحترق، ونادراً مايحدث موقف كهذا لأنه دائماً يفي بوعده ويسقط المطر، ويوقفه إذا زاد.

تحدث إليّ سلطان المطر فى هذا اللقاء واسمه «نيتوــ نا» وعمره ستة وخمسون عاما، وهو يؤدى وظيفته منذ اثنين وعشرين عاما، ولم يحدث أن أخطأ مرة واحدة، ويقول إن الناس إذا تعمدت ألا تعطيه نصيبه من المحاصيل فإنه ينذرهم بأن المطر لن ينزل، وقد حدث ذلك مرة واحدة طوال فترة الاثنين والعشرين عاما، فقد منع عنهم المطر مرة لأنهم لم يعطوه شيئا من المحاصيل.

كنا فى شهر إبريل (أي مع بداية موسم الأمطار)، فسألت سلطان المطر أن ينزل فى تلك اللحظة مطراً مقابل مبلغ من المال أعطيه له، ليكون مقدمى خيراً على أهل القبيلة، فهم يستبشرون بالضيف إذا هطل المطر أثناء زيارته لمنطقتهم.

نظر إليّ السلطان بغضب وراح يتحدث بلغته إلى من حولى منفعلاً، فانتظرت حتى يترجم لى المفتش العام، وما إن فرغ حتى عرفت أنّ السلطان قد غضب منى، وأنه يتساءل لماذا أطلب منه عملاً كهذا، لقد شعر بأنى أدفع له ثمن نزول المطر، وأنه لا يجوز أن أتدخل فى أمور تخص القبيلة، وإلا فإن الرّب الذى يصلى له سوف يغضب منه ولن يقبل دعاءه مستقبلاً، وقال إنه حتى لو أنزل المطر فإننى عندما أعود الى بلدى سوف أقول إنّ أموالى هي التى أنزلت المطر وليس السلطان.

شعرت أن السلطان اتخذ منى موقفاً، وحاولت أن أطيب خاطره وأؤكد له أننى لم أقصد استفزازه أوالتدخل فى شئون عمله، ولكي أطيب خاطره غيرت مجرى الحديث معه فسألته عن عدد أولاده فقال ستة ومن زوجة واحدة.

وتتشابه عادات القبيلة اليومية مع القبائل المجاورة الأخرى، فهم يستيقظون فى الساعة الخامسة صباحاً قبل شروق الشمس ويغسلون وجوههم وينظفون أسنانهم

بـالـسـواك ، و يتوجهون بعد ذلك إلى أعمالهم فى الصيد أو الزراعة ، يتبعهم أولادهم إذا لم يـكـونـوا مـلـتحقين بالمدارس ، وفى المساء يلتقى الكبار فيتسامرون حول النار حتى الساعة التاسعة مساء تقر يباً ، أما الشباب فهم يذهبون إلى الحفلات ، حيث الطبول والرقص حتى الحادية عشرة ليلاً .

والرجل مسئول عن جلب الذرة والطعام لأسرته والدفاع عنها وعن بيته من أيِّ خـطـر يـهـددهـا ، أمـا الـزوجة فمسئوليتها تتركز فى إعداد الطعام وجلب المياه وإعداد الخشب وأعواد السافانا المعروفة باسم القش لصنع سقف الكوخ أوغيره ، كما أنّها مـسـئـولـة عن تنظيف الأولاد والبيت من الداخل ، وعندما يكبر الأبناء يذهبون مع الأب لـيـتـعـلـمـوا مـنـه الـعـادات و يـفـهـمون تقاليد القبيلة ، والأم تعلم ابنتها هذه الـعـادات والـتـقـالـيـد ، أمـا الـسلاطين فكل يدرب أبناءه على مهنته و يشرحها لهم و يـدعـهـم يعتادون عليها ويمارسونها مثل سلطان المطر وسلطان الحرب اللذين تتطلب مهنتهما زمنا طو يلاً من التدر يب .

لم تـدخـل قـرى الـقـر يـة الكهرباء ، و بالتالى لم يشاهدوا التلفز يون وإن كان مـعـظـمـهم قد سمع به ، أما الذين فى القرى البعيدة فلم يسمعوا راديو ولم يشاهدوا إنـسـانـاً يـلـبـس نـظـارة ، ولم يـروا مـرآة ولم يـروا صورهم ، إلاّ وهي منعكسة على صـفـحـات الـمـيـاه ، وهناك مناطق وخاصة فى « ماجْوي » والمناطق المجاورة لها على الـطـر يـق الـعـام ، يمتلك أغـلـب الـسـكـان فيها الـراديـو والمسجلات التى تعمل بالبطار يات .

أمّـا عـادات الـزواج عـنـد قبيلة الآشولي فتبدأ بأن يختار الشاب زوجته و يتفق معها على الزواج .. ثم يُبَلِّغ الشاب أسرته ، وَتُبَلِّغ والدته بدورها كبيرات السن من الـسـيـدات الـلائى يَسْكُنَّ بجوار بيت العروس ، وفى الليل يقوم الشاب و بدون علم أهـل الـفتاة بالذهاب إلى بيتها متسللاً فى جنح الظلام إلى الداخل ، ويخطف الفتاة إلى مـنـزل والـده .. وفى الـصـبـاح عـنـدمـا تكتشف الأسرة اختفاء ابنتهم ، يسألون الجيران عنها فتجيبهم السيدات : ــ إن ابنتكم خطفها فلان .

بعد ذلك يذهب أهل الفتاة إلى أهل الشاب لاسترجاع ابنتهم والاتفاق على المهر وحفل الزواج وغرامة «كسر البيت»، وكسر البيت هنا يعنى أن الشاب خطف الفتاة من بيتها عنوة وفض بكارتها، وعليه أن يدفع غرامة مقابل ذلك، ثم يدفع مهراً كاملاً، والمهر فى قبيلة الآشولى ليس من الأبقار لعدم وجودها فى مناطقهم بسبب رطوبة الأرض من كثرة الأمطار، وإنّما يقدم الشاب مهره من «المالوده» أوالخراف، «والمالوده» هي آلة زراعية حديدية تستخدم فى حرث الأرض، وكل خمس مالودات تساوى خروفاً واحداً، ثم يدفع غنما من عشرين إلى ثلاثين رأساً، بالإضافة إلى دفع مبلغ من النقود (من خمسة إلى ثمانية جنيهات) كما أنه يساعد والد الفتاة فى زراعة أرضه وسقيها وحرثها.

فى اليوم التالى من عودة البنت إلى أهلها يبدأ والد الشاب مناقشة موضوع الزواج مع والد الفتاة و يدفع المهر، و يعد لإقامة احتفال بَرَكَة، حيث يحضر والد العريس خروفاً يذبحه على شرف والد العروس، و يدعو الناس لتناول الطعام، وتسمى هذه المناسبة باحتفال البركة، وهذا معناه موافقتهم على تسليم البنت إلى زوجها.

ومن تقاليدهم فى الزواج ألا يتزوج رجل من نفس أسرته حتى الجد السابع، لأن ذلك فى أعرافهم تنتج عنه عيوب فى النسل، كما يرون أن أهل الأسرة والأقارب هم إخوة وأخوات و بالتالى لا يجوز التزاوج بينهم، إلا أن هذه القيود قد خفت الآن إلى حد كبير.

ومن تقاليد القبيلة أنه طالما اختار الفتى زوجته فليس لأسرة الفتاة أيّ مسئولية إذا اكتشف أنها ليست بكراً، فطالما اختارها ودفع المهر فليس من حقه أن يشكو منها أويطالب باسترداد المهر.

وإذا حاول شاب الاعتداء على فتاة أواغتصابها، فالحكم فى هذه الحالة أنه إذا كانت الفتاة فى سن البلوغ، فإنّ على الشاب أن يدفع غرامة (كسر بيت) أي فض بكارة، وإذا كانت صغيرة فإنه يدفع غرامة مالية كفدية وغرامة كسر بيت،

ومثل هذه الحوادث فى القبيلة أصبحت الآن تعرض أمام المحاكم حيث يدفع المعتدي الغرامة ويحكم عليه بالسجن.

وغرامة كسر البيت عادة تُقَدَّرْ بنحو ثلاثين جنيها، وإذا وعد الشاب الفتاة بالزواج وعاشرها دون أن يتزوجها، فإنها فى هذه الحالة تخطر أهلها الذين يطالبون الشاب بدفع الغرامة، ثم يدفع مهرها لأنه لابد أن يتزوجها. وعند ذلك لايكون هناك سبب للذهاب إلى المحكمة.

* * * * *

ليس هناك زي معين يرتديه العريس أوالعروس ليلة الفرح أواحتفال البركة، وإنّما يقيمون حفلاً يدفع فيه المهر ويشربون المريسة، وهو شراب مسكر من الذرة، إلاّ من يذهب منهم إلى الكنيسة فإنه فى هذه الحالة يرتدى ملابس خاصة، وعادة ماتكون الفتيات الصغيرات عاريات، فالبنات فى الماضى لم يَكُنَّ يرتدين ملابس كاملة، والأولاد والبنات دون العاشرة كانوا عراياً تماماً، أما من هن فى سن البلوغ واللائى برزت صدورهن فيرتدين رداءً يشبه التنورة القصيرة من الجلد على شكل شرائح، وما فوق ذلك فهو عار، أما الآن فأصبحن يرتدين الفساتين، ومن لاتملك فستانا فيكفى أن ترتدى «سوتيانا»، والذين يعيشون بعيداً عن المدن والقرى الكبرى فهؤلاء لازالوا كعادتهم القديمة يرتدون نصف الملابس.

وقد عرفوا استخدام القماش كرداء عام ١٩٢٨ من الجنود الأتراك أوالمصريين أومن الكنيسة، وقبل ذلك كانوا عراةً، أما النساء فكُنَّ يرتدين أشرطة جلدية لستر العورة فقط.

ورغم أنهم يدينون بالمسيحية، إلاأنهم يتزوجون أكثر من واحدة ولايدخلون الدين فى عاداتهم، والسلطان يستطيع أن يتزوج كما يشاء حسب قدراته الجنسية والمالية، ويمكن لبنت السلطان أن يتزوجها رجل عادي، كما أن ابن السلطان قد يتزوج فتاة عادية، وفيما مضى كان لايحدث ذلك، فأبناء السلاطين لايتزوجون إلامن بنات السلاطين. وهم لايعرفون الختان للأولاد أوالبنات.

وكانت ولادة الطفل تشرف عليها امرأة مُسِنّة، أما الآن فإن المُولِّده (الدّاية) تقوم بذلك، وتسمى البنت بعد أربعة أيام من ولادتها ، و يسمى الولد بعد ثلاثة أيام ، ولا فرق عندهم بين الأولاد والبنات ، وهم لايفرقون بينهما فى الميراث .

وإذا توفي رجل فى الأسرة ولديه أكثر من زوجة فإن ابنه الأكبر أوشقيقه يرث زوجاته باستثناء الأم ، والزوجة التى تكبره سنا ، و ىنجب منهن و يسمى أبناؤه باسمه .

تعانى القبيلة من الأُميّة ، فالتعليم قليل فيها ولايزيد عدد الذين حصلوا على شهادات جامعية على عشرة أشخاص ، والذين حصلوا على تعليم ثانوى يقدرون بمائتين ، و يتعلم الأطفال فى المدارس اللغتين الانجليزية والآشولية ، ولايتعلمون العربية ، والمتعلمون منهم يتحدثون مع القبائل الأخرى ــ التى لا تتحدث لغتهم ــ بالإنجليزية ، أمّا غير المتعلمين فيتحدثون بالعربية الدارجة محلياً .

المهنة الرئيسية لقبيلة الآشولي هي الزراعة والصيد ، أما الصناعات المحلية مثل الأدوات الموسيقية أوتلك الأشياء التى يصنعونها من الجلد أوالخشب ، فإنهم لا يعتبرونها مهناً ، وإنّما مجرد هواية وتسلية .

و يتميز الآشوليون عن القبائل الأخرى بعلامات كانوا يرسمونها فى الماضى على صدور الفتيات والفتيان ، حيث كانوا يصنعون نقوشاً مزخرفة على شكل زهرات ومثلثات وخطوط حول الثديين وعلى البطن ، وكانوا أيضا ينزعون سنين سفليين من أسنان الفتيات كنوع من التجميل والتعريف بالقبيلة ، وكان الرجال يحفرون على أجسادهم بآلة دقيقة تتحرك على الجلد لترسم هذه النقوش دون أن يبدى الواحد منهم أيَّ ألم ، وقد بدأت هذه العادات الآن تتوارى .

والآشوليون متوسطو الطول ، كما أن متوسط العمر يتراوح مابين خمسة وخمسين وستين عاماً ، وتنتشر بينهم أمراض الملاريا والحصبة والدوسنتاريا والبلهارسيا ، وأمكن لهم أن يتحصنوا ضد الكوليرا ، و يندر وجود مرض النوم الذى تسببه ذبابة (التسي تسي) .

و يؤمن أهل القبيلة بالسحر، والسحر له سلطان خاص يعرف بسلطان «الكيجور»، وقليلون هم الذين لايعتقدون فيه.

أما غذاؤهم فهو من الذرة والدخن والأشاريف (الذرة الشامية) والسمسم واللوبيا، وعندما أعربت لهم عن دهشتى لأنهم يأكلون اللحوم المَيِّتة، ضحكوا وقالوا إنّهم لا يرون فى ذلك أيَّ غرابة، فهو أمر عادي بالنسبة لهم، وهم يعتمدون على لحوم حيوانات الصيد، ولا يذبحون أغنامهم ومواشيهم لأنها تمثل ثروتهم الحقيقية. وتكثر فى مناطق الآشولي الحيوانات الغابية كالأسد، والنمر، والجاموس الوحشى، والتيتل، وفصائل الغزلان المختلفة مثل، أبونَبَّاح، وكتنبور، والدّقدِق، كما تكثر فى مناطقهم الأفاعى من نوع الأصلة التى يبلغ طولها نحو خمسة أمتار، وهي ضخمة الجسم لذا تتحرك ببطء، فهي غير سامة وتبتلع ضحيتها إنساناً كان أم حيواناً، و يصطادونها بالحراب، و يستخدم جلدها فى صنع حقائب السيدات والأحذية، وهو غالي الثّمن.

ومن الأخطار التى تهددهم إذا تعرض قطيع من الأغنام لهجوم من حيوان متوحش كأسد مثلاً، فإنّ راعية الغنم (وهي عادة ماتكون فتاة) تسرع إلى إبلاغ الكبار بما حدث، فيحمل الشباب حرابهم و يقتفون أثره و يشكلون دائرة واسعة حوله و يضيقون عليه شيئاً فشيئاً، إلى أن يكون فى مرمىً من الحربة، وعندئذ توجه إليه الحربة الأولى لتنغرز فى جسده (ومن طباع الأسد أنه لا يهاجم حتى ينزع الجسم الغريب من جسده) فيحاول سحب الحربة بأسنانه، وفى خلال ذلك تنهال عليه حراب أخرى فيسقط صرِيعاً، ومن عادة الأسد ألاّ يهاجم الإنسان العادي، ولكنه يهاجم الحيوان والانسان الذى يخافه ويجري منه، وكثيراً مايلتقى إنسان مع أسدٍ فى الغابة، كل يمشى فى طريقه، لا يتعرض له الأسد بسوء طالما ظل ثابتاً لا يخافه أويجري منه، والأسد العجوز هو الذى يطارد الإنسان لأنه يعجز عن مطاردة الحيوان، وإذا ذاق طعم لحم الإنسان فإنه يفضله على لحم الحيوان لملوحته ولا يأكل غيره، وعند ذلك يتكاتف أبناء القبيلة و يقتلونه، و يقيمون احتفالاً بعد قتله.

تنتشر فى مناطق الآشولى كذلك الثعابين والعقارب ولا تسبب لهم خوفاً، فرغم كثرتها إلا أنه من السهل عليهم أن يعالجوا لدغة العقرب أو الثعبان، وذلك بجرح موضع الإصابة وامتصاص الدم الذى يوجد به السم، ثم يداوى الجرح بأعشاب محليّة يشفى بعدها المصاب تماماً.

فى الماضى كانت القبيلة تتعرض لأخطار من نوع آخر، وذلك عندما يواجهون غزواً، حيث تعين القبيلة حرّاسا حول المنطقة للمراقبة، وعندما يشاهدون الغزاة، يدقون على طبولهم بإيقاعات معينة، يفهم منها أن هناك خطراً على القبيلة، وعندئذ يخرج الناس من بيوتهم و يتركونها خالية ويختفون فى مكان بعيد، حتى إذا دخل العدو منطقة السكن التفوا حوله وقضوا عليه.

و بيوتهم عبارة عن أكواخ تسمى القطاطي، ولا توجد لديهم منازل مبنية من الطوب والحجارة، إلا أنّ الأثرياء منهم أو السياسيين قد يبنون غرفة أو غرفتين بجوار القطية و يسقفونها بالزنك.

و يزرع أبناء القبيلة الشاى والبن والأرز والقصب والأشاريف (الذُّرة الشامية)، والزراعة أفضل مجال للاستثمار، ولا يزيد دخل الفرد منهم فى العام على مائتي جنيه، وهذا أعلى دخل وتحققه التّجارة. أما أقل دخل فيقدر بعشرين جنيهاً سنوياً.

والاتجاه الآن لدى الأهالى هو الحرص على تعليم أبنائهم، ولذلك تمثل المدارس أولى احتياجاتهم بجانب تمهيد الطرق وتسويتها، إضافة لحاجتهم إلى طاحونة كبيرة لطحن الغلال (من ذرة وقمح)، تلك الحبوب التى يعتمدون عليها فى غذائهم اليومى.

* * * * *

قبيلة
اللآتوكا

(٣)

اللاّتوكــــا

تـعـتبر قبيلة اللاّتوكا من القبائل الصغيرة في إقليم الإستوائية حيث يتراوح عدد أفـرادهـا بين أربـعين وخمـسين ألـفـا ، يعيشون فى مساحة جغرافية صغيرة تقدر بنحو سبـعة آلاف وخمـسمـائـة كـيـلـو متر[١] قـرب مدينة توريت عاصمة محافظة شرق الإستـوائية ، والقبيلة عبارة عن مجتمع صغير متجانس يحرص أفراده على التّعاون فيما بينهـم ، وهـي مـن الـقبائل النّيلية الّتى دخلت الأراضى السّودانية منذ بداية القرن الـتّاسع عشر مـن شرق أفـريـقـيـا ، عبر مـنـاطـق « مـونـداري » ، « نـوكـورو » و« لـوتـوكـيـه » على الحـدود الـسّودانـيـة الـكينية ، و ينتمى إلى هذه القبيلة السيد جوز يف أدوهو[٢] .

وتـتـميز المنـطـقـة بـوجود سلسلة جبلية متصلة من توريت حتى يوغندا ، وهناك جـبـل مـرتـفـع هـو جـبـل جـيـلو الذى يعتبر ثانى أعلى جبل فى السّودان بعد جبل « أبّاتـالانجا » الّذى يقع فى منطقة الآشولي ، و يبلغ ارتفاع جبل جيلو سبعة آلاف قـدم فـوق سـطـح الـبـحـر ، استوطنه الأور بيون فى السبعينيات إلى جانب الأهالى الّـذيـن كـانوا يعيشون عليه منذ زمن واستصلحوا سطحه العلوى ، وزرعوا منخفضاته بـالـبـطـاطـس وسفوحه بالشّاى بعد أن أزالوا غابات كبيرة من أشجار باسقة يصل ارتـفـاع سـاق الـواحـدة المـسـتـقيم حـوالـى عشر ين متراً ، وتستعمل أحياناً كأعمدة لأسلاك الهاتف ، كذلك توجد ينابيع مائية تتدفق على جنباته ، يرتوى منها الأهالى أسـفـل الجـبـل ، ونـظـراً لارتـفـاعـه و بـرودتـه فـلا يـعيش فيه البعوض أوالحشرات اللاّسعة ، وإن كان يوجد به قليل من الذباب .

على قمة الجبل توجد استراحة ضخمة بنتها بر يطانيا خلال الحرب العالمية الثّانية لـيـجـتـمـع فيـهـا قـادة جـيـوشـهـا فى شرق أفر يقيا والسّودان ، والطّريق إلى قمة هذا

---

(١) مصدر شفهى

(٢) شغل عدة مناصب وزارية فى الحكومة الإقليمية والآن يعتبر أحد كبار مساعدى العقيد جون قرن فى الحرب الأهلية الدائرة حالياً فى جنوب السودان .

الجبل ــ حيث توجد الاستراحة ــ طريق حاد ومتعرج وغير مرصوف ، و يبلغ طوله نحو عشرة كيلو مترات ، ولاتزال الاستراحة موجودة ، وأصبحت استراحة حكومية .

وتتميز قبيلة اللاّتوكا بعادات تختلف عن عادات القبائل المجاورة لها ولا يزال النّظام الملكى والنّظام الطّبقى قائما فيها .

وقبل أن أتوجه إلى مقر الملكة لأتعرّف عليها وأعرف منها عادات وتقاليد قبيلتها ، أرسل مساعد المحافظ بتوريت[1] مَنْ يبلغها أنّنى قادم إليها فى اليوم التالى لتكون فى انتظارى ولتبلغ مساعديها والسّلاطين فى قبيلتها لحضور هذا اللّقاء .

كنت قد سكنت فى استراحة توريت الحكومية وأمضيت تلك اللّيلة على أن أتوجه غداً إلى مقر الملكة الّذى يبعد حوالى أربعة عشر كيلومتراً من توريت فى شرق الإستوائية ، ورحت أتخيل كيف سألتقى بهذه الملكة ، وهل هي ملكة كسائر الملكات فى الدّول الأخرى أم مجرد لقب تحمله امرأة تسكن فى غابة وفى كوخ (قطية) وسط أكواخ (قطاطي) تنتشر حولها .

حاولت فى نفس اللّيلة أن أتعرف من المسئولين على ملامح تلك الملكة لتكون لديّ معلومات أولية وصورة عنها حتى لا أفاجأ عند مقابلتها ، واستطعت أن أجمع بعض المعلومات ، وأصبحت متحمساً للقائها .

وصلنا فى اليوم التّالى إلى مملكة اللاّتوكا ، وأوقف المرافقون السيارات أمام مجموعة من العشش ، وطلبوا منا النّزول ، إلتفّ حولنا الأطفال الصّغار كتعبير عن حب استطلاعهم تجاه الغرباء ، ثم تقدم مرافقون ليدلّونا على سكن الملكة ، ومن حولنا تناثرت العشش وتجاورت ، دخلنا طرقات لا يزيد عرض الطّريق فيها على متر ونصف متر، سرنا مسافة ثم انعطفنا يساراً إلى طريق بنفس سعة الطّرقات الأخرى ، ثم يميناً و يساراً مرة أخرى ، ثم بدت لنا من بعيد عشة ضخمة تتوسط مجموعة من العشش الصّغيرة ، عندها قال أحد المرافقين ذاك هو بيت الملكة ، إنه

---

(١) توريت هي مركز هذه القبيلة والقبائل المجاورة ، وفيها مقر المحافظ ومقر المسئولين من القوات النظامية .

يتميز بارتفاعه وضخامته عن كلّ بيت حوله ، وكانت العشش التى نراها على جانبي الطّريق متراصة ، أُحيط كلّ ثلاث أوأربع منها بسور من البامبو (القنا) .

كان الأطفال يتبعوننا ونحن نسير إلى حيث الملكة ، و يتطلعون إلينا و يتكلمون بلغتهم ، حتى وصلنا فى زفة كبيرة إلى سور ذلك السكن الملكى ، وهناك مدخل بعرض سبعين سم مسدلة عليه ستارة من الخيش ، إنّه المدخل المؤدّى إلى سكن الملكة ، أُوقفنا عند هذا المدخل ، وتقدم سلطان القبيلة الّذى كان يرافقنا إلى الدّاخل ليُعَرِّف الملكة بوصولنا ، ثم عاد بعد قليل يدعونا للدّخول .

الملكة منتصبة فى وسط الفناء (الحوش) ، متوسطة الطّول لون بشرتها أفتح من كل من حولها ، ترتدى فستاناً متواضعاً وفوقه مايشبه الإزار، تنتعل إسفنجة وتبلغ من العمر نحو خمسة وأربعين عاماً ، وقف بجوارها رجل مسن يرتدى الملابس الكاكية ، عبارة عن قميص و بنطلون (شورت) ، عرفت أنه زوجها الّذى تزوجها بعد وفاة شقيقه الملك « أفجور بلاتينو » الّذى توفي عن عمر يناهز الستين ، ثم أصبح شقيقه بعد وفاته زوجاً للملكة بحكم التّقاليد .

رحبت بنا بلغتها ، وترجم لنا السلطان هذا التّرحيب ، فشكرناها على حسن الاستقبال ، وتقدمت أمامنا فى اتجاه حصيرة فُرِشَتْ فى ظِلِّ منزلها (العشة الكبيرة) لتجلس عليها ، وعلى الحصيرة جلست إلى يمينها ، وزوجها إلى يسارها ، وأمامنا على الأرض جلس المرافقون وكبار رجال القبيلة على شكل نصف دائرة .

قدمت نفسى إلى الملكة وعَرّفْتُها الغرض من زيارتى ، فكررت ترحيبها ، و بدا عليها الهدوء والوقار، شعرت رغم بساطتها و بساطة المكان أنني فعلاً أمام شخصية لها مكانتها فى هذا المجتمع الغابى ، عَرَّفَتْنى أن من يجلس إلى جوارها هو زوجها شقيق زوجها السّابق الملك « أفَجوُر بلاتينو » الذى توفي وترك لها الْمُلك ، وإنه فى يوم زواجها من الملك الراحل ، نقلها أفراد قبيلة اللاّتوكا على أكتافهم من مقر سكن والدها إلى مقر زوجها الملك ، ولا شك أن هذه المهمة استغرقت أياماً وجهداً ، لحماية الملكة والسهر على راحتها بسبب طول المسافة بين بيت والدها و بيت زوجها الملك ، لأنها أيضاً ابنة ملك .

بعد ذلك تمنيت عليها أن تسمح لى بأن ألقى نظرة داخل البيت « الكوخ أو العشة » ، التى هي عبارة عن غرفة دائرية قطرها نحو ثمانية أمتار، وهي أكبر مساحة من أى كوخ آخر (فعادة لا يزيد قطر أى كوخ على ثلاثة أمتار فى البيوت العادية) ... فى داخل الكوخ مصاطب عالية ومنخفضة ، وعلى إحداها يوجد سرير الملكة و يسمى « العنقريب » مصنوع من الخشب.

وعلى اليمين بداخل الكوخ بُنِيَ رف مرتفع من الطّين على ارتفاع متر وربع ، وعليه جرار كبيرة ذات لون أسود داكن بها أجود أنواع المريسة الّتى يصنعها أبناء القبيلة خصيصا للملكة ، وهذا الكوخ الملكى يتم تجديده كل عام و يشترك كل أفراد القبيلة من رجال ونساء فى إعادة بنائه وإعداده إعداداً مريحاً ، كل هذا يتم فى يوم واحد ، وأوامر الملكة يجب أن تطاع و يعمل الجميع على خدمتها ، وهي تساعد فى جلب المطر.

فى الفناء خارج الكوخ توجد مواقد لإعداد الأطعمة للملكة وزوجها وضيوفها ، و يقوم أفراد القبيلة الذين يعملون على خدمتها بإعداد ذلك ، وكان يجلس معنا السّلطان « برنابا » وهو أحد سلاطين القبيلة ... عمره نحو خمسة وأربعين عاما ، وكان يعمل مدرساً قبل تعيينه سلطاناً من قبل الحكومة الإقليمية عام ١٩٧٤ ، تحدث معنا ، وعرفت إنّه ليس للقبيلة فروع أخرى ، وتوجد عدة قبائل لا صلة لها بقبيلة اللاّتوكا إلا فى أمر واحد وهو أنّها تتكلم نفس اللغة ، ومن هذه القبائل « هوريوك » ، و« لوبيت » ، « ولاميا » « ولوراتيو» ، « ولومي » ، ونجيولو، « وأساتون » ، وتتواجد القبيلة شرق جوبا بالقرب من توريت ، وأبرز معالمها الجغرافية جبل جيلو على الحدود السُّودانية اليوغندية الكينية ، وتحدها من الشرق كابويتا ، ومن الجنوب قبيلة إيماتون ، ومن الشّمال قبيلة لوكايا ، وتشابه قبيلة « نوكورو» التى تبعد بنحو سبعين كيلومتراً شرقى توريت قبيلة اللاّتوكا فى عاداتها ، ولقبيلة « النوكورو» لغتها الخاصة بها ، ومن أشهر أبنائها المرحوم هنرى باجو[1] .

---

(١) شغل عدة مناصب إدارية منها محافظا لشرق الإستوائية ثم وزيراً فى الحكومة الإقليمية: توفي فى حادث انقلاب فى طريق جوبا ـ تيي.

يقول جابريل صمويل ــ أحد الجالسين معنا فى سكن الملكة ، وهو مدرس تاريخ ــ إن القبيلة كانت لديها عقيدتها قبل أن يدخلها الإسلام والمسيحية ، وهذه العقيدة تؤمن بوجود إله ، وهذا الإله يتواجد فى كلّ منطقة باسم مختلف عن المنطقة الأخرى ، ولازال بعض أفراد القبيلة يدينون بعقيدتهم القديمة .

يستيقظ أفراد القبيلة فى السّاعة الرّابعة صباحاً مع الفجر، وتقوم النّساء بطحن الغلال لإعداد الطّعام من دقيق الذّرة ، و يذهب الرّجال للزراعة ، و يرعى الأولاد الماشية ، ومنهم من يذهب إلى المدرسة ، وهم يزرعون السّمسم واللّوبيا والفول ، و يقل عندهم البقر وتكثر حيوانات الصّيد مثل الغزال بأنواعه ، والجاموس ، والتّيتل ، و يوجد أيضا فى مناطق اللاّتوكا الأسد ، النّمر، والفيل ، وفى المياه التّماسيح وسمك القرموط .

وغذاؤهم يتكوّن من العصيدة ــ من دقيق الذّرة ــ والخضروات ومايزرعونه من سمسم ، ولوبيا ، ومثلهم مثل أغلبية أهل القبائل فى الجنوب يأكلون لحم الحيوانات الميتة و يشربون دم البقر بعد أن يمزجوه باللّبن ، أويجففونه و يستخدمونه فيما بعد مع طعامهم ، وتنتشر فى مناطقهم المستنقعات المائية ولذلك تتعدد الأمراض عندهم وتكثر، مثل اليرقان والبلهارسيا والدّوسنتاريا والملاريا ، ومرض (الفرنجي) وهو مرض تحدثه دودة صغيرة داخل شريان القدم فتنتفخ السّاق وتسبب آلاما مبرحة ، و يتم العلاج بقطع الشّريان ومحاولة إخراج الدّودة منه بوسائلهم البدائية ، أما الأطفال فتنتشر بينهم الحصبة والسُّعال الديكى .

وتقل نسبة التّعليم عندهم فتوجد فقط ثلاث مدارس إبتدائية ومدرسة إعدادية ، وقد تخرج من أبناء القبيلة اثنان فقط من الجامعة ، كما حصل عشرون شخصا على الشهادة الثّانوية العليا ، و يتعلم التّلاميذ فى المدارس اللّغتين العربية والإنجليزية بالإضافة إلى لغة القبيلة .

يطالب أهل القبيلة بزيادة عدد المدارس ، فالمشكلة الّتى يعانون منها هي قلة المدارس وقلة آبار المياه ، وهم يعتمدون على الأمطار الّتى يستمر موسمها من فبراير حتى أكتوبر، ولا تكفيهم الزّراعة التى تقوم على المطر، ولذلك يحصلون على ما ينقصهم من مواد غذائية من توريت لسد احتياجاتهم .

ومعظم سكان القبيلة يدينون بالمسيحية ، وقليل منهم يدين بالإسلام ، وأكثرهم يجمع بين الدِّين والوثنية . لقد جاء الدِّين الإسلامى مع الأتراك والمصريين فى القرن التّاسع عشر ، وبعده جاء الدين المسيحى مع البعثات التّبشيرية والقساوسة الإيطاليين الّذين قَدِموا إلى هذه المناطق من أوغندا . ولكن أهل القبيلة يفرقون بين عاداتهم وشعائرهم الدينية وخاصة فيما يتعلق بتعدد الزّوجات الذى يعتبر ظاهرة اجتماعية بينهم . والزّواج له طقوس عند اللاّتوكا ، الّتى تختلف عن غيرها فى بعض الأمور ، فالأسرة فى هذه القبيلة تسمح للرجل أن يعاشر الفتاة قبل الزّواج ، فإذا رضي عنها يقوم بإجراءات الزّواج ، وإذا لم يتزوجها فعليه أن يقوم بدفع عشرة جنيهات لوالدها غرامة (كسر بيت) وخمسة جنيهات أخرى للفتاة إذا حملت منه ، ويبقى الطّفل فى حضانة والد الفتاة . والسِّن الملائمة للزواج عند الفتيات هي الخامسة عشرة ، أوالرابعة عشرة وعند الفتيان من الثامنة عشرة إلى العشرين .

ولما كان البقر يندر فى مناطق اللاّتوكا ، فإنَّ المهر الذى كان يدفع هو عبارة عن آلات حرث الأرض الّتى تسمى (المالودا) وحراب الصّيد ، أما إذا توفر البقر والأغنام فالمهر عبارة عن مائة رأس من الغنم وخمس أبقار ، وقد يزداد عدد البقر إلى خمس عشرة أوعشرين بقرة ، وللرجل أن يتزوج ما شاء له من النّساء إذا كان قادراً على دفع ما يطلب منه من مهر .

ويتزوج السلطان عادة كثيراً من النّساء لأنه يملك الكثير من الأغنام ، ويتزوج السّلاطين من طبقتهم من القبائل الأخرى ، أما الزّواج العادى ، فإنَّ الشّاب يتفق مع الفتاة على الزّواج ، وعلى الفور تذهب معه إلى بيته ، بينما يذهب من يبلّغ والدها بذلك ، فيأتى الأب إلى بيت الشاب ليعيدها ، ومعنى ذلك أنَّ الفتاة تمت خطوبتها وبقي الحديث عن إتمام الزواج ، وهنا يأتى دور الزَّوج الذى يدفع ما يجب عليه من أبقار ، ويحضر للأب فروة وقميصاً ورداء القبيلة الّذى هو عبارة عن تنورة من الجلد وهذه بمثابة هدية للأب ، ولا بد أن يُعِدَّ لزوجته (قطية) وحظيرة أبقار ، ومن حقه بعد أن يقوم بكلّ ذلك أن يأخذ زوجته من بيت والدها إلى بيته الجديد ، وربما تأخذ هذه الإجراءات وقتا ، قد يستغرق ستة أشهر أوأكثر حسب حالة الزّوج المادية ، وخلال هذه الفترة يعيش الزوج فى بيت الفتاة مع

أبيها ليقوم بزراعة أرضهم ورعايتهم ، وعندما يأخذ زوجته إلى بيته الجديد يقيم حفلا (نقارة) يذبح فيه خروفا ، وتعد المريسة بهذه المناسبة ، وإذا لم يدفع الزّوج ماعليه من مهر فإنَّ والد الزّوجة يحتفظ بابنته حتى لو أنجبت .

وعندما يموت الرّجل متعدد الزوجات ، فإن من حقّ الإبن الأكبر أن يرث زوجات أبيه ، على شرط أن تكون الزّوجة الموروثة أصغر سناً من أمه ، وإذا رفضن يصبحن زوجات لعمه الأكبر ، و يسمى الأبناء الجدد بعد وفاة الزوج باسم الأب المتوفى .

ومن تقاليدهم أنه إذا مات شخص ما ، فإنه لايغسل ، و يدفن فى البيت بعد لفه فى قطعة قماش ، وتنتحب عليه النّساء ، وفى اليوم التّالى يذبحون خروفاً أو بقرة ليأكل المعزون من أقربائه و يشربون الكثير من المريسة .

أما الملك فله نظام آخر فهو لايتزوج إلا من بنت ملك أوسلطان ، و بنت الملك لاتتزوج من الأفراد العاديين وإنما تتزوج من ملك من قبيلة أخرى ، ومهرها غالٍ ، إنه خمس وعشرون بقرة ، فيما يدفع النّاس العاديون خمس عشرة بقرة ، وتحمل على الأكتاف لنقلها من بيت والدها إلى بيت زوجها الملك .

وإذا مات الملك يقام له احتفال كبير يشترك فيه كل أفراد القبيلة حيث «يَدُقُّون النُّقَّارة»(١) ، و يرقصون رقصة الموت بدقَّات حزينه ، و يشربون الكثير من المريسة الّتى تصنع خصيصاً لهذه المناسبة .

وإلى جوار الملك يوجد السّلطان ، الّذى يجمع الضَّرائب للحكومة الإقليمية حيث أن كلّ شخص بالغ ، يدفع كل عام أربعة جنيهات ونصفا كضريبة ، و يعفى من ذلك كبار السِّن ومن لا يملك شيئاً .

والسُّلطان بمثابة قاض يفض المنازعات من خلال محكمة صغيرة فى القبيلة ، ومعظم النّزاعات هي سرقة الأبقار الّتى كثيراً ما تحدث مع القبيلة المجاورة ، وهي قبيلة التّابوسا المعروفة بحب استيلائها على أبقار القبائل المجاورة ، ومن الأمور الّتى

(١) أتي يضربون على الطبول .

تثير المشاكل و ينبغى على السّلطان أن يحلها ، هي مشاكل زراعة الأرض ومشاكل الزّواج ، والسّلطان يجلب المطر ، و يساعده فى ذلك أحياناً الملك أو الملكة .

كان لأهل اللاّتوكا علامات مميزة مثل تشليخ الأذن ، وإزالة اثنين من الأسنان السُّفلى ، أما الآن فقد أبطلوا هذه العادات .

يرتدى أبناء اللاّتوكا فروة الحيوان الّذى يصطادونه أوجلده ، و يزينون أنفسهم « بالسُّكْسُكْ » أى الخرز الصّغير المُلّون وخاصة فى الحفلات الّتى يسمونها « النُّقَارة » ، والنقارة هي الطّبلة الّتى يدقون عليها و يرقصون على أنغامها ، وهم يميلون إلى الألوان المزركشة ، أما فى الأوقات العادية فالرِّجال شبه عرايا ، والنّساء يرتدين قطعاً من الجلد تغطى النّصف الأسفل من الجسم حتى الرّكبة ، وفى المدن يرتدون ملابس كاملة ، وقد عرفوا استخدام القماش على يد القادمين إليهم من شمال بلادهم فى أوائل القرن العشرين .

وللقبيلة قضاتها من السّلاطين ، والقتل جريمة ، يحكم فيها على القاتل بالإعدام حيث يحول السُّلطان القضية إلى السُّلطة الحكومية فى توريت لتعيد النظر فى القضية ، وقد تؤيد الحكم بالإعدام . وإذا عاشر رجل امرأة متزوجة فإن عليه فى المرة الأولى أن يدفع عشرة جنيهات غرامة (كسر بيت) للزّوج ، وإذا تكرر فعليه أن يدفع غرامة أكبر وهي خمسة عشر جنيهاً و يسجن لمدة عشرة أيام ، وفى المرة الثالثة فإن عليه أن يدفع كل ما دفعه الزّوج من مهر سواء كان بقراً أومالاً أويسجن لفترة طويلة .

وإذا اغتصب رجل فتاة ، فإن من حقّها أن تشكوه عند السلطان الذى يحكم لها فى هذه الحالة بغرامة (كسر بيت) وقدرها خمسة عشر جنيهاً ، وإذا وافق الرجل على الزّواج منها ، فإن عليه أن يحضر خروفاً و يذبحه ويمسح بدم الخروف وظلفاته وكرشته على البنت كنوع من الاعتذار لها ، ثم يحضر مهرها لأهلها ، و يصبح بعد ذلك زوجاً لها .

وقد تحل الخلافات فى القبيلة بالحسنى دون الذهاب إلى السّلطان ، و يتم ذلك بأن تدق « النّقارة » إعلاناً بأنّ هناك اجتماعاً لأهل القبيلة لعقد صلح فى خلاف

ما ، وعندئذ يجتمع عدد من كبار رجال القبيلة و يتناقشون لحل الخلاف حلاً يرضي الطّرفين المتنازعين .

ولا يعمل أبناء القبيلة فى الزِّراعة فقط ، فمنهم مَنْ يعمل فى مهن حرفية ، كالحدادة ، والصّناعات اليدوية من الخشب مثل المقاعد والسّراير، و يصنعون كذلك «الجرار» من الطّين ليحفظوا فيها المريسة أوعسل النّحل الّذى يستخرجونه من خلاياه فى الأشجار عن طريق إشعال النّار وإثارة الدّخان .

ومتوسط عمر الفرد فى قبيلة اللاّتوكا سبعون عاماً وقد يصل بعضهم إلى خمسة وثمانين عاماً ، ولا يوجد فى قراهم البعيدة كهرباء و بالتّالى لا يعرف أكثر سكانها التّلفزيون أو الراديو ومعظمهم لم يسمع به ، وعلاقتهم بوسائل الحياة الحديثة مقطوعة لبعدهم عن المدينة وصعوبة الاتصال بها ، ووسيلة السّفر الوحيدة هي المشى على الأقدام .

ومنطقة اللاّتوكا غنية بالمعادن ، وقد أَجْرَتْ شركة توتال الفرنسية عمليات تنقيب عن البترول فى جنوب شرق جوبا ، ودلت النّتائج على احتمال وجوده فى هذه المنطقة .

* * * * *

قبيلة
التابوسا

(٤)

التابوســـا

تتواجد قبيلة التّابوسا فى المناطق الواقعة بأقصى شرق الإقليم الإستوائى، ومركزها كابو يتا، وتمتد إلى الحدود مع كينيا، و يتميز أفرادها بالشّراسة والحدة، ولا تزال القبائل المجاورة لها مثل الدّادينجا والبو يا تعانى من هجمات أبناء هذه القبيلة والاستيلاء على أبقارهم وماشيتهم، ذلك أن قبيلة التّابوسا تَعْتَبِرْ أن كلّ البقر الّذى يوجد على وجه الأرض هو حقّ لهم وحدهم، ولهذا لا يعتبرون قيامهم بخطف بقر القبائل الأخرى سرقة، إنما ملك يستردونه، و ينظرون إلى القبائل المجاورة على أنها عدوة لهذا السبب، وهذا الاعتقاد فى ملكية البقر يوجد أيضا لدى قبيلة توركانا فى كينيا.

وتأكيداً على أن الشّراسة والحدة متأصلة فى قبيلة التّابوسا، فقد كان يحدث قبل مجيء الأتراك والمصريين والإنجليز إلى هذه المنطقة، أنّه إذا أراد أحد أن يتقدم لخطبة فتاة فإن عليه أن يذهب و يقطع أُذناً آدمية من أهالى القبائل المجاورة ليقدمها كمهر الخطوبة أوعربون الزّواج، ومن لايفعل ذلك لا يحظى بزوجة، وقد أبطل الإنجليز هذه العادة بعد محاولات كثيرة، مما اضطرهم إلى إعدام كل من يضبط متلبساً بقطع آذان إنسان، و يتركون جثته معلقة لمدة يومين أمام الأهالى ليكون عبرة لغيره.. وتجنباً للعقاب الإنجليزى كانوا يذهبون خلسة باللّيل و يعتدون على النيام من القبائل الأخرى و يقطعون الآذان ويختفون، حتى تلاشت هذه العادة تماماً واختفت.

ومن السّهل معرفة أبناء قبيلة التّابوسا بعلاماتهم المميزة، وهي وضع حلق ثقيل فضى أونحاسى على الأذن حتى تبدو متهدلة، ولا تزال هذه العلامة تميزهم فى القرى والجبال، ومن العادات الّتى كانوا ينفردون بها هي طريقة تعاملهم مع الموتى، فهم لا يدفنون موتاهم وإنّما يكتفون بتغطيتهم بقطعة من الجلد وتركهم فى العراء.

وتتميز المنطقة الّتى يعيشون فيها بوجود جبال صغيرة مثل جبل كابو يتا ، وهو جبل غنيٌّ بالثّروات المعدنية وخاصة الذّهب حيث يستخرجون منه الذّهب الصّافى (عيار أربعة وعشرين)، وقد منعتهم الحكومة الإقليمية فى أواخر السبعينيات وطوقت الجبل بأفراد الجيش لحماية هذه الثّروة، ولكن لم يحد هذا الإجراء من نشاط الأهالى للحصول على الذّهب من الجبل.

ولأهمية هذه المنطقة يجري العمل فى إنشاء طريق بري مسفلت يربط بين جوبا ونيروبى ماراً بمدينة كابو يتا.

* * * * *

فى زيارتى لمنطقة القبيلة إلتقيت بعدد من أبنائها، كان معى المفتش «جَبْرابِيل جارانج» وهو من قبيلة الدّينكا وعمره اثنان وثلاثون عاماً، أمضى فى كابو يتا ثلاث سنوات، والسّلطان بيتر ماتينو وعمره ستة وخمسون عاماً، ومتزوج من خمس نساء ولديه أحد عشر ولداً وسبع بنات، وهو سلطان منطقة ماسنجو الّتى تبعد عن «كابو يتا» بنحو اثنى عشر ميلاً، والسّلطان يوسف إيكو وعمره نحو سبعين عاماً (كبير السلاطين)، تزوج عشرين امرأة جميعهن على قيد الحياة وفى عصمته، لكل واحدة منهن كوخ خاص (قطية)، وبجواره فى المنطقة أولاده **وأحفاده الذين يسكنون فى شبه قرية كامله (حلّة)، وكانت اخر فتاة تزوجها السّلطان يوسف عام ١٩٨٠ وعمرها ثمانية عشر عاماً.**

هناك اثنا عشر سلطانا فى قبيلة (التّابوسا) فى اثنتى عشرة منطقة هي لوا جو، بوتو، بارتيجا، ماشي كاريناب، وتحتل هذه المناطق ثمانية عشر ألفا وخمسمائة ميل مربع(١)، وتحدها من الغرب منطقة كاجي كوم، ومن الشّرق حدود أثيوبيا، وفى الجنوب حدود أوغندا، وفى الشّمال منطقة جونقلى بإقليم أعالى النيل، و يبلغ عدد أفراد القبيلة نحو مائتي ألف نسمة.

عندما بدأت أتحدث مع السّلاطين لاحظت توجساتهم تجاهى، قال لى أحدهم: ــ إنكم تجيئون هنا كثيراً وتطلبون منا أن نجيب على أسئلتكم ثم

---

(١) مصدر شفهى.

لا تفعلون شيئاً ولا تقدمون لنا أيّ خدمات ، فأوضحت له أنني لست من المسئولين الّذين يقصدهم وإنما جئت أسجل حياتهم وعاداتهم ، وبدا أنه لم يفهم ما أريد فتولى المفتش جَابرابيل جارانج الّذى كان يقوم بدور المترجم ، شرح الموقف ، وعند ذلك اطمأن السّلطان لى وواصل حديثه ..

يُعْتقد أن قبيلة التّابوسا وفدت إلى الأراضى السُّودانية من يوغندا قبل نحو خمسمائة عام ، ويتكلم أهلها لغة خاصة بهم ، تشاركهم فيها قبائل أخرى ، مثل كاراجون ، ودودوس فى أوغندا ، وتوركانا فى كينيا ، ومنذ أن وفد إليها المبشرون الأوربيون فى أوائل القرن الحالى ، بدأ استخدامهم للحروف اللاّتينية فى كتابة هذه اللّغة ليسهل تعليمهم ونقل الدّين المسيحى إليهم ، وكان الإسلام قد دخل منطقتهم قبل المسيحية إبّان الثّورة المهدية ، وعلى يد الأتراك والمصريين ، وفى الماضى كان يشترط أن يكون السّلطان مسلما ، وآخر هؤلاء السلاطين المسلمين ، هو يوسف إيكو أكبر السلاطين سناً ومركزاً . أما الآن فلا يشترط أن يكون السّلطان مسلماً ، ومعظمهم مسيحيون ، ويذهب مسلموا القبيلة إلى المسجد ، دون أن يكون لديهم معرفة بالصّلاة ومواقيتها ، كما يعرفون الصّوم ، ولكن لا يعلمون كيف يصومون ومتى ، وقد سمعت من السلطان يوسف إيكو قوله : — إنه لا يوجد أحد يرشد المسلمين إلى تعاليم دينهم ، ولذلك فَهُمْ لا يعرفون الوضوء ، ولا كيف يصلّون ، وإنما يدخلون المسجد ويصلون كل حسب طريقته ، ويسمعون عن الصّيام فى شهر رمضان ، ولكن لا يعرفون متى يجيء ولا كيف يصومون ، فإنْ سمعوا به صاموا ، وإذا عطش أحدهم فإنّه يشرب .

إن أبرز سمات القبيلة هي كثرة البقر عندهم ، وهو يمثل ثروتهم الحقيقية ، وطبقاً للإحصائيات الرّسمية — كما يقول المفتش « جابرابيل جارانج » — فلدى هذه القبيلة سبعمائة وخمسون ألف بقرة ونحو نصف مليون رأس من الأغنام ، وتتميز الخراف والنّعاج عندهم عن غيرها فى المناطق الجنوبية الأخرى ، فرقبتها شبه متهدلة مثل البقر وذيلها ملموم كروي ، ولذلك تعرف باسم خراف كابويتا ، ويعتقدون أن لهم الحقّ فى الاستيلاء على بقر القبائل الأخرى ، والويل كل الويل لمن يدخل مناطقهم من أى قبيلة ومعه بقر، فإذا وقع فى قبضتهم

« ينخموه » أى يعتدون عليه و يغدرون به ، ومن يسير بلا بقر أوغنم ضَمِنَ سلامته ، ولا زالت قبيلة الدّادينجا والبو يا تمثلان مصدراً للتابوسا للحصول على المزيد من البقر، وذلك بشن الهجمات عليها وقتل أفرادها والاستيلاء على ماشيتها ، وأهل التّابوسا يُسمُّونَ هاتين القبيلتين بالعدو رغم أن أراضيهم متجاورة ، ولا تبعد عن أراضى التابوسا بأكثر من ثلاثين كم ، وعندما يشاهدون واحداً من هاتين القبيلتين ينادون بعضهم بعضا صائحين : ــ « كَمْ كاتيه » أي يوجد عدو هنا ، وسرعان مايهجمون عليه ، و يستولون على ما معه من أبقار أو أغنام ، ولا يتخذون هذا الموقف العدائى مع القبائل الأخرى البعيدة .

إن اهتماماتهم تتركز حول جمع أكبر عدد من البقر، وكان يعاب على الرّجل الذى يعمل بالزّراعة ، فتلك هي مهنة النّساء ، أما الرّجل فيرعى البقر، و يزيد من أعدادها ، ويحفر آبار المياه ، وفى الوقت الحاضر أصبح الرّجل يشارك المرأة فى الزّراعة بعد أن شجعتهم الحكومة الإقليمية على ذلك ، وتقوم المرأة بالإضافة إلى عملها فى الزّراعة بتنظيف البيت وإعداد الطّعام وجلب الماء ، والأولاد يخرجون مع الأب لرعى الماشية ، و يبقى الرّجل المسن على حصيرة تحت الشجرة معتمداً على أبنائه فى تربية الماشية ، وعلى النساء فى زراعة الأرض .

وبجانب الزِّراعة ورعى البقر فهم يعملون بالتّجارة أيضا ، و يعملون فى الصِّناعات اليدو ية مثل العصى والمقاعد ، وهم متخصصون فى صناعة كرسى خشبى يشبه سرج الحصان الصغير يمسكه كل شخص فى يده و يعتبره من مستلزمات حياته اليومية ، لأنه يستعمله كمقعد وكأنه جالس القرفصاء ، أويسند عليه رأسه عندما ينام ، ولا يزيد ارتفاع هذا الكرسى متعدد الأغراض على خمسة عشر (سم) ، ومقعده مقوس بعرض ثمانية سنتيمترات و بطول عشرين سنتيمتراً .

إن أهل التّابوسا يفضلون أن يقوم أولادهم بالرّعى بدلاً من الذّهاب إلى المدرسة ، باستثناء المتعلمين منهم وهم قليلو العدد ، ولا يوجد سوى أربعة أشخاص حصلوا على شهادات جامعية حتى عام ١٩٨١ يعرفون بأسمائهم ، ومنذ عام ١٩٧٩ أصبح التعليم إلزامياً على الأولاد دون البنات .

وهنـاك مناطق يعيش فيها أبناء التّابوسا لا يعرف ساكنوها حتى الآن وسائل الحيـاة الحـديثـة ، ولم يـسمـعوا عـن الرّاديو أو التّليفزيون أو آلات التّصوير وحتى السّيـارات لا تـصل إليهم ، وإنّما عالمهم هو البقر والغابات وحيوانات الغابة ، يمشى الـرّجال عراة ، بيد كل منهم حربة ، أما النساء فيرتدين شيئاً يشبه التّنورة القصيرة على هـيئة شرائط من الجلد تستر عوراتهن ، ولا تجد الفتيات والنّساء حرجاً فى رؤية الـرّجل عـارياً ، ولا يثير ذلك غرائزهن أوخجلهن فهن يَرَيْنَهُ هكذا منذ أن ولدن ، وقـد مـنعت الحكومة الإقليمية دخول العراة منهم إلى المدن ، ولذلك نراهم فى المدن يـرتدون ملابس بسيطة وعادية ، ويقول السّلطان يوسف إيكو: إنهم عرفوا استخدام الملابس عام ١٩٥٥ .

ويـعتـمـدون فى غذائهم على لحوم الماشية الميتة ولحوم الصّيد والذّرة والسّمسم ، ويشربون حليب البقر.

وإذا تـعـرضـوا لـشح فى الألبان بسبب المجاعة الّتى تحدث عادة نتيجة نقص فى الأمـطـار، فـإنّـهـم يـسـتـخرجون دم الثّور من وريده ويمزجونه بالحليب ويشربونه ، ومـتـوسـط أعـمـارهـم سـتون عـاماً ، وقلة منهم تعيش حتى الثّمانين ، وتنتشر بينهم أمـراض المـلاريـا والـتـيـفـود والـيـرقـان ، ويـعـالجـون أمـراضهم بالسِّحر واستخدام الأعـشاب ، ومنهم من يذهب إلى المستشفيات والعيادات الطّبية للعلاج ، خاصة فى المـدن والأمـاكـن الـقـريبة منها ، ويؤمنون بالسّحر ويلجأون إليه عندما يتهددهم غزو خـارجـى لمـنـع الأعـداء من اقتحام بيوتهم ، ولا يكتفون بالسّحر لمواجهة الغزو، وإنما يـنـفـخ فى نـفير، هـو عـبـارة عن قرن ثور كبير، وذلك عند رؤية الغزاة من بعيد ، فـيـأتـى الـرّجـال على الـفـور بحرابهـم ويستعدون لمواجهة الغزاة ومحاصرتهم ، ويلجأ الرّجال إلى السحر من أجل أن يكونوا محبوبين من قبل النّساء والفتيات .

وأسألهم عن عادات الزّواج فى القبيلة :ـــ

إن الـشّـاب هـو الّذى يتفق على الزواج مع الفتاة ، ثم يذهب إلى والدها الذى يـتـفـق مـعه على المهر، وهو عادة من البقر، وليس بالضرورة أن يدفع الشّاب كل مـايـطـلـب مـنـه دفـعة واحدة ، فالبقر المطلوب عادة كثير ويصل إلى مائة وعشرين

أومائة وثلاثين بقرة ، ولا مانع أن يدفع الشّاب كل مايطلب منه ولكن على دفعات كلما توفر لديه ذلك ، والشّاب هو الذى يبحث عن الفتاة التى يريد أن يتزوجها ، أما الفتاة إذا خشيت أن يفوتها قطار الزَّواج فلا مانع من أن تقوم هي بالبحث عن الزوج ، وتختار رجلا تستميله إليها وتلتقى معه فى أيٍّ مكان حتى يوافق على الزّواج منها ، فهم عادة لا يتزوجون من نفس العائلة ، فإذا حدث وأراد شخص الزّواج من نفس العائلة فإنهم يعتبرونه نوعاً من السِّحر ، وحتى الفتاة نفسها لا تصدق ، أما من يعمل فى المدن من أبناء القبيلة فإنهم يتعارفون و يتزوجون بطريقتهم ، و يدفعون المهر مالاً وليس بقراً ، و يذهبون إلى الكنيسة إنْ كانوا مسيحيين أوإلى المأذون إنْ كانوامسلمين ، و يقول السّلطان يوسف إيكوإن تخلّى الشّباب فى المدن عن دفع البقر كمهر ، ودفعه قروشاً (أى نقودا) أمر يحز فى نفوسهم .

أما عن كيف يتم الزّواج ؟ فإن أهل الفتاة يكونون على علم بأنَّ ابنتهم ستتزوج من شخص ما ، فيوجهون الدّعوة لأهله و يقيمون حفلاً يشترك فيه الرّجال والنّساء من الأقارب والأصدقاء ، يشربون فيه المريسه و يأكلون ، و بعد أن يفرغوا من طعامهم وشرابهم ويهدأ الرقص ، يقف العريس و يقول : ــ إن المرأة الّتى اخترتها زوجة لى توجد هنا فى هذا البيت ، وقد جئت كي أتزوج من بنت فلان ، و يرد عليه والد الفتاة مؤكداً قوله ، ثم يطلب من أبنائه ــ إخوة الفتاة ــ أن يحددوا عدد البقر المطلوب كمهر ، فيقترح كلٍ واحد عدداً معيناً يتراوح مابين خمسين ومائة بقرة ، و ينتهون إلى رأي واحد يعلنه الأب ، وتنتهى بذلك مراسم الزّواج ليقدم العريس مااتفق عليه من البقر ، و يقدم الباقى فيما بعد ، وتقوم صديقات الفتاة بزف العروس إلى بيت زوجها الذى يُكْرِمُ وفادتهن ، كما يقوم أهل الفتاة بزيارة أهل الزوج ومعهم صديقات العروس ، و يذبح لهم ثور ، و يقام حفل (نقارة) فى بيت الزّوج يرقصون فيه على دقات الطبول و يشربون المريسة .

و يتزوج الشباب وهم صغار ، فالسّن الملائمة لزواج الشّاب هي ثمانية عشر عاما وتتزوج الفتاة بمجرد أن يبرز صدرها .

وعندما سألت ماهو موقف الزّوج إذا اكتشف أنَّ زوجته ليست بكراً؟ فوجئت برد سريع وجماعي بقولهم « كسروه أوماكسروه مش مهم ، دا كلام بتاع شماليين »(١) ومعنى هذه العبارة هو أنّه سواء كانت بكراً أم غير بكر ، فهذا ليس أمراً هاماً ، إن هذه أفكار الشّماليين الّتى لا نتعامل معها ، وهم يدركون أنّه أثناء الرعى فى الغابة تتقابل الفتيات والشباب بحرية كاملة ، وإذا حملت بسبب ذلك فهو أمر لايثير قلقهم ، و يسألونها عن الحرامى (اللص) الّذى فعل هذا (يشبهونه كلص اعتدى على حرمة منزل) ، وعندما تخبرهم به يفرضون عليه غرامة قدرها سبع بقرات ، و يذهب الطفل إلى أبيها و يصبح ابناً له ، وعندما تتزوج تتركه فى البيت مع أمها وأبيها كأخ لها ، أمّا إذا تزوجت نفس الشّخص الّذى حملت منه فيعود الطّفل إلى أبيه وتصبح هي أمه .

وللرجل أن يتزوج أيّ عدد من النّساء مهما كبر سنه طالما لديه البقر الّذى يدفعه كمهر، وقد أخبرونى عن رجل تزوج أربعين امرأة واسمه « أشما » ، وعندما أبديت رغبتى لمقابلته أبلغونى أنه توفي منذ عامين .

وإذا مات الزّوج يصبح من حق أبنائه أن يتقاسموا زوجات أبيهم ، وإذا رفضت زوجة الأب أبناءه فيجب ألا ترفض إخوته حتى لا يذهب المال (البقر) بعيداً عن الأسرة .

وأبناء القبيلة لايختنون ؛ ذكوراً كانوا أم إناثاً . وإذا غاب رجل عن بيته وعاشرت زوجته رجلاً آخر وحملت منه ، فإن الزّوج عندما يعود و يعرف ذلك لايغضب ، و يضم الابن إليه ولا لوم على الزّوجة ، أما الرّجل الآخر فقد يعاقب بدفع غرامة على ما فعله فى غياب الزّوج ، ولكن يندر أن تخون الزّوجة زوجها .

وهذا لايعني أنَّه لا يوجد طلاق فى الأسرة ، فقد يطلق الرّجل زوجته إذا أساءت معاملته ، وعند ذلك يُبَلِّغ أهلها و يستعيد أمواله ، أما إذا أراد أن يطلقها من تلقاء نفسه فله الحقّ فى حضانة الأبناء وليس له الحق فى استرداد المال ، وفى

(١) يقول الجنوبيون عن الفتاة غير العذراء إنها مكسورة وتسمى الغرامة التى تدفع بسبب فض البكارة كسر بيت ، والمقصود بكلمة شماليين . هم أهل شمال السودان.

هذه الحالة لاتكون الزّوجة موضع ترحيب من أبيها الّذى يظل على علاقة طيبة بزوجها، ولا يعترف الأب بعد ذلك بأية علاقة بين ابنته وأيّ رجل آخر.

وللقبيلة رقصاتها، هناك رقصة تسمى (تاكوما) الّتي تُرْقَص على دقات الطّبول فى احتفالات الزّواج، وهناك رقصة «دام دام» وتُرْقَص فى حفل خاص عندما يكسرون قرون البقر الطويلة خشية أن تؤذي الأبقار الأخرى، وفى هذا الحفل يدعون الأصدقاء و يشربون المريسة ويختلط الرّجال بالنّساء، و يرتدى صاحب الثور الّذى ستكسر قرونه جلد نمر، و يضع على جسمه السّكسك (الخرز الناعم الملون) كما يضع على رأسه ريش نعام.

وهم يتفاءلون بنزول المطر، وإذا زارهم ضيف وهطل المطر (يتباركون) بالضّيف، و يقولون «دا بتاع ربنا» أىْ إنه من أهل الله، أتاهم بقلب سليم ولا يضمر لهم سوءاً، ولا يوجد عندهم سلطان للمطر كبقية القبائل الأخرى، وموسم المطر عندهم فى مارس حتى شهر سبتمبر من كلّ عام، ولا يفضلون استمرار هطول المطر، لأنه يتلف محاصيلهم و يضر ماشيتهم و يسبب لهم الأمراض.

وفى مناطقهم تكثر الأفاعى والعقارب، و يعالجون لدغة الأفاعى الصّغيرة والعقارب بأدوية محلية يصنعونها بأنفسهم، كما يعالجون البقر من هذه اللّدغات، ولكن هذه الأدوية لم تفلح فى علاج لدغة الأفاعى الكبيرة، وهناك من يموت بسبب ذلك، وتوجد فى مناطقهم كذلك الأصلة، وهي نوع من الأفاعى الضّخمة الطّويلة غير السامة الّتى تبتلع ضحيتها، سواء كان حيواناً أو إنساناً، ولقتل هذا النّوع من الأفاعي يستخدمون الحراب و يأخذون جلدها لدبغه و بيعه.

ومن تقاليدهم أنهم يحترمون و يقدرون الرّجل الشّجاع الّذى لايهاب حيوانات الغابة و يكون قادراً على قتل أسد أونمر أوجاموس وحشى أو رجل (غازٍ) من غير قبيلتهم. ففى الماضى كانت هناك عادات واعتقادات تتعلق بالقتل، فمن قتل شخصاً يقوم بجرح ذراعه الأيمن جرحاً أفقياً طويلاً، وإذا قتل امرأة يقوم بجرح ذراعه الأيسر، وهذه العلامات ليست فقط دليلاً على الشجاعة أوتسجيل عدد الضحايا، وإنّما لوجود اعتقاد راسخ بين أبناء التّابوسا، أنّ دم القتيل امتزج بدم

القاتل، وأنّه سيظل يطارده أينما ذهب، ولكي يتخلص من هذه المطارده يقوم بجرح ذراعه ليسيل منه دم، يعتقدون أنّه دم القتيل يخرج من دم القاتل، وربما يعكس هذا الاعتقاد شعور القاتل بالذّنب تجاه من قتله والتّكفير عن جريمته بهذه الطّريقة.

أما أبناء القبيلة فلا يتقاتلون، وإذا حدث نزاع واستخدمت فيه الحراب، فإن نصل الحربة لايكون موجها إلى الخصم حتى لا يقتله، وإذا أصابته الحربة بالخطأ يعالجون جراحه ويتم الصّلح، وإذا كانت الإصابة بليغة يدفع غرامة.

وفى لغتهم الّتى يتحدثون بها أمثلة شعبية وعبارات يتداولونها يوميا؛ فكلمة «ماتارابو» تعنى كيف حالك، والرّد عليها «ماتاجى» أى أنا بخير، وأحيانا تكون التّحية «نا» والرّد عليها «أبا»، ومن أمثالهم الشعبية (الحراب فيها كوكاب)، وهو يعادل المثل الشعبى المعروف (الحيطان لها آذان)، وعادة ينادي الرّجل الكبير من هو أصغر منه قائلاً «يالوباى» أى يا ولد، ولا يصح أن ينادي الصّغير الكبير بهذا النّداء.

ولهم نظام فى الميراث، فإذا مات رجل ولديه نساء، فكل زوجة تأخذ نصيبها من البقر، ويعود الباقى إلى الإبن الأكبر، وإذا لم يكن لديه أبناء كبار وكان له ابن بلغ الحلم، فإن العم يأخذ بقرة واحدة ويحتفظ بالباقى للإبن حتى يكبر، وإذا كان له طفل صغير، فإن العم يرث أخيه ويعتنى بتربية الطّفل ويزوجه عندما يكبر دون أن يعطيه شيئاً من البقر.

ومن عادات دفن الموتى عندهم أن الميت يدفن بجوار الكوخ الّذى كان يسكنه، ولا يغسلونه، ويدفن بالملابس الّتى عليه أوعارياً إذا كان كذلك، وإذا كان للرّجل ثروة من الأبقار والكثير من الزّوجات فإنه يدفن فى بيت الزّوجة الأولى.

* * * * *

قبيلة

الدّادينجا

(٥)

الدّادينجـــــا

تعني كلمة « دادينجا » الرّجل القوى ، وهي قبيلة تختلف عن قبيلة الدّينكا المعروفة فى جنوب السّودان ، وتسكن هذه القبيلة منطقة « شُكُدُم » منذ أكثر من ألف عام عندما جاءت من منطقة « كروما » جنوب غرب أثيوبيا ، وتعتبر منطقة شُكُدُم هذه من المناطق الّتى تتميز بطقس معتدل طوال العام ويميل أحياناً إلى البرودة ، ولا تزيد درجة الحرارة على ثلاثين درجة ، وقد تصل ليلاً إلى خمس عشرة درجة ، وهي منطقة مرتفعة دائمة الإخضرار، وفيها يقع جبل ناكاشوت الّذى يعتبر من المعالم الهامة فى جنوب السّودان ، .. رغم أنه غير معروف ولم ينل حظه من الشهرة الّتى يستحقها ، فقد جعلت منه بريطانيا ــ حتى منتصف هذا القرن ــ معتقلاً سياسياً نفت إليه كثيراً من الشخصيات السّياسية المناهضة لها من دول شرق أفريقيا ومصر والسّودان ، وذلك لوجوده فى منطقة نائية يصعب وصول أيٍّ إنسان إليها وبالتّالى لم يكن أمام المنفيين أيُّ مجال للهرب ، وقد كانت تنزل عليه طائرات الهيلوكوبتر لصعوبة وصول السّيارات إلى قمته ، وآخر من اُعتقل فيه من السّياسيين هما السيدان اسماعيل الأزهرى(١) ومحمد أحمد محجوب(٢) حيث بعث بهما الفريق ابراهيم عبود بعد أن تَسَلَّم السلطة عام١٩٥٨ .

تبلغ مساحة مناطق الدّادينجا نحو ألف وثمانمائة ميل مربع(٣) وتحيط بها قبيلة البويا فى الشّمال الغربى ، والتابوسا فى الشّمال الشّرقى ، وقبيلة دودوس الموجودة فى أوغندا جنوبا ، وفى الجنوب الشّرقى قبيلة « توركانا » فى الأراضى الكينية ، وتحدّها من الغرب قبائل « اللاتوكا » فى مركز توريت .

---

(١) هو الزعيم اسماعيل الأزهري أحد رواد حركة الاستقلال ، رأس الحكومة الوطنية الاولى ، ثم رئيساً لمجلس السيادة خلال فترة ثورة أكتوبر ٦٤ . توفاه الله فى عام ١٩٧٠ .

(٢) أحد رواد حركة الاستقلال ، عمل وزيراً للخارجية . أبعده الفريق إبراهيم عبود بعد انقلاب عسكرى فى ١٩٥٨ ، ثم عاد وزيراً للخارجية فى ثورة ٢١ أكتوبر ٦٤ ، وأخيراً رئيساً للوزراء ، إلى أن جاءت حركة ، مايو ٦٩ ، توفاه الله عام٧٦ .

(٣) مصدر شفهي .

وللقبيلة لغتها الخاصة الّتى تكتب وتقرأ بحروف لا تينية ، ورغم أن المسيحيين جاءوا للمنطقة عام ١٩١٨ إلا أن القليل من أبنائها قد دخل المسيحية أو الإسلام ، وظلت الغالبية على دينها القديم الذى يسمى « لوريبو » وهو اسم الإله عند القبيلة ، وهم يؤمنون بوجود قوة عظمى تسيطر على حياتهم وأرزاقهم وتنزل المطر وتمنعه ، وهناك وسطاء يتصلون بالإله لوريبو لحلِّ مشاكلهم وإنزال المطر.

وهم يحافظون على تقاليدهم و يتمسكون بها ، فالرّجل فى القبيلة له وظيفته الأساسية ، وهي الصّيد ورعى البقر والزّراعة وحماية الأسرة من الأخطار التى تهددها ، كاعتداء وحش أو إنسان عليها ، والمرأة تُحضِر الماء والحطب والأخشاب وتعد الطّعام وتطحن الحبوب ، وقد تساعد زوجها فى الزراعة ، وللرجل الحق فى أن يتزوج كما يشاء ، حسب ما يملك من أموال وأبقار ، ومن الأمور العادية فى القبيلة أن تجد رجلاً متزوجاً عشراً من النساء ولكلِّ امرأة كوخها (قطية) ، ومن السّهل جداً أن يلتقى الفتى بالفتاة فى الحفلات والمناسبات أو الحقل ، وإذا أعجب بها ، فإنه يتقدم على الفور إلى أهلها يطلب الزّواج منها ، وعليه أن يقدّم المهر المطلوب ، وهو على الأقل خمس بقرات كدفعة أولى ، وذلك لقلة البقر فى المنطقة ، و يظل يرسل لأهلها بقراً و يرسل لوالدها وإخوتها الحراب والمالودا . (أداة حرث الأرض) .

يقام حفل للزّواج يستمر يومين ، و يقوم أهل الفتاة بعمل « المريسة » ، أما العريس فيقدم الذّبيحة من الغنم أو البقر و يتناول الطّعام فى حفل يدعو إليه الأصدقاء وأهل المنطقة ، والفتاة تحافظ على عذريتها قبل الزّواج ، ونادراً ما يحدث أن تجد فتاة غير عذراء ، ولعل السّبب فى ذلك أن الفتاة تتزوج بمجرد أن يبرز صدرها .

يقول كبار القبيلة من الرّجال : ــ إنه فى الماضى كانت الفتيات لايتزوجن حتى يكبرن وإلى أن تتهدل صدورهن و يلاصق الثّدى الجسم ، ولذلك لم تكن تنجب الواحدة منهنّ أكثر من أربعة أو ثلاثة أطفال ومع هذا كانت مهورهن كبيرة ، أما الآن فالمهر أقل .

ومن تقاليد الدّادينجا أنَّ شقيق الزّوج هو وحده الذى يحق له أن تصبح زوجات أخيه زوجاته ، ولا يحق لأولاده ذلك .

وقد يتم الطّلاق لأسباب تتعلق باستمرار الشِّجار بين الزّوج والزّوجة وعدم التّفاهم بينهما ، أما الأبناء فيكونون فى حضانة الأم إذا استرجع الأب المهر الذى دفعه ، وإذا تنازل عن المهر يصبح الأطفال من نصيبه .

وتحارب القبيلة الخيانة الزّوجية ، فإذا ضبطت امرأة تخون زوجها مع آخر فإنهما يسجنان ، ولو أنجبت منه تصبح ثمرة هذه العلاقة من حقّ الزوج الشّرعي . . ، وهم حريصون على هذه العادات ، فمثلا لو أن شخصا حاول أن يعتدي على زوجة أخيه أثناء غيابه ، فقد تتخلص منه القبيلة طعناً بالحراب .

وهم يحبون الرّقص إلى حد كبير ، ولكلّ مناسبة رقصتها ، ولديهم أربعة أنواع من الرّقصات : ــ

الأولى يسمونها (لوريبو) وهي رقصة دينية أشبه بالصّلاة يرددون معها ترانيم بالدعاء للإله « لوريبو » كي ينزل عليهم المطر ، ويؤدون هذه الرّقصة فوق جبل « لوتيكيه » وليس لديهم سلطان للمطر .

الرّقصة الثانية تسمى « إيتامات » وهي رقصة الفرح والزّواج .

والثّالثة رقصة الحصاد وتسمى « نياكورث » وتعبّر عن سعادة النّاس بالمحصول الزِّراعى الجديد . والرّابعة رقصة الفوز على الأعداء أو الحيوانات المتوحشة ، أو إذا قُتِلَ إنسان شجاع ضحية حيوان مفترس ، أومات ، فإنهم أيضا يرقصون هذه الرقصة ويشترك فيها الرّجال والنّساء تعبيراً عن حزنهم ، ومع الرّقصات تُدَق النُّقارة بإيقاعات معينة حسب نوع الرّقصة ، وأدواتهم للرقص هي طبول كبيرة مشدود عليها جلد غنم .

إن أهل الدّادينجا لا يعتقدون فى سلاطين السِّحر والمطر ، ويعالجون الأمراض بطريقتهم بالأعشاب المحلية ، ووظيفة السّلطان قائمة وتعيِّنه الحكومة المحلية ، وهو يقوم مقام عمدة القرية أو المختار ، والسّلطان مثله مثل أي فرد فى القبيلة ، ولا توجد طبقية وخاصة فى الزّواج ، فالسّلطان يتزوج من يشاء وكذلك بناته وأولاده ،

وطعامهم يشبه طعام القبائل الأخرى ، وهم كالآخرين يأكلون لحوم الماشية الميتة لتوفير أبقارهم ، كما يأكلون لحوم الصّيد والفول والبافرة (البطاطا الحلوة) .

للقبيلة قانونها ؛ فمن قتل شخصاً عمداً فإنه يقدم للمحاكمة وقد يُحكم عليه بالإعدام أوبفدية يدفعها لأهل القتيل من بقر أوغنم ، أوبصلح مقابل عشرين بقرة ، وفى هذه الحالة يبعد القاتل عن المنطقة لسنوات حتى يُنْسى أمره ، أما القتل الخطأ فيصبح حادثا عَرَضاً (قضاء وقدراً) لا يعاقب عليه ، وإذا تعرض صاحب بيت للسرقة ، وَقَتَلَ السارق داخل بيته ، فلايعاقب ، وإن تمكن من إلقاء القبض على اللّص يُقدم للمحاكمة ، حيث يحكم بالغرامة أو السّجن ، ولا يؤاخذ النّاس بجرائم ذويهم .

وبمنطقة الدّادينجا توجد ثروة حيوانية من الأبقار والماشية ، قلت أعدادها منذ عام ١٩٧٩ بسبب الجفاف الذى تعرضت له ، ولديهم الآن نحو ستة آلاف رأس من البقر ، وخمسة عشر ألفا من الغنم ، وتوجد فى المنطقة حيوانات الغابة ، وإذا أرادوا مطاردة أسد للقضاء عليه ، بعد أن يكون قد سبب لهم أذىً ، يجتمع النّاس على أثر نداء عن طريق النّفخ فى أحد القرون المعدة لذلك ، وهي تشبه النّفير (العمل الجماعى) و يعملون من أنفسهم دائرة تظل تَضِيق وتَضِيق على الأسد حتى يضربونه بحرابهم ، وقد يهجم على أحدهم و يقتله ، ولكنهم فى النّهاية لابد أن ينتصروا عليه و يصرعوه .

ولهم عاداتهم فى دفن الموتى ، فالميت لايدفن بملابسه ، و يدفن داخل منزله أوخارجه ، و يذبحون خروفاً ويمسحون بدمه ومخلفات أمعائه على أولاد المتوفى وأهل بيته ، لاعتقادهم أنهم بعملهم هذا يحمون الأسرة من خطر نقل الدّاء الذى يعتقدون أنّه السبب فى الوفاة ، فتنتحب عليه الأسرة ثلاثة أوأربعة أيام ، هي أيام الحداد ، وقد تشنق الزّوجة نفسها حزنا على زوجها مالم يمنعها أحد ، و يستمر تلقي العزاء لمدة ثلاثة أيام ، وقد يمتد شهراً لاستقبال المعزين من الأقرباء والأصدقاء الذين يحضرون من مناطق بعيدة .

والأمراض المنتشرة بينهم هي الملاريا ، والتّيفويد ، والحصبة عند الأطفال ، وقد انتشرت الكوليرا عندهم عام ١٩٨٠ وأمكن تحصينهم منها .

تتعرض الدّادينجا لاعتداءات من قبيلة التّابوسا التى تشن عليهم هجماتها من الشّمال الشّرقى، للاستيلاء على أبقارهم، وقد قلت هذه الهجمات منذ سنوات.

وأهل الدّادينجا كالقبائل الأخرى يفرحون بولادة الذكر والأنثى، ولا فرق عندهم بين الاثنين؛ فالبنات دائماً مصدر الثّروة البقرية، والرّجل مصدر للحبوب والغذاء (لقيامه بأعمال الزراعة).

عندما يولد الجنين يظل ثلاثة أيام لا يخرجونه من الكوخ حتى يجف حبله السّرى و يسقط، وعند ذلك يحتفلون به و يشربون المريسه و يسمونه، وهم يفرحون بتنوع الإنجاب من أولاد و بنات أكثر من أيّ شيء آخر، وتوجد لديهم المُوَلِّدة (الدّاية) وهي عادة امرأة مُسِنّة، تدربت على ذلك، وإذا حدثت صُعوبات فى عملية الولادة تنقل الأم الى أقرب مركز صِحّى، وهذا لا يحدث كثيراً لبعد المسافات.

فى جولتى وسط أبناء قبيلة الدّادينجا التقيت بالسّيد ناتالى كانكراسبو[1] وهو مساعد محافظ شرق الاستوائية، مسئوليته تمتد إلى ثلاث قبائل، هي: — البويا، الدادينجا، والتابوسا، عمره ثمانية وثلاثون عاما ولديه ستة أولاد وزوجة واحدة، وقد بدأ عمله فى بحر الغزال التى ينتمى إليها مسقط رأسه، و يتحدث بلغة عربية أوضح مما يتحدث غيره من أهل هذه القبيلة، والسّبب فى ذلك أن أهالى مدينة واو فى بحر الغزال أقرب الى شّمال السّودان، والإتصال معهم أكثر سهولة، سواء بالسكة الحديد أوغيرها.

علمت منه أن منطقة شُكُدم، هي من المناطق الأكثر تخلفا فى جنوب السّودان، وكل الصراعات والنزاعات ومشاكل المنطقة، ناتجة عن التخلف، ولذلك فإنها فى حاجة إلى إنشاء العديد من المدارس، والاهتمام بالتعليم، ومشروعات التّنمية، والمتعلمون من أبناء هذه القبيلة قليلون، فحتى عام ١٩٨١ لم يتخرج من الجامعات منهم سوى طالِبَيْن، أحدهما ابن السّلطان الّذى درس الطّب فى إيطاليا، ولا يزيد عدد الذين أنهوا المدرسة الثّانوية العليا على عشرين طالباً.

---

(١) يقول: إن وعورة الطرق لاتساعده على سرعة التحرك فى المنطقة مما يسبب تدهور الأمن.

أما عن دور مساعد المحافظ فى المنطقة فإنه يتمثل فى ضبط الأمن، وتحقيق التعاون بين القوات المسلحة والقبائل، و يعمل على تنشيط المشاريع، سواء الحكومية أوالتى تتم بعون ذاتى من الأهالى، و يشرف على المصالح الحكومية فى المنطقة وكافة المنظمات الّتى لها نشاط، و يقوم بنقل المعلومات والتّقارير للحكومة الإقليمية، عن أحوال المنطقة، ومن السّهل عليه أن يتصل بالحكومة الإقليمية فى جوبا أوتوريت بواسطة وكالة السّودان للأنباء (سونا) بما لديها من أجهزة لاسلكية.

والمشاكل الّتى تواجه هذه المنطقة، هي النقص فى المواد البترولية، فقد تظل المنطقة شهوراً بدون وقود، وفى هذه الحالة فإنّهم يستعينون بالشّركات الأجنبية العاملة فى المنطقة مثل النرويجيين، الّذين يساعدونهم ويمدونهم بثلاثة أوأربعة براميل من البنزين كلما توفر لهم ذلك. والمشاكل الأخرى التى يعانون منها هي وعورة الطرق التى تعجل بنهاية كل سيارة مهما صغر أوكبر حجمها.

كما تحدثت مع السّلطان «ماريو أدول» ــ عمره ثمانون عاماً ــ الذى تزوج أربع مرات وله عشرة أولاد، وآخر زواج له كان عام ١٩٦٤، كانت رتبته «سلطان ماكينجو»[١] من عام ٣٢ إلى ١٩٣٨، وعندما أبدى نشاطاً أوصى الحاكم الإنجليزى عام ١٩٣٨ بانتخابه سلطاناً، تحدثت كذلك مع آخرين منهم «بيتر كوتاموي»، عمره تسعون عاما، ولم يتزوج سوى مرّة واحدة وأنجب سبعة أبناء، بقي منهم ثلاثة أحياء، و يعمل أحد أبنائه مدرساً، أما هو فلايزال يعمل مزارعاً من الساعة السادسة صباحاً إلى ما بعد الظّهر، وكان سابقاً يعمل سلطاناً إلى أن عزل لكبر سنه.

و«شارلز لايوتاري» عمره ستة وثلاثون عاما، يعمل كمساعد لضابط فى المجلس الريفى، وباسيليو، عمره سبعون عاماً ولديه ثلاث نساء وأربعة عشر ولدا، يعمل مزارعاً، يزرع الذُّرة والذّرة الشامية (الأشاريف) والدّخن، ولا يستريح سوى ساعة واحدة بالنهار.

---

(١) ماكينجو: تعني أقل درجة من سلطان، وأعلى من مواطن عادى.

حدثنى هؤلاء عن أحوالهم فعلمت أن متوسط العمر فى القبيلة خمسون عاما، وأنه فى مواسم الجفاف يصعدون جبل (ناكاشوت) ليزرعوا على سفوحه، وذلك لوجود مياه الينابيع فيه، أما الجبال فتكثر فيها المعادن، وقد عثر الخبراء الجيولوجيون على الذّهب فى جبل «كارتيا» وجبل «كيميالا» و«أورو» و«تالا»، وتكثر فى جبل «لاتوكيه» ـ المحاذى للحدود مع كينيا ـ المياه المعدنية الساخنة، يشرب منها الأهالى كما تشرب منها أبقارهم، ويقال إنّها تعالج أمراض البقر كما تعالج رمد العيون، ويقول السّيد «باسيليو» إنهم كانوا يتعاملون بالعملة المعدنية المصرية والإنجليزية والرّيال ذى الخمسة قروش، والقرش المصرى الذى يسمونه (أبوطربوش) حيث توجد صورة الملك على العملة بطربوشه، ويبلغ متوسط دخل الفرد سنويا نحو مائتين وخمسين جنيها، ويدفع الفرد البالغ ضريبة قدرها خمسة جنيهات كل عام.

وَعَرفَتْ قبيلة الدّادينجا الأقمشة عام ١٩١٨، وقبل ذلك كانوا يستخدمون جلود الحيوانات كرداء، وتمثل الحيوانات عندهم رموزا لها دلالتها، فهم يتشاءمون مثلا من طائر البوم، وإذا نعقت على بيت أحدهم فمعنى ذلك أن واحداً من أهل ذلك البيت سيموت، وأحياناً يسمون أنفسهم بأسماء الحيوانات «لولوري» ومعناها الثور الضخم ذو القرنين الكبيرين وجلده منقط باللونين الأبيض والأسود أو الأحمر، ويبلغ ثمن البقرة عندهم ستين جنيها.

ومن النّساء اللائى تحدثت معهن امرأة اسمها «لوسيًّا» عمرها نحو خمسة وأربعين عاما، ترتدى رداء من الجلد غير المخيَّط، مربوطاً على الكتف الأيمن، وأما الكتف والصّدر الأيسر فعاريان، قتل زوجها فى الحرب الأهلية فى الجنوب قبل عام ١٩٧٢، تحدثت عن كيفية صنع الجلد، فقالت: ــ بعد أن يسلخوا الثور يجففون جلده فى الشّمس، ثم يفردونه بأن يوضع عليه ماء ممزوج بالزّيت، وبعد ذلك يُحِفُّونَهُ بسكين لإزالة ما علق به من دهون ليصبح ليناً وطرياً، وهكذا يصبح مثل القماش الثّقيل فَيُستَخدم رداءً، وخاصة فى الجو البارد كما يستخدم غطاءً لمنع تسرب المطر إلى الجسم.

و« لوسيا » هذه لديها ستة أولاد يعملون فى المدن بعيدا عنها ، وأكبرهم يعمل مدرساً فى جوبا ، إلتقيت أيضا بامرأة أخرى ، اسمها « أنيوبا » ، ثم اتخذت لها اسماً مسيحياً هو « روزا » ، لديها ثلاثة أولاد ، تقول إن الرجال هم الّذين يبنون الأكواخ بعد أن تُحضِّر النساء الحطب والقش والمياه ، وتقول إن أكثر النسّاء يَمُتْنَ أثناء الولادة لعدم وجود الرّعاية الطّبية ، ولذلك فإنّ مطالب المرأة فى قبيلة الدادينجا تتركز فى إنشاء المستشفيات والمدارس وحل مشكلة المياه .

وبينما كنت أتجول وسط أبناء القبيلة قدم لى السّلطان ، شخصية تستحق أن نتوقف عندها ، وهذه الشخصية هو « بيتر أُوكِليلُو » ، ذلك الجنوبى إبن الدّادينجا ، الّذى حارب مع القوات البريطانية فى الحرب العالمية الثّانية مع مونتجيمرى ، وطاف بكثير من الدّول ، وعمل سائقا للزعيم الكينى جوموا كنياتا ، إنه رجل فى الستين ، تزوج مرتين وأنجب ثمانية أولاد ، مات معظمهم .

حدثنى عن نفسه فقال إنّه عمل مع الجيش البريطانى منذ عام ١٩٣٧ كجندى وكان عمره حين ذلك نحو تسعة عشر عاماً ، وتلقى تدريبه على أيدى الإنجليز فى كابويتا وشُكُدُم وناكاشوت ، وذهب إلى مصر وتونس وليبيا والعراق والصومال وأثيوبيا وكينيا وأوغندا ، وعمل مع الأجانب ، طاف معهم فى جولات كثيرة ، والتقى مع مونتجمري ، وقوات رومل وموسليني وجهاً لوجه فى ساحات المعارك .

ويقول إن جبل ناكاشوت كان مركزا للإنجليز وتحول إلى معتقل سياسى .

أول العمليات العسكرية التى اشترك فيها كانت فى كينيا ، ثم نقل مع الوحدات الإنجليزية إلى أديس أبابا وليبيا لمحاربة الإيطاليين والألمان ، وتعلم منهم اللغّة الانجليزية ، وفى هذه المعارك شاهد سقوط دول المحور فى الصّحراء اللّيبية ، ووصل مع القوات حتى مرسى مطروح فى مصر ، حيث مُنِح بعض الأفراد حرية العودة إلى ديارهم ، لكنه فضل استمرار العمل مع القوات البريطانية ، ثم عاد إلى الخرطوم عام ١٩٤٥ ، وانتقل للعمل فى كينيا . وهناك تزوج لأول مرة واستخرج بطاقة شخصية ، وسافر بعد ذلك إلى يوغندا وعمل كجندى فى مصلحة السّجون

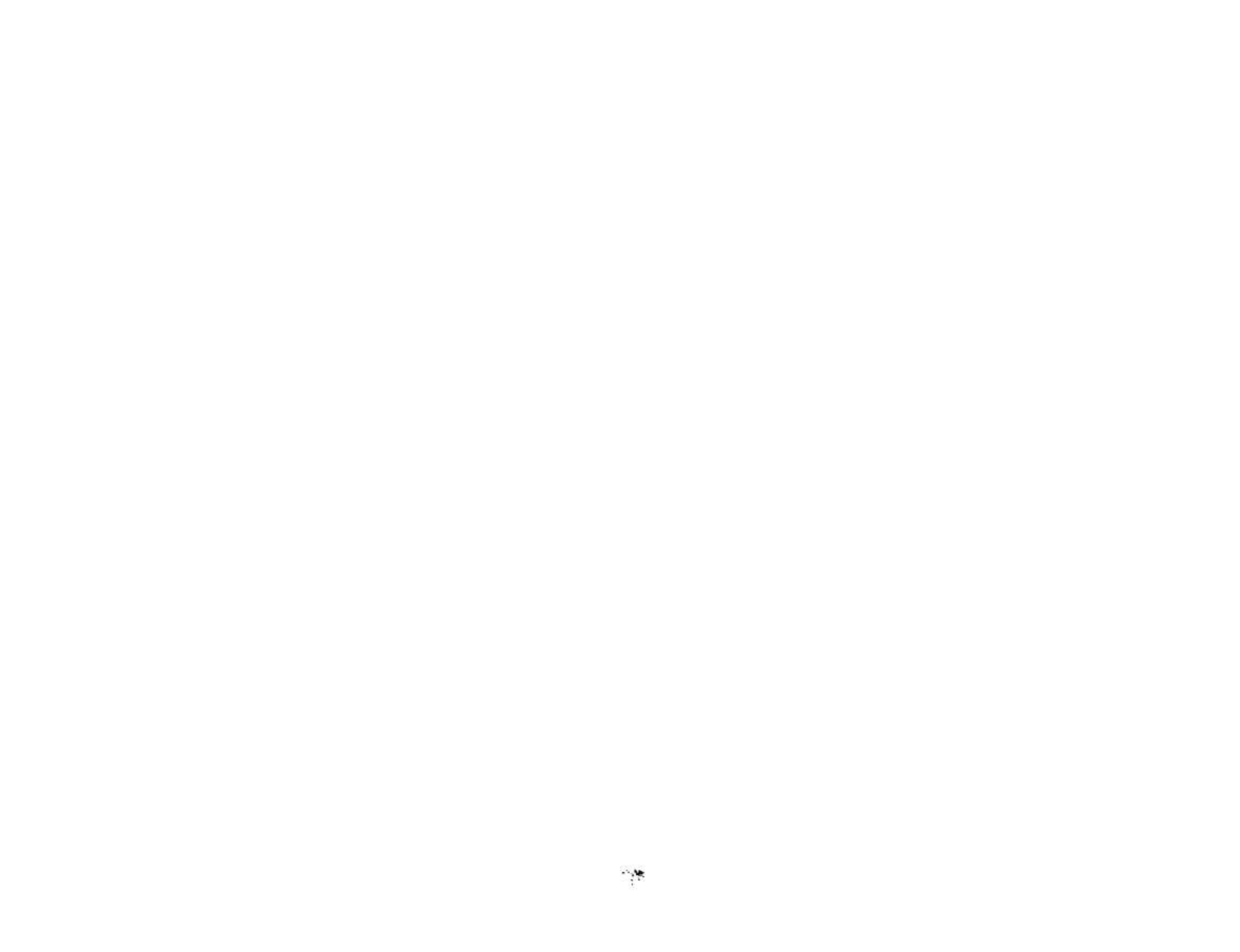
عام ١٩٤٧ ، ثم انتقل مرة أخرى إلى كينيا ، وتشاء الأقدار أن يكون حارساً على « جوموا كنياتا »(١) فى السّجن ، وعندما خرج الزّعيم الأفريقى من معتقله ، اختاره ليعمل سائقا له ، ثم عاد مرة أخرى الى أوغندا ، وتزوج هناك للمرة الثانية وأصبح له بيت وأسرة ، وظل مقيماً هناك حتى سقوط عيدى أمين(٢) ، حيث عاد أخيراً إلى منطقته الأصلية فى مقر قبيلته الدّادينجا ليواصل حياته معهم .

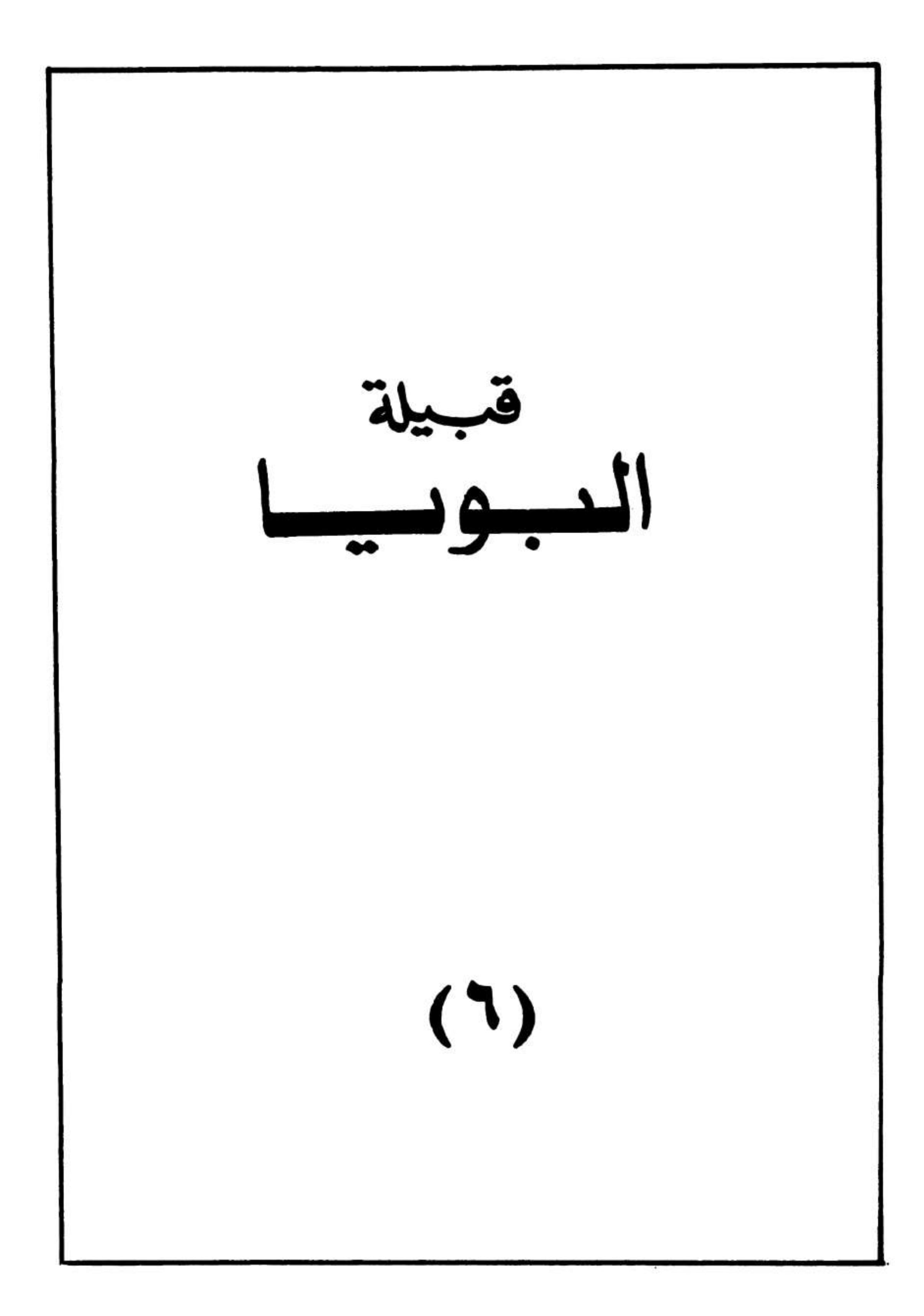
* * * * *

---

(١) زعيم كينى: اُعْتُقِل كثيراً قبل استقلال بلاده ثم أصبح أول رئيس جمهورية لها بعد الاستقلال .

(٢) رئيس جمهورية أوغندا ـ اُطِيْحَ به عام ١٩٧٩ .





قبيلة
البويا

(٦)

البويـــــا

تقع قبيلة البو يا بأقصى الشرق من إقليم الإستوائية ، تحيط بها قبائل أخرى ؛ هي قبيلة الدادينجا جنوباً ، والتابوسا شرقاً ، والآشولي والمادى غرباً ، واللا توكا شمالاً ، وهي قبيلة صغيرة تحتفظ بعاداتها وتقاليدها الخاصة التى تختلف إلى حد ما عن طبائع القبائل الأخرى ، و يبلغ عدد أفرادها نحو عشرة آلاف نسمة ، لها لغتها الخاصة التى تقرأ وتكتب ، وهناك قبيلتان تتحدثان لغة البو يا ؛ وهما قبيلة « مورلى » وتقع على الحدود مع أثيوبيا ، وقبيلة « لو بيت » التى تقع على الحدود مع قبيلة « نوكورو » على بعد ثمانية وسبعين كم شرقى تور يت ، وتقدر مساحة مناطق القبيلة بنحو ألف كيلو متر مربع(١) ..

وتستخدم الحروف اللاتينية فى كتابة لغة البو يا كسائر اللغات القبلية ، إلا أنها تختلف عن بعضها البعض فى نطق الحروف فمثلاً يكتب حرف « V » المعروف فى اللغة الانجليز ية على أنه **TH** و يكتب عند الدينكا على أنه حرف **Z**

يدين أهل البو يا بالمسيحية ، ولكنهم لازالوا يتمسكون بعادات القبيلة وتقاليدها التى تتعارض فى بعضها مع الديانة المسيحية مثل الزواج والطلاق .

وأثناء جولتى مع أبناء قبيلة البو يا كان أول من التقيت به هو السلطان « بلاشلي أجاؤون » ، أحد سلاطين القبيلة ، وهو غير معين من قبل الحكومة فهو منتخب من قبيلته ، عمره يبلغ نحو أربعة وثلاثين عاماً ، وقد أُنْتُخِبَ سلطاناً منذ ست سنوات ، وتزوج ثلاث نساء ولديه من الأبناء خمسة كبار وتسعة صغار .

عندما التقيت به كان يرتدى بنطلوناً وقيصاً عادياً ، متوسط القامة ، فى البداية أبدى تحفظه تجاه الحديث فى السياسة ، فطمأنته بأن هذا ليس هدفى من اللقاء ، بل التعرف على عاداتهم وحياتهم الاجتماعية ، وقد أشعره ذلك بالاطمئنان ، وراح يتحدث معى بلهجة عربية صعبة الفهم ، وحوله كانت تجلس مجموعة من الشباب ،

---

(١) هذا الرقم مصدره شفهى .

وقليل من كبار السن الذين آثروا أن يجلسوا تحت شجرة على بعد نحو عشرين متراً من مجلسنا ، وهم يشهدون هذا الحوار مع رجل غريب عنهم لم يعتادوا على رؤيته .

ومع السلطان كان يجلس عدد من الموظفين مثل السيد « جيريه » المسئول عن التفتيش فى منطقة تقاطع الطرق المؤدية إلى شُكُدُمْ وإلى كابويتا ، عمره سبعة وثلاثون عاما ومتزوج من خمس نساء ولديه خمسة عشر من الأبناء ، وقد تزوج الأولى عام ١٩٦٥ وفى عام ١٩٧٨ تزوج المرأة الخامسة وعمرها سبعة عشر عاماً .

معنا أيضا السيد « بيتر ليكولوموبا » عمره اثنان وعشرون عاما متزوج بامرأة واحدة ولديه طفلان ، والسيد « كاميلو » عمره خمسون عاما وله زوجتان وتسعة أبناء وهؤلاء يعملون فى نقاط إلتقاء الطرق ، يرشدون السيارات و يقومون بتفتيشها .

ومن خلال أحاديثهم عرفت أنهم يذهبون كل صباح إلى الكنيسة بعد أن يستيقظوا و يغتسلوا و ينظفوا أسنانهم (بالسواك) ، ثم يذهبون إلى أعمالهم فى الزراعة (رجال ونساء) .. بعد الظهر تتولى المرأة إعداد الطعام وهذا جزء من عملها الرئيسى ، حيث تقوم أيضاً بطحن المحصول من الذرة والسمسم وتحضر المياه والأخشاب ، وتقوم بتنظيف الأرض الزراعية بعد جنى المحصول وإعدادها مرة أخرى للزراعة ، وأحياناً يساعد الرجل المرأة فى عملها هذا ، وأرض « البويا » صالحة لزراعة البن والشاى بجانب السمسم والذرة والفول ، ومنهم من يعمل فى الحدادة لصناعة « المالوده » ، وهي الآلة الزراعية التى يحرثون بها الأرض ، وتستخدمها بعض القبائل كنوع من المهر يقدم لأهل العروس ، تكثر فى مناطق البويا الحيوانات البرية مثل الغزلان بأنواعها المختلفة والتيتل والحمار الوحشى والفيل والزراف ، وتكثر الأُسود وتقل النمور ، وهناك مصالحة بينهم وبين الأسد فلا يعتدون عليه إلا إذا اعتدى على أغنامهم ، وعند ذلك ينفخ فى البوق ليعرف شباب القرية أن هناك خطراً يتطلب تواجدهم ، فيحملون حرابهم و يتوجهون إلى مصدر الخطر ليمنعوا ذلك الحيوان الوحشى من افتراس أغنامهم ، أما الإنسان فلا يعتدي على هذه الحيوانات ، و يقولون إنّ هذه الحيوانات تخاف من الإنسان الذى يلاحقها بحربته وتجري منه مختبئة فى عرينها .. وفى هذه المناطق يوجد « البوقا » وهو نوع

من البقر الوحشى و يتميز عن البقر العادي بأنَّ لونه رمادى فاتح ، والظهر من أعلى يميل إلى السواد على امتداد العامود الفقرى ، وقرنه حلزونى الشكل .

وأهل القبيلة يصطادون هذا النوع من الأبقار وكذلك الغزلان والتيتل ، و يأكلونها كما يأكلون الذّرة والدخن والتّلّبُون والسّمسم ، وعندما سألتهم عما إذا كانوا يأكلون لحوم البقر والأغنام الميتة ؟ جاءنى الرد جماعياً وسريعاً من كل الجالسين من حولى :

ــ بناكلوا طوَّالي ، (أى أنهم لايترددون فى أكله) .

لأن ذلك يوفر عليهم أغنامهم وماشيتهم الحيَّة التى تمثل مقياس الثروة عندهم ، وتمثل الأغنام والحبوب لديهم بديلاً عن المال حيث يشترون به مايحتاجونه و يقايضون به سلعاً أخرى و يقدمونه كمهور للزواج . لكن المشكلة التى تواجهها قبيلة البويا هي نقص الأبقار عندهم بسبب الهجمات التى يتعرضون لها دائماً من قبيلة التابوسا التى تعتدي عليهم وتستولى على مالديهم من أبقار، وفقاً للعقيدة التى يؤمنون بها وهي أن كل أبقار الأرض خلقت من أجل التابوسا ، وهم لايستطيعون التصدى لهذه القبيلة لأنها الأقوى ، والسلطات المحلية تعجز عن أن تلاحق خاطفى البقر، لأنه عندما يختلط البقر ببعضه من الصعب على السلطات أن تميز بين البقر الأصلى والبقر المسروق من البويا ، وقد عمدت البويا إلى وضع (وشم) على أبقارها لتميزه عن غيره وتؤكد ملكيتها له ، إلا أن القبيلة الأقوى لا تعترف بهذه الرموز.

والبقر ثروة القبيلة ومهر عرائسها ، فإذا وافقت الفتاة على الزواج من شاب معين ، فإنه يذهب إلى أهلها ، أبيها وأمها وإخوتها ، وإذا أجمعوا على الموافقة يطلبون منه المهر وهو عدد من الأبقار، وعلى العريس أن يحضر المهر حتى لو اقتضى أن يذهب إلى قريب له فى الخرطوم ، ولا تشفع لدى العروس وأهلها أنَّ قبيلة التابوسا يعتدون عليهم ويخطفون أبقارهم ، وهم مثل سائر القبائل الأخرى لا يتزوجون من الأقارب بل من القبائل البعيدة ، والهدف من ذلك هو زيادة البقر لدى الأسرة ، و يعتقدون بأن الزواج من الأقارب يزيد من العيوب الخِلْقِيَّة وَالتَّشوهات ، و يتحدد مستوى الأسرة الاجتماعى بعدد ما تملكه من أبقار.

وعنـدما يحضر العريس مهر عروسه يخطر والدها بقدومه و يقام حفل الزواج .. يأخذ العريس معه خروفاً إلى بيت فتاته ليذبحوه، و يعدون وليمة العشاء ويجهزون المريسة و يدعون الأصدقاء، و يرتدى العريس رداء خاصاً فى هذا الحفل، حيث يلبس جلد حيوان و يزَين جسمه (بالسكسك) وهو الخرز الملون، و يضع على رأسه ريش نعام و يُبْقِي نصفه الأعلى عاريا، ويمسك بيده حربة، و يدقون له الطبول (النقارة) و يرقص معه الجميع ومعه عروسه. وطلبت أن يعدوا لى مشهداً من حفل الزواج هذا لأصوِّرَهُ، فقالوا إن ذلك متعذر لأنه يستغرق وقتاً طويلاً لإعداده والكل الآن مشغول فى أعماله، فاكتفيت بما وصفوه لى. وتتكرر هذه الاحتفالات بنفس ملابس الجلد وريش النعام والسكسك فى الاحتفال بيوم الحصاد.

هذه القبيلة تميل إلى الفرح أكثر من غيره، «فالنقارة» أى الإحتفالات التى تقيمها هي للتعبير عن سرورها فى موسم الحصاد أوفى الأفراح، وليست عندهم رقصة للموت، وإذا مات أحدٌ لا تقرع طبول ولا تقام احتفالات.

ويمنع الرجل أن يتزوج أخت زوجته، وإذا مات فمن حق أخيه أن يتزوج امرأته بعد مضي سنة على وفاته، وعندما يحين الموعد المحدد لانتهاء السنة فإن عليه أن يحضر تيساً و يذبحه و يرش مخلفاته على المرأة وأولادها من أخيه المتوفى، وإذا لم يفعل هذا فإن هناك اعتقادا بأن الأطفال الذين سينجبهم منها معرضون للموت، وإن المرأة نفسها معرضة للموت، وإذا حدث وعاشر رجل فتاة بِنِيّة الزواج منها ولم يدفع لها مهراً، فعليه أن يدفع غرامة كسر بيت[1] وتعادل ست بقرات، ومن حق الرجل أن يتزوج كما يشاء طالما لديه القدرة على دفع المهر، وكان هناك رجل قد تزوج عشرين امرأة، وجعل لنفسه أسرة كبيرة تعيش كقرية على بعد ثمانية عشر ميلا من الموقع الذى كنا نجلس فيه.

وإذا توفي رجل وعنده أكثر من زوجة، وله ولد واحد فقط، فإن زوجاته يصبحن زوجات لأشقائه، وتترك أصغر الزوجات للإبن الوحيد بشرط أن تكون

---

(١) كسر البيت يقصد به فض البكاره.

أصغر منه سناً ، أما إذا كان لديه أكثر من ولد فإنهم يتقاسمون الزوجات بشرط ألا تكون هي الأم ، وأن تصغره سناً ، وفى حالة الإنجاب منهن ينسب الأطفال للأب المتوفى .

وطبقاً لعادات البويا فإنهم لا يُخَتِّنون الأطفال ، ليس بسبب دخول المسيحية عندهم ولكن هكذا هي عاداتهم منذ القدم .

وعندما تلد امرأة يسمى الطفل بمجرد سقوط الحبل السرى ، ويحتفلون بمولودهم سواء كان ذكراً أوأنثى ، و يعدون المريسة استعداداً للاحتفال بهذه المناسبة ، و يوجد فى القرية نسوة متخصصات للتوليد بوظيفة المُوَلِّدة (الدّاية) .

وهم يتحدثون اللغة العربية بلكنة يصعب فهمها و يقولون أنهم لايعرفون متى دخلت إليهم هذه اللغة ، فقد تربوا وعاشوا ووجدوا هذه اللغة شائعة بينهم ، ومما لاشك فيه أنّ اللغة العربية جاءت مع التجار الشماليين والجيش المصرى والتركى فى القرن التاسع عشر ، وهم يتفاهمون مع القبائل الأخرى التى لا تتحدث لغتهم إما باللغة الانجليزية عن طريق أحد المتعلمين منهم أوبلهجتهم العربية المحلية .

والأمراض الشائعة هي الملاريا ورمد العيون ، والنيمونيا التى تجعل الطفل كارهاً للبن أمه ، وتسبب الوفاة بين الأطفال . و يروى أنهم فى الماضى كانوا يدفنون الميت واقفاً(١) ، أما الآن فيدفن بالطريقة العادية فى بيته ، و بعد دفنه يذبح تيس أوثور و يرش دمه على القبر ، و يقدم الطعام للمعزين مع شراب المريسه ، ويميز أبناء البويا أنفسهم عن أبناء القبائل الأخرى بكسر نصف السن الأسفل ، و بارتداء جلود يصنعونها بأنفسهم لتميزهم عن غيرهم .

وسلطان البويا يرتدى من الملابس مايشاء ، وأوامره لاتخالف . وهم لا يؤمنون بسلطان « الكجور » المتخصص فى السحر وعلاج المرضى ، و يعتمدون فى علاج الأمراض بالأعشاب ، وسلطان المطر له احترامه وهيبته بينهم ، وله وضع اجتماعى مميز يأتى بعد سلطان القبيلة ، وحينما يقرر إنزال المطر يذهب إلى أماكن لا يعرفها أهل القبيلة وعند ذاك يقولون :

ها هو قد ذهب لإنزال المطر.

---

(١) غير مؤكد .

وللقبيلة قانونها ؛ فإذا ارتكب أحد من أفرادها جريمة قتل ، فإن شقيقة القاتل تُعطى كفدية لأهل القتيل ، أويدفع ما يطلب منه من بقر، أما السارق فإذا أُلقي القبض عليه ، فإنّ جزاءه ضرب مُبَرِّح لا يؤدي إلى موته . وإذا كان يمتلك بقراً يصادر، أما الآن فإن السارق أو القاتل يمثل أمام محكمة حكومية لإصدار الحكم المناسب عليه .

و يقسم الميراث بين الإبن الأكبر وإخوته وأخوالهم ، ولكل زوجة نصيبها من البقر، أما الفتيات فلا يحصلن على شيء .

و يقولون إن مشاكلهم الرئيسية هي مع قبيلة التابوسا التى تستولى على أبقارهم ، أوعندما يتعرضون للمجاعة كما حدث عام ١٩٨١ . وفي هذه الحالة تقل كمية اللبن التى يعتمدون عليها فى غذائهم ، ولتعويض ما افتقدوه يلجأون إلى دم البقر يستخرجونه من وريد الرقبة ويمزجونه مع الحليب و يشربونه .

تقل نسبة الطلاق عندهم وتكاد تنعدم وخاصة من جانب الرجل ، وإذا اكتشف رجل أن زوجته على علاقة برجل آخر فإنه ينتقم بقتله ، وإذا ذهبت المرأة إلى بيت أهلها فمن حقه أن يطالب باسترجاع أبقاره ، و يكون الأولاد فى حضانته وتحرم الأم منهم ، ولذلك يندر أن تتخلى المرأة عن زوجها ، وإذا كانت الزوجة سيئة السلوك فله الحق أن يطلقها و يأخذ منها أولاده فقط ، أما الأبقار التى دفعها مهراً فتبقى للزوجة . ومناطق البويا غنيّة بالثَّروات المعدنية كسائر المناطق الأخرى ولكنها لم تكتشف بعد ، ومن أهم معالمها جبال لوباي وكودوجاك وكبراتيو، وتُوجد لديهم خلايا عسل النحل فى الأشجار والتى تمثل لهم مصدراً غذائياً واقتصادياً . وهناك مناطق لم تصلها الكهرباء ووسائل الحياة الحديثة ، حتى أنهم لا يكادون يعرفون السيارات .

متوسط العمر فى قبيلة البويا نحو خمسين عاما ، وهم متوسطو القامة . ومن مطالبهم إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم .

* * * * *

قبيلة
البـاريـا

(٧)

البـــــاريا

تتميز قبيلة الباريا عن القبائل الأخرى فى جنوب السودان بأن لها عادات خاصة لا تشاركها فيها قبائل أخرى، فالقبيلة تَعْرِفُ نِظام الطَّبقيَّة، فيها السلاطين، والزراع، والحرفيون والصيادون، والخدم. ومن العادات القديمة لهذه القبيلة أن يبقى الخادم الأكبر مع سيده السلطان ـ إذا توفي ـ فى قبره وتحت جثمانه لمدة أربعة أيام إلى أن تتحلل الجثة وتفرز سائلها عليه، عند ذلك يسمح له بالخروج ويُنَصَّب مستشاراً للسلطان الجديد الذى هو عادة ابن أوأخ السلطان الراحل، بدون أن يكتسب مميزات جديدة ترفعه عن طبقة الخدم اللَّهم إلا إنه لا يُكلَّف بأعمال بدنية، ومن هذه العادات أيضاً أن الفتاة عندما تصل إلى سن الزواج يكون عليها أن تقتلع أربعا من أسنانها السفلى، دليلاً على أنها قد نضجت وأصبحت مؤهلة للزواج.

لعل هذه الصفات الخاصة لعادات القبيلة هي التى صنعت اسمها، فكلمة (باريا) الذى هو اسم القبيلة يعني لديهم «لسنا كذلك»، حيث كان الناس فى الماضى يسألون بعضهم بعضاً فى تنقلاتهم هل أنتم كذا وكذا؟ فيردون «لا نحن بارى» أى نحن لسنا كذلك.

وقبيلة الباريا من القبائل الكبيرة فى إقليم الإستوائية، وأن الأصول القديمة لها جاءت من شرق أفريقيا؛ من كينيا وأوغندا. وكانوا يقطنون المنطقة الواقعة حول بحيرة فيكتوريا، فوصلوا إلى جوبا عن طريق كابويتا شرق الإستوائية، ومنها عاد بعض منهم إلى أوغندا وزائير مرة أخرى، وبدأ وصولهم إلى الأراضى السودانية من شرق أفريقيا فى القرن العاشر أوالحادى عشر الميلادى. وتنتمى إلى القبيلة سبع قبائل فرعية منها كاكوا، ونيبو، وفوجولو بانجيرا، وموندارى، وفوجولو، وتتخذ كل قبيلة لها مركزا، فوندارى مركزها فى تركاكا، وكاكوا فى «ييي»، و«كوكو»

فى «كاجي كاجي» ، أما المركز الرئيسى للقبيلة الأم الباريا ، فيوجد فى جوبا(1) .

وتتشابه العادات فى هذه القبائل ، و يتحدثون جميعهم لغة الباريا ، وكل قبيلة فرعية مقسمة إلى فخوذ ، وكل فرع وفخذ له عاداته ، ولا يتزوج أبناء القبيلة من بعضهم ، فكلهم يعتبرون أنفسهم إخوة وأخوات .

وللرجل أن يتزوج كما يشاء طالما لديه القدرة على دفع الأبقار التى تطلبها أسرة الفتاة كمهر لها ، و يستطيع أن يكون قادراً على بناء كوخ لها فى فناء بيته الذى هوعبارةعن عدة أكواخ داخل سورواحد (البامبو) . والكوخ يسمى قطية ، ولكل زوجة قِطّيَتُها الخاصة بها ، إلا أنه مع تطور الحياة وقلة عدد الأبقار فإن من تتاح له فرصة التعليم والخروج إلى المدن أصبح يكتفى بزوجة أواثنتين ، أما الذين لا زالوا يعيشون فى القرى البعيدة فهم متمسكون بعاداتهم القديمة فى تعدد الزوجات .

والأمر الهام فى الزواج هو دفع المهر ، والمهر عبارة عن عدد من البقر ، والعدد يتفاوت من شخص إلى آخر حسب مركزه فى القبيلة ، وعادة لايقل عددها عن اثنتى عشرة بقرة ، توزع على أهل الفتاة على النحو التالى : بقرة أوثور لكل من أم الفتاة ووالدها وجدها وجدتها إذا كانا على قيد الحياة ، ثم يضاعف لهم البقر كضمان للأسرة خشية أن يختلف معهم الزوج ، أوفى حالة غضب يسىء فيها إلى والد زوجته أووالدتها ، أى بمثابة غرامة مسبقة لأخطاء قد يرتكبها الزوج فى المستقبل ضد والد الفتاة أووالدتها ، وهكذا يدفع العريس ثمانى أبقار أوثيران لأهل العروس ، كما يدفع فقط بقرة لأكبر أخوالها أوأعمامها ، ثم يدفع ثوراً للمسئول عن حظيرة الأبقار ، وثوراً آخر يكون بمثابة قائد قطيع البقر و يعلق على رقبته جرس ، و بذلك يكون عدد مايجب أن يدفعه العريس من الأبقار اثنتى عشرة بقرة وثور.

---

(1) لقاء مع هنري باولو لوقالي رئيس جامعة جوبا ، وهو واحد من كبار السياسيين فى الجنوب ، وقد تقلد عدة مناصب وزارية فى الحكومتين المركزية والإقليمية ، ومايزال رئيساً لمجلس ادارة جامعة جوبا .

والزوجة ليس لها نصيب من هذا المهر بل ليس لها الحق حتى فى أن تشرب من لبن هذه الأبقار عند زيارتها لأهلها ، وأنَّ كل ماتأخذه هو ما تحضره لها والدتها من ملابس وأدوات للطبخ وهي أدوات بسيطة للغاية .

وعادة ما تلد الزوجة مولودها الأول فى بيت أهلها ، وبعد سبعة أوعشرة أيام من ولادتها يأتى زوجها بخروف ويذبحه لإطعام النساء اللائى قمن برعايتها ، وتظل الزوجة فى بيت أهلها لمدة شهرين أوثلاثة أشهر يتكفلها والدها خلال هذه الفترة ، ولا يصح اجتماعياً أن يفعل ذلك زوجها حتى لا يسيء إلى سمعة الأب ، ولذلك فقد جرت العادة أن الزوج إذا عثر على صيد سمين أو كان معه طعام جيد ويريد أن يبعث به لزوجته ، فعليه أن يحضر إلى بيت أهلها فى ساعة مبكرة من الصباح ويسلمه لأم زوجته دون علم أحد ، وهذه السرية لحماية كرامة أم الزوجة حتى لا تُعَيَّر بأن زوج ابنتها يحضر لهم طعاما أوصيداً .

وللقبيلة عاداتها الخاصة ، فعندما تبلغ الفتاة سن الزواج أويتقدم لها شاب فإن عليها أن تقوم بخلع الأسنان الأربع السفلية ، وعادةً مايجرى احتفال لهذه المناسبة كل عام ، حيث يتم خلع الأسنان بشكل جماعى وفى يوم واحد ، ويتولى ذلك شخص متخصص فى هذه العملية ، وهذا أمر ضرورى ولابد منه ، فإن المجتمع ينظر إلى أيِّ فتاة تصادق شابا نظرة تسيء إليها خاصة إذا حملت قبل خلع أسنانها وتُعَيِّرُها النساء ، ولو حصل أن واحدة حملت بعد خلع أسنانها وأخرى لم تخلعهم وتشاجرتا ، فإن التى خلعت تقول للأخرى : — (أنا ما زيك حملت بسنونى) أى إنَّنى لست مثلك حملت قبل خلع أسنانى (بمعنى أن التى تحمل قبل أنّ تخلع أسنانها تعتبر منحرفة) ، وأكثر من هذا فهم يُشَبِّهونها بالضبعة .

والمجتمع ينظر إلى خلع الأسنان السفلية على أنه رمز للجمال ، وعند عملية خلع الأسنان يجب ألا تشكو البنت رغم أن ذلك يتم بدون مُخَدِّر ، وإذا صرخت يقولون عنها إنها غير شجاعة ، بمعنى ليست أهلاً للزواج .

وقد بدأت هذه العادة تتلاشى منذ سنوات .

وأنَّه فى الماضى كانت الفتيات بعد خلع أسنانهن يذهبن إلى أسواق جوبا متباهيات بأنفسهن ويتعمدن الابتسام حتى يبدين بلا أسنان ، دليلاً على أنهنّ

ناضجات وفى سن الزواج، وبما أنهن عاريات البطن والصَّدر فقد تضع إحداهن حول وسطها (السكسك) وهو خرز صغير ذو ألوان متعددة كنوع من التجميل، وَتمُسِكَ بعصى من الخيزران لتستعرض أمام الشباب.

ولا يقام احتفال بليلة الزواج، كما هو متبع عادة فى مثل هذه المناسبة، والمهم هو أن يدفع العريس المال الذى هو عبارة عن البقر وهذا أهم مافى الأمر. و يُحَرَّم زواج الشاب من نفس الأسرة أومن فخذ القبيلة التى ينتمى إليها، وإذا حصل وتزوج بالخطأ واكتشف ذلك، فعليه أن يذبح تيساً، و يشترك هو وزوجته فى قطعه بأسنانها حتى ينقسم إلى نصفين، فتأخذ كل أسرة نصف الذبيحة، وذلك تكفيراً عن الخطيئة التى ارتكباها دون قصد.

والاعتداء على فتاة (حتى لو كان برضائها) بدون زواج، أمر يحدث أزمة اجتماعية خاصة إذا حملت، و يعتبر هذا نوعا من أنواع الجريمة، وفى هذه الحالة فإنه يفرض على الشاب الذى اعتدى على تلك الفتاة أن يتزوجها، ولكن عليه قبل ذلك أن يدفع غرامة (كسر بيت) أى فَضَّ بكارة ثم يتفاوض مع أهلها للزواج، وبعد موافقتهم يدفع مهراً كاملاً، ولو رفض يحكم عليه بالسجن، وهكذا فإن الإتصال الجنسى بالفتاة يعتبر زواجا ولابد من دفع البقر الذى هو المهر، أما إذا استخدم العنف مع الفتاة (أي اغتصبها عنوة) فالأمر فى هذه الحالة يصبح أكثر خطورة ولابد أن يدفع غرامة كبيرة، وهي عبارة عن ثور ثم يدفع المهر كاملاً و يتزوجها، وفى الماضى كان شقيق الفتاة يقتل من اعتدى على أخته بالحربة

تطورت هذه العادات الآن، فقد تذهب الفتاة للزواج دون موافقة أهلها، حتى لو لم يدفع العريس البقر، وعند ذلك يصبح المهر ديناً عليه يسدده كلما توفر لديه شىء من المال أوالبقر، وقد يدفع عدداً من (المالوده) التى هي آلة حديدية تستخدم فى الزراعة لحرث الارض.

وفى الماضى كان الطلاق ممنوعاً، أما الآن فإن القبيلة تقوم بمحاولة فرض الصلح على الزوجين، وإذا لم تنجح المحاولات، يجرى تقسيم البقر على الأبناء، و يبقى الأبناء مع أمهم التى تحتفظ أيضاً ببقر أبنائها، أما إذا لم تكن قد أنجبت

فإن جزءاً من البقر يعود إلى الزوج بصرف النظر عمن تسبب فى الطلاق سواء كان الزوج أو الزوجة .

وللرجل وظيفته الّتى تختلف عن وظيفة المرأة ، فهو مسئول عن الزراعة و بناء البيت (القطية) والدفاع عن الأخطار ، أما المرأة فوظيفتها إحضار المياه وإعداد الطعام وتنظيف البيت وجلب (القش) أعواد السافانا والأخشاب ، والولد يتبع والده فى العمل ، و يذهب معه إلى الزراعة أو الصيد و يتعلم منه العادات والتقاليد ، وإذا كان يذهب إلى المدرسة فإنه يلحق بأبيه بعد عودته منها ، أما البنت فتتبع والدتها وتتعلم منها أمور البيت ووظائف المرأة فى القبيلة ، وعادة ما يذهب الولد لرعى البقر والغنم مع آخرين أكبر منه سناً ، وهم يحملون حرابهم و يذهبون إلى أماكن بعيدة ، والحراب سلاح هام فى أيدى أبناء القبيلة للدفاع عن النفس وخاصة أثناء الرعى ، فإذا ما تعرض القطيع لهجوم من أيّ حيوان وحشى مهما كان ، فلا بد أن يطاردوه بالحراب حتى يقضوا عليه أو يبتعد عن قطعانهم ، وفى مناطق القبيلة تكثر الحيوانات البرية كسائر مناطق الجنوب ، ومن هذه الحيوانات : الأسد ، النمر ، الفيل ، والزراف ، والنعام ، والتيتل ، والجاموس ، وتعتبر مناطق الباريا مناطق صيد جيدة .

وللأسد قصة عند هذه القبيلة وله مكانة فيها ، حيث يروى أنه قديماً كان إذا تقدم شاب للزواج من فتاة وماطل فى دفع المهر بعد زواجه منها ، فإن أهل الزوجة يهددونه بأنهم سيلجأون إلى من يحضر الأسد ، وهم يعتقدون أن هناك من يستطيع إحضاره ، و يقول والد الفتاة لزوج ابنته إذا لم تدفع المهر سنذهب لمن يحضر الأسد ، و يذهب والد الزوجة و بعض إخوانها إلى متخصص من رجال القبيلة يشكون إليه أن فلاناً زوج ابنتهم لم يسدد ماعليه من مهر رغم أن ظروفه ميسورة ، وأنهم يطلبون منه أن يحضر الأسد فى الليل ليهجم على حظائر ماشية أهل الزوج ، و يتم ذلك بالفعل ، وعندما تستيقظ الأسرة وترى أن بقرة قد أُصيبت يتساءلون عن السبب ، وذلك لاقتناعهم أن الأسد لا يهجم من تلقاء نفسه ما لم يكن مُحَرَّضاً من قبل أحد ، فإذا ماعرفوا أن فلانا هو السبب فى ذلك يطالبونه بأن يفى بالتزاماته مع أسرة زوجته ، كي لا تتعرض أبقارهم لهجمات أخرى ، ويجبرونه على أن يسدد

ماعليه، وعند ذلك يذهبون إلى من أحضر الأسد و يكرمونه و يطلبون منه منع حضور الأسد فيمتنع، و يعود الأمن إلى ربوع المنطقة.

كيف يحدث ذلك؟

لقد كان هناك اعتقادٌ لدى الناس فى الماضى وهو أنَّ الإنسان يمكن أن يتحول فى الليل إلى أسد، و ينتشر هذا الاعتقاد فى القبيلة، وقد حكى أحد من أبنائها أنه ذات يوم شاهد إنسانا فى الصباح له أُذن أسد، وأدرك ساعتها أنَّ الأسد كان يعود إلى طبيعته كإنسان، ولعل مثل هذه الروايات هي نوع من أنواع الأحاجي التى تدخل فى المعتقدات القبلية حيث السحر والتحولات من إنسان إلى حيوان أو العكس وفقاً لطبيعة الحياة السائدة فى البيئة.

وللقبيلة سلاطين، تتوزع اختصاصاتهم لتنظيم شئون القبيلة كل فى المنطقة الخاصة به، وكل قبيلة صغيرة بها سلطان، وعلى سبيل المثال فإن منطقة البار يا المجاورة للنهر لديها عشرون سلطاناً، وأصبح للسلطان الآن وظيفة حكومية ولهُ مُرتَّبه الخاص، وهو مسئول عن قطاع من القبيلة ومن مهام عمله جمع الضرائب للحكومة، وهو بمثابة قاض لديه محكمة صغيرة يصدر أحكامه ويحولها للمركز، إلا أن السائد هو قضاؤهم القبلى الذى ورثوه عن أجدادهم.

ومن أبرز السلاطين سلطان المطر، و يعتقد الناس إلى حد كبير فى أهمية دوره فى إنزال المطر، وهو لا ينتخب مثل السلاطين الآخرين، وإنما يتوارث هذه السلطة عن آبائه وأجداده.

وهناك بحث لكاتب بريطانى زار المنطقة فى الثلاثينيات من هذا القرن، أعطى تفسيراً لأصل قصة سلطان المطر إذ أن مصدرها أسطورة تعتمد على عادة قديمة، هي أن المرأة إذا ولدت توءما يعتبر نذير شؤم فى القبيلة، ومن ثم يتخلصون من أحدهما و يبقى الطفل الآخر، و يعتقدون أن الحيوانات فقط لها أن تنجب توءما وليس الإنسان.

وتقول الأسطورة إن إمرأةً ولدت توءمين ذكرين، فقررت القبيلة أن تتخلص من أحد الطفلين، وأمروا الأم بأن تأخذ الطفل وتتخلص منه، لكن غريزة

الأمومة منعتها من ذلك فأخفت الطفل، بأن وضعته فى صندوق خشبى وربطته بواسطة حبل إلى شجرة كيلا يجرفه التيار، وكل صباح ومساء تذهب إليه خفية وترضعه، وبعد أيام أصيب الطفل الآخر الذى فى حضانة الأسرة بمرض ومات، فندبت الأسرة حظها، وندمت على فعلتها بقتل الطفل، وعند ذلك أعلنت الأم لهم أن الطفل الآخر مازال حياً، وحكت لهم قصتها، وأحضرته لهم. وباعتبار أنه عاش فترة على سطح الماء، فقد اعتبرته الأسرة مباركاً لأن الماء حفظه ونجّاه، فلما كبر وتأخر هطول المطر عن موعده لجأوا إليه فقام بأدعية، نزل بعدها المطر فَسُمِّيَ سلطان المطر، وهكذا أصبحت ذريته من بعده.

ويعتقد أهل القبيلة أنّ سلطان المطر لديه خاصية الاتصال بالاله الأكبر الذى يسمونه «باؤون»، ومعناه أعلى شىء وقادر على كل شىء، وإذا فشل سلطان المطر فإنهم يوسعونه ضرباً بالسياط أويربطونه إلى شجرة بجوار نار موقدة حتى إذا شعر بسخونتها صاح فيهم طالباً إعطاءه فرصة لإنزال المطر، فإن لم يتمكن بعدها فصيره هو الموت حرقا، ولكنهم يؤكدون أنّه يندر أن يفشل السلطان فى إنزال المطر.

وتنفرد قبيلة الباريا بوجود مُجْتَمَعَيْن بها، هما المجتمع الحر ومجتمع البحر، والمجتمع الحر هو الذى يضم طبقة السلاطين والأثرياء، ومجتمع البحر هو الذى يضم الطبقات الأقل من المزارعين والصيادين والحرفيين الذين يقومون بالصناعات اليدوية، مثل صناعة «المالوده» وبالإضافة إلى ذلك يوجد مجتمع الخدم، وللسلاطين والأثرياء الذين ينتمون للمجتمع الحر خدمهم، والخادم لاحرية له وسيده مسئول عنه وعن حياته وحتى زواج أولاده وبناته، وهم يتزوجون من نفس طبقتهم.

ومن عادات هذه القبيلة أنّ السلطان عندما يموت يُحْفَرْ قبره ويوضع عليه سرير من الخشب (عنقريب)، ويغطى السرير بحصير يوضع عليه جثمان السلطان، وينزل خادم السلطان الكبير فى القبر، ويقيم فيه لعدة أيامٍ، يقدم له خلالها الطعام والشراب، ويظل على هذا الحال والجثة فوق السرير ممددة فوقه إلى أن تنتفخ وتتحلل ويتساقط سائلها على رأس وجسم الخادم، وعندئذ يخرجونه

و يقومون بتنظيفه و يلبسونه رداء جديداً ، وَيُرقَّى إلى وظيفة مستشار للسلطان الجديد الذى هو إما إبن أو أخ السلطان الراحل ، ولدى القبيلة اعتقاد بأن السائل الذى نزل من جثة السلطان على الخادم ، هو بركة ، قد حلت فى هذا الخادم ، ولهذا يُرَقَّى إلى مستشار و يعفى من أعمال الخدمة ولكنه يظل منتمياً إلى طبقة الخدم .

وقد حارب الإنجليز هذه العادات عندما جاءوا إلى المنطقة وأبطلوها فى الربع الأول من هذا القرن ، وأصبح السلطان عندما يموت يدفن على الفور، و يعد له قبر كبير أمام الكوخ الذى يسكنه ، ومن عادات القبيلة أن يدفنوا الموتى داخل بيوتهم ، وإذا كثرت فيها المقابر تنتقل الأسرة إلى منطقة مجاورة للبيت القديم ، وعند الدفن تقام حفلة جنائزية تدق فيها الطبول كتعبير عن الحزن .

ومناطق القبيلة غنية بثرواتها التى لم تكتشف ، فهناك خُورٌ معروفٌ باسم خور « لوري » به ذهب ، وكان خبراء من بلجيكا قد زاروا المنطقة وقاموا فيها بدراسات أثبتت وجود معادن كثيرة .

و يعتمد السكان فى زراعتهم على المطر، أما الذين يعيشون بجوار النهر من المزارعين فإنهم يزرعون أراضيهم عن طريق مياه النهر مباشرة بوسائل بدائية لاتروي إلا مساحات صغيرة .

و يتحدث السكان اللغة العربية بلهجة يصعب فهمها ، وقد دخلت اللغة العربية إليهم عن طريق حملة محمد على ١٨٢٥ ، وكذلك عندما جاءها الأثرياء من شمال السودان والدول المجاورة للتجارة فى سن الفيل فتطورت إلى الرقيق .

وقبل أن تدخل الديانة المسيحية والإسلام إلى القبيلة ، كانت لها عقائدها الخاصة بها ، فهم يؤمنون بأن هناك قوة أكبر من الإنسان ، هو الإله الأكبر، وتُسَمِّي كل قبيلة إلهها باسم مختلف عن القبيلة الأخرى ، والاسم الشائع هو « باؤون » ، وفى أعرافهم أن الإنسان إذا عمل عملاً سيئاً فإنَّ « باؤون » سيعاقبه .

إلى جانب هذه القبيلة توجد قبيلة صغيرة اسمها « لوكايا » لها لغتها الخاصة وتعدادها يصل إلى ألفي نسمة ، يقيمون على مساحة تصل إلى نحو مائتي كيلو متر

مـربع ، لـكنهـم يـتـكـلـمـون لـغـة البـاريا كلغة أساسية بالإضافة إلى لغتهم ، وهم لايختـلـفـون عـن أهـل الـبـاريـا فى عاداتهم ، و يتزاوجون معهم لأنها قبيلة منفصلة عنهـم ، و يـشتهـر أفـرادهـا بالإضافة إلى الزراعة بالصناعات اليدو ية وخاصة صناعة السكاكين ، وهي مدّببة كرأس حربة ولها مقبض من القصدير.

ومـن أشهر أفراد هذه القبيلة الصغيرة سلطانها (لوليك) وابنه الدكتور باسيفيكو وهـو مـن كـبـار الـسـيـاسـيين فى جنوب السودان ، وتقلد عدة مناصب كان آخرها رئيساً لمجلس الشعب الإقليمى باقليم الإستوائية حتى ٦ أبر يل ١٩٨٥ .

* * * * *

قبيلة

الزاندى

(٨)

الزانـــــدي

تعتبر قبيلة الزاندي من القبائل الكبرى فى جنوب السودان ، وهي متواجدة فى أربع دول أفريقية ، هي نيجيريا وأفريقيا الوسطى وزائير والسودان . تعداد هذه القبيلة فى هذه الدول نحو أربعة ملايين نسمة ؛ منهم ثلاثة ملايين ونصف المليون فى زائير وحدها وربع مليون نسمة فى جنوب السودان ، والباقى موزع بين نيجيريا وأفريقيا الوسطى ، و يتكلمون لغة واحدة ، هي لغة الزاندي ، وللقبيلة عاداتها وتقاليدها الخاصة التى لايشاركها فيها أحد وخاصة تلك العادات القديمة التى توارت الآن والمتعلقة بالملوك والسلاطين ، فهم وحدهم الذين يسمح لهم بمعاشرة بناتهم ، وفى الماضى عندما كان يموت الملك تدفن معه أربع من زوجاته وهن أحياء ، وتحرص القبيلة حتى الآن على ختان الذكور سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين أو لادينيين ، وهي تتميز فى عاداتها عن القبائل الأخرى .

إن أصل كلمة (الزاندي) هو كلمة « أنزا » أى منتشر ثم حُرِّفت إلى زاندى ، أي أنها تعنى القبيلة المنتشرة ، ومعظم أبنائها يعيشون فى زائير وخاصة فى مناطق الشمال ، يانجرا و بانجادي وأندوريما وماريننجو ، وعاداتهم فى سائر الدول الأفريقية واحدة (١) .

بدأت قصة الزاندي فى السودان فى أواخر القرن التاسع عشر ، حيث أغار الملك يامبيو أحد ملوك الزاندي على القبائل الصغيرة التى كانت تسكن المنطقة وحاربها إلى أن انتصر عليها ، واستوطن مناطقها المجاورة للحدود مع أفريقيا الوسطى وزائير ، إلى منطقة « يبي » على الحدود الأوغندية (جنوب غرب جوبا) ، ثم عاد وأنشأ مملكته فى منطقة سُمِّيت باسمه (يامبيو) ، ومالبث أن غَيَّر اسمه ليصبح « بُوْدويه » إلا أن بعض اتباعه استقروا فى المناطق المجاورة ، لـ « يبي » ، حيث

---

(١) لقاء مع اللواء معاش صمويل أبوجون كباشي الذى كان أحد ضباط حركة الأنيانيا التى قادت العمليات المسلحة خلال الحرب الأهلية فى الجنوب قبل عام ١٩٧٢ والتى استمرت سبعة عشر عاماً ، وبعد توقيع اتفاقية أديس أبابا التحق بالجيش برتبة عميد ، ثم عين وزيراً للمواصلات عام ١٩٧٨ ، وتدرج فى مناصب سياسية كعضو فى البرلمان أو فى مناصب وزارية أخرى .

الطقس المعتدل ، فاستوطنوها وأقاموا بها ، كذلك انتشر أتباع الملك فى مساحة تصل إلى نحو ١٥٠ ألف كيلومتر مربع [١] فى مناطق طمبرة ، وايزو ، و يامبيو ، وأنجيزو ، وانزارا ، وسوكوريه (وهي قرية صغيرة متاخمة لحدود زائير) .

هكذا تأسست مملكة الزاندي فى منطقة غرب الإستوائية ، ونقل الملك معه تقاليد وعادات قبيلته التى تختلف عن عادات وتقاليد القبائل الأخرى ، وتعطى للملوك والسلاطين سلطات وامتيازات لايتمتع بها أفراد القبيلة العاديون ، ومن أهم هذه السلطات مايلى :ــ

١ــ من حق الملك أو السلطان أن يتزوج ما يشاء من النساء ، فمثلا إذا كان جالسا فى مكان ما ، ومرت أمامه فتاة وأعجبته ، يسأل الذين من حوله بقوله :ــ بنت من هذه الفتاة ؟ .. هذا السؤال يعني أن الملك قد خطبها ، وماعلى جلسائه إلا أن يذهب أحدهم ليسأل عن والد البنت ليبلغه برغبة الملك ، حيث يقوم بتجهيز ابنته بكل ماتحتاج إليه العروس ، بما فى ذلك العسل والمريسة ويحضرها إلى الملك ، الذى بعد أن يقضي معها ليلته الأولى يأمر بإرسال المال والأغنام إلى أبيها ، وهذا يعني مهرا أو صداقا .

٢ــ كان من حق الملك وإخوته من سلالة الملوك (السلاطين) معاشرة بناتهم قبل تزويجهن ، وعلى الإبنة أن تقدم نفسها لأبيها راضية كنوع من التبجيل ، ولايجوز لها أن ترفض حتى لا تقلل من هيبة والدها فى نظر قبيلته ، ولأنه يتزوج كثيراً من النساءــ قد يصل عددهن إلى المائةــ فهو لا يفرق بين بناته و بنات الآخرين ، ولكن هذا لا يمنع حتى لو عرف أنها ابنته ، المهم فى الدرجة الأولى أن تعجبه ، و بعدها لتكن ابنة من تشاء ، وقد حَرَّم ذلك على الناس العاديين فى القبيلة ، وأوهمهم أن من يقلده فى هذه العادة سيصاب بمرض الجذام ، و بقي الاعتقاد راسخا لديهم خاصة بعد أن حاول أحدهم من عامة الناس معاشرة ابنته كما يفعل الملك ، فأصيب بذلك المرض (الجذام) .

---

(١) هذا الرقم مصدره شفهي .

عنـدمـا يموت الملك أو أمير كبير فى الأسرة تدفن معه فى قبره أربع من زوجاته الـشابات يختارهن بنفسه قبل أن يموت ، و يكون ذلك موضع فخر لهن بين ضراتهن مـن الـزوجـات الأخـريـات لاعتقادهن أنهن ذاهبات إلى بيت آخر جديد لا يعرفه أحد ، وأنّ اختـيـار الملك لهن هو دليل على أنه خصهن بحبه أكثر من غيرهن من زوجـاتـه الـكثيرات ، مما يجعلهن موضع غيرة من الأخريات. وهكذا عندما يموت ، يؤتى بالنسوة الأربع وتُكَسَّر أذرعهن وسيقانهن ، وهن سعيدات بذلك ، حيث تُرَصُّ اثـنتان فى أسفل القبر ليوضع جثمان الملك عليهما ، و يؤتى بالأخريين وتمددان فوق الجثـمـان ثم يـغـلـق عـليهـم القبر، وبعد عام من الوفاة يقام احتفال كبير تدقُّ فيه الـطـبـول لمدة سبعة أيام وتذبح فيه الذبائح ، وتشرب المريسة بكثرة ، ولا يجوز أن تـقـام خـلال ذلـك الأسـبـوع أية احـتـفـالات أخـرى. هـذا ما كان من أمر الملوك والأمراء.

أما أبـنـاء الـقـبـيـلـة فلهم طقوسهم الدينية وعاداتهم فى الزواج ، فكانوا يؤمنون بـوجـود آلهة متـعـددة ولـيس إلهاً واحدا ، وأهم هذه الآلهة عندهم الإله «مازيجا» والإلـه «بـاؤون» الـذى يـلـجـأون إليـه لإنـزال المطر، فعندما يتأخر سقوط المطر، وتُـهَـدّد محـاصيلهم الزراعية ، يتوجهون الى الإله «باؤون» بقربان ، والقربان عبارة عـن دجـاجـة ويحـمـلـون مـعـهـم آلاتـهـم الـزراعـيـة إلى أحـد الأنهر الصغيرة ، وسط احـتـفـالات كـبـيـرة تـبـدأ فى الـصباح المبكر وهم يضربون على الطبول (النقارة) و يـشـربـون المـريـسـة ، وعند النهر يذبحون الدجاجة ليسيل دمها فى مياهه ، و يتلون صـلـواتـهـم لـلإله «باؤون» و يسألونه أن ينزل عليهم المطر، فإذا لم يسقط المطر بعد هذه الطقوس ، يذهبون إلى الإله الأكبر «مازيجا» حيث يتوجهون إلى نهر أكبر يتميز بـقـوة انـدفـاع المياه فيه ، وعنده يؤدون صلواتهم و يدقون الطبول و يشربون المريسة و يـذبحون هذه المرة كمية من الدجاج ، لا يأكلها أحد ، لأنها ذبحت خصيصاً للإله «مـازيجـا» تـقـربـاً إليه كي ينزل عليهم المطر.. وبسؤالى وهل ينزل المطر فعلاً؟ أكـد مُـحَـدِّثـى أنّـه لم يحدث أن خيَّب الإله الأكبر ظن الناس فيه ، أما الأصغر فليس دائماً يحقق لهم مايريدون.

ومن عادات الزواج قديما أنَّ البنت تتم خطبتها بمجرد ولادتها، فعندما تنجب أسرة ولداً وأخرى بنتاً، فإن الأب الذى أنجب ولداً يذهب خفية إلى بيت الأسرة التى أنجبت بنتاً، حاملاً معه سمسما وخضروات ويجلس أمام مدخل كوخ أهل البنت، وعلى مرأى من أهلها، دون أن يكون لديهم علم مسبق بحضوره، ويحرق ماأحضره معه أمامهم، فيعلم أهل البنت أن هذا قد خطب بنتهم لإبنه الوليد، دون أن يسألهم أو يستأذنهم، فيصبح الأمر بعد ذلك مسلماً به، لا يحق لأهل البنت رفضه ولا حتى مناقشته، وعندما تكبر الطفلة لا يأخذون رأيها، فقط يخبرونها أنها مخطوبة لفلان ــ فكأنها ولدت وولد زوجها معها ــ، وعند الزواج يقدم الشّاب مَهْرَهُ وهو عبارة عن عشر حراب لأهل الفتاة، ولا يسمح لها بالإتصال جنسياً بأى رجل قبل زواجها حتى مع خطيبها، أما فى الوقت الحاضر فلم يعد يعمل بهذا التقليد ولا يشترط بكارة البنت..

والمسموح به حتى الآن، هو أن يعاشر الزوج شقيقات زوجته اللائى هن أصغر منها سِناً وغير متزوجات، كما يحق له أن يعتبر الواحدة منهن زوجته و يبقي عليها معه إن هو أراد، أو يسمح لها بالزواج من غيره، ومن تتزوج منهن يوقف اتّصاله الجنسى بها.

وعندما جاء الإنجليز إلى المنطقة عام ١٨٩٨ قضوا على مملكة الزاندي فى غرب الإستوائية جنوب السودان، وقتلوا الملك يامبيو الملقب بالملك « بُوْدِوَ يه » وفرقوا أبناءه الأمراء على مناطق الزاندي برتبة سلطان، ومنعوهم من دفن زوجاتهم معهم والزواج من بناتهم.

ومع قضاء الإنجليز على مملكة الزاندي، اُبْطِلَتْ كثير من العادات وخاصة تلك المتعلقة بالملك والسلطان، وأصبح السلطان يدفن بمفرده كسائر النلس، ولا زالت بقايا عاداتهم القديمة حتى الآن مثل تعدد الزوجات، وزواج السلطان من بنت أخيه، ومعاشرة شقيقة الزوجة الصغيرة غير المتزوجة، وإذا أنجبت من زوج أختها ينقل الطفل إلى بيت والده مباشرة، و يصبح إبناً للزوجة الأولى و يتوقف عن معاشرتها بعد أن تتزوج، أما الأخت الكبرى للزوجة فلا يقربها ويحترمها كثيراً لأنه يعتبرها بمثابة أخت له.

ولم تعد تتم خطبة الفتاة بمجرد ولادتها ، إنّما يحدث ذلك عندما تكبر، فيؤخذ رأيها ، وتُسأل ثلاث مرات عما إذا كانت توافق على الزواج من ذلك الشخص الذى تقدم لها ، فإذا وافقت ، عليها أن تجيب بنعم ثلاث مرات ، وعند ذلك يسمح للشاب بتقديم المهر، وبذلك تكون قد تمت مراسم الزواج ، أما إذا رفضت فتبلغ أهلها الذين بدورهم يخبرون الشاب المتقدم لخطبة ابنتهم بعدم موافقتها ، والشاب لا يتقدم إلى الأسرة مباشرة لخطبة ابنتهم ، وإنّما يستطلع رأيها أولا عن طريق أصدقاء له أو صديقات للفتاة .

وممارسة الجنس مع أى فتاة تعني الزواج ، فلا توجد فتاة غير عذراء ، وإذا وجدت فإن من فض بكارتها وعاشرها هو الذى سيتزوجها لأن الأهل على علم بذلك ، ولا يمانعون فى أن يعاشر الشاب ابنتهم ، لكن بشرط ألا يستمر ذلك طويلاً ، وعليه أن يأتى بعد أيام إلى أهلها و يتقدم رسميا للزواج ، ولكن قبل هذا عليه أن يدفع غرامة كسر بيت أى فض بكارة الفتاة ، وإذا ماطل وهرب فإنهم يقاضونه أمام المحكمة التى تحكم عليه بدفع غرامة حسب وضعه المالى ، فقد تصل إلى ألف جنيه وأقلها عشرون جنيها لمن لا يملك شيئا ، وفى حالة الاغتصاب فإن العقوبة والغرامة أكبر. وكان أشقاء الفتاة فى الماضى يقتلون من اعتدى على شرف أختهم .

وعند مخاض الزوجة للولادة لا يغادر الزوج بيته ، و يظل باقياً فى الفناء ينتظر إعلان الخبر السعيد ، إلى أن يسمع صياح المولود، و يسأل أهو بنت أم ولد؟ فإن كان ولداً يعطيه اسماً على الفور، أما إذا كانت بنتاً فيتناقش مع زوجته فى تسميتها ، و يظل الوليد ثلاثة أيام لا يخرجونه من الكوخ حتى يجف حبله السُّرِّى و يقع .

ويختن الطفل عندما يبلغ سن الخامسة أو السابعة على الأكثر، سواء كان مسلما أو مسيحيا أو لا دينيا ، و يتم الختان بشكل جماعى حيث يجمع الأطفال الذين هم فى أعمار متقاربة ويختنون فى معسكر خاص ، و يبقون فيه لمدة شهرين لا يشاهدون خلالها النساء ولا يعودون إلى أهلهم إلاّ بعد شفائهم تماما ، وعند ذلك

يقام لهم حفل تدق فيه الطبول (النقارة) ، وتتشاءم الأسرة من الشخص غير المختن ، فلو وقع ضرر فى منزل أحدهم و يوجد فيه شخص غير مختن ينسبون إليه ماحصل .. أما البنات فلا يُخَتَّنَّ .

ومن عاداتهم الاجتماعية أن علاقة الزوج بأهل زوجته تصبح أقوى من علاقته بأهله بعد الزواج من ابنتهم ، ولو فرض أن والده توفي ، وفى نفس الوقت توفي فرد من أسرة زوجته ، فإنه يقوم بواجبه نحو قريب زوجته و يشارك فى الدفن واستقبال المعزين ، ثم بعد أن ينتهي من ذلك يذهب لأداء الواجب نحو أبيه أو أمه أو أيّ فرد توفي فى أسرته ــ و بطبيعة الحال فإن أزواج أخواته يقومون بنفس الدور مع أبيه وأمه وأسرته ــ فالأولو ية فى كل شيء لأهل الزوجة وحقوق أهل الزوجة أكثر من حقوق أهله ، ولا يجوز للزوج أن يخاطب أهل زوجته بصوت عالٍ ، وهذا الاحترام يظل باقيا حتى لو طَلَّق زوجته ، فالعلاقة بهم تظل بنفس الدرجة لا تنتهي إلاّ بالموت .

والطلاق يتم بسبب الخيانة الزوجية [1] ، التى تعتبر جريمة قد تؤدى إلى القتل ، وهناك طريقتان لمعالجة هذه المشكلة ، فإما أن يبلغ الزوج أهلها فينذرونها بعدم تكرار الخيانة الزوجية تجنباً للفضيحة ، أو يذهب إلى سلطان المنطقة أو الشرطة .

وهناك نساء يطلبن الطلاق فى المحكمة بحجة أن أزواجهن لا يؤدون واجبهم تجاههن كرجال ، فإذا أنكر زَوْجٌ اتهام زوجته له أمام المحكمة ، وأرادت المحكمة أن تتأكد من أقواله ، تُحْضِرْ امرأتين مُسِنَّتين وتدخلهما مع الرجل و يطلبون منه معاشرة زوجته أمامهما لينفى عن نفسه اتهام زوجته له ، فإذا شهدت المرأتان بعدم قدرته ، يحكم للزوجة بالطلاق . و بعض الرجال يشعر بالحرج تجاه هذا الموقف فيتخلى عن زوجته و يعترف بعدم قدرته تجنباً لمشاهدة المرأتين المسنتين له وهو يعاشر زوجته ــ رغم علمه أن هذه مجرد حيلة من الزوجة لطلب الطلاق ــ ولو حدث أن أثبت قدرته أمام المرأتين ، تُتَّهم الزوجة بالكذب وتسجن لمدة شهر ، وإذا تكرر منها

---

(١) قبل أن تتزوج الفتاة من حقها أن تمارس الجنس كما تشاء .. أما بعد الزواج فلا يحق لها ذلك إلا مع زوجها الذى ارتضته زوجاً لها .

اتهامها لزوجها تسجن ستة أشهر أخرى وتعيد لزوجها أمواله ويحكم له بالطلاق، لأنها تسعى إلى تشويه سمعته، وأنها ليست أهلاً له.

وماذا عن حياتهم العملية؟

تعتمد قبيلة الزاندي فى حياتها على الزراعة، فيزرعون الذرة والفول والسمسم، والفاكهة مثل الأناناس والمانجو والموز والشَّطَة الحارَّة، أما الجوافة فهي كثيرة وتنمو من تلقاء نفسها، وبمناطق الزاندي ينابيع وأنهار صغيرة تصب فى نهر بحر الغزال، ويعتمدون أيضاً على المطر، وهناك سلاطين للمطر كما فى القبائل الأخرى حيث يعتقد أبناء القبيلة أنهم ينزلون المطر بطريقتهم الخاصة، وتقدم لهم العطايا من المحاصيل الزراعية، وينالون عقابهم إذا فشلوا فى إنزال المطر، وقد يصل العقاب إلى حرقهم بالنار.

ولا يوجد فى مناطق الزاندي بقر كثير أو ماشية، ولذلك فهم يعتمدون على حيوانات الصيد من الغابة والدجاج، ومن يعيش منهم فى المدن يأكل لحم البقر الذى يباع فى الأسواق، وهم لا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة مثل بعض القبائل، خشية الإصابة بالأمراض، ويأكلون لحم الصيد بشرط أن يكون قد مات نتيجة إصابة بحربة وليس موتا طبيعيا، حيث يجففون اللحم على النار ويحتفظون به أياما يأكلون منه.

أما السحر أو مايشبهه فله عندهم أهمية خاصة ويسمونه «الكيجور» ويعتقدون فيه، وهناك أنواع متعددة منه ــ وإن كان أقرب إلى العادات البدائية منه إلى السّحر ــ فهناك مثلاً نوع يسمونه «بانجيه» وهو لمعرفة أسباب المرض، فإذا أصيب أحد من الأسرة بمرض ما، وظن أهله أن هذا من فعل فاعل، يذهبون إلى «الكيجور» الساحر ليقطعوا الشَّك باليقين، ويشرحون له مرضه فيسألهم: ــ هل تَشكّون فى أحد؟.. فيبلغونه باسم من يشّكون فيه، فيأتى بأغصان شجرة صغيرة يغلونها أو تنقع فى ماء حتى يصبح شديد المرارة بتأثير هذا النبات، ثم يأتى «بكتكوت» صغير، ويقول «الكيجور»: ــ إذا كان فلاناً هذا قد عمل عملاً لهذه الأسرة فإن هذا «الكتكوت» يموت بعد أن أنَقِّط من هذا الماء فى منقاره،

فإن مات « الكتكوت » تكون نسبة الشَّك خمسين بالمائة ، فيأتى « بكتكوت» آخر ويكرر معه التجربة على نية ألا يموت الكتكوت فى هذه المرة ، فإذا لم يمت فإن الشك يصبح يقيناً ، وتبحث الأسرة عن الأسباب التى دفعت هذا الشخص ليعمل لهم هذا العمل ، ويرسلون له شخصاً حاملاً هدية منهم لإرضائه مثل كمية من الذرة أو دجاج ، فيأتى لهم ، ولكي يؤكد تسامحه وصفاء قلبه نحوهم يملأ فمه بماء « ويبزقه » على وجه المريض .

وهناك نوع آخر من السحر اسمه « أمي ـــ واه » وهو يختلف عن الطريقة السابقة ، وذلك بإحضار قطعة خشبية ناعمة الملمس وتوضع على رأس المريض ، ثم يحضرون قطعة خشبية أخرى ويغمسونها فى إناء به ماء ودواء محلي يقوم « الكيجور» بصنعه ، ويضعون هذه الخشبة على الخشبة الناعمة فإذا التصقت بها يكون الشك صحيحاً ، فيذهبون إلى من وقع عليه الشك ويسترضونه ، اعتقاداً فى أن صفاء قلبه نحوهم سيشفي المريض .

يوجد نوع ثالث اسمه « بِينْ زا » يقام له حفل خاص تدق فيه الطبول مثل الزَّار، ويتحدث صاحب المشكلة بمشكلته لسلطان الكيجور، وهي مشكلة تتعلق بعدم مقدرته فى الصيد أو الزواج أو الخلافات الزوجية أو المرض، ويعطي له السلطان أدوية محلية مختلفة يستخدمها حسب الطريقة التى يصفها له .

أما « بنجو» فهو النوع الرابع ، يتكون من ثلاث قطع خشبية ، توضع اثنتان منها على الأرض وتُنصَّب عليها الثالثة عمودياً بدون تثبيتها بمسمار أو أيِّ مادة أخرى، وينادي سلطان الكيجور « يابنجو» ويحكي المشكلة ويقول نود أن نعرف إذا كان فلان هو السبب ، تسقط تلك الخشبة المنصوبة ، ويترك الخشبات الثلاث على هذا الوضع لمدة يوم ، ويعود إليها فإن كان الشك صحيحا تَسقُطُ الخشبة .

وقد سألت لو أن الخشبة هذه وقعت بفعل فاعل ، مثل قطة ، أو دجاجة ، أو طفل أو ريح أو أيِّ أحد عبث بها ؟ . فكان الجواب أن هذا يؤكد سلامة العملية ، فالمهم أن تقع بأيِّ وسيلة غير مقصودة ، وقد جَرَّبَ مُحِدِّثى هذه الطريقة وأصاب فيها نجاحاً كبيراً .

هـنـاك سحر آخر اسمه « دا ــ با » ، وهو قطعتان من الخشب ، إحداهما تسمى « دا » والأخرى « با » ، تغرسان عموديا و يتركان يومين فى بيت حشرة « الأرضة » التى تـأكـل الخـشـب ، والـنـتـيـجة الصحيحة إذا أكلت الأرضة إحداهما وتركت الأخرى ، وإذا حدث غير ذلك يكون الشَّك ليس فى محله فتبحث الأسرة عن سبب آخر لمرض من أصيب منهم .

و يـوجد سحر خاص لمن يريد أن يكون محبوباً لدى النساء ومن سائر الناس ، ومـن يريد ذلك عليه أن يذهب إلى سلطان الكيجور و يشرح له أمره ويحدثه بما فى نـفـسه ، فيـدهن السلطان وجهه بدواء معين يصفه لهذا الغرض ، كي يجعله محبوباً من الآخرين. ولا زال هذا النوع من الممارسات سائداً.

* * * * *

قبيلة
المورو

(٩)

المـــــورو

يقولون عنها فى السودان بلاد المورو، مساحتها تبلغ نحو خمسين ألف كيلو متر[١]، وتتقاسم منطقة غرب الإستوائية مع قبيلة الزاندي التى تكثرها عدداً وتكبرها مساحةً، تحدها من الشرق قبائل الباريا وموندراي وجمبرا، وفى الشمال دنكاتونج التابعة لمنطقة رومبيك فى إقليم بحر الغزال، وتحدها من الغرب قبائل ياكا، ومندو، وجزء من الزاندي، وفى جنوبها تتواجد قبيلة الموجونو أحد فروع الباريا، ويبلغ عدد سكانها نحو ربع مليون نسمة، وفى مناطقها يجري نهر «ييي» الذى ينبع من «ييي» فى الجنوب، ويمتد شمالا إلى بورو فى أعالى النيل، وليس له جداول فرعية.

وتنتمى للمورو قبائل صغيرة، هي، موروكوادو، وموروميزا، ومورواندي وموروباليبا، وجيلي، واوجوروافوكايا، وديرا (وتسمى أحيانا بل)، وكل هذه القبائل الصغيرة تكتب وتتحدث لغة المورو، وهي لغة مستقلة عن لغات القبائل الأخرى.

إن أصل قبيلة المورو جاء من شمال أفريقيا منذ نحو ألف وخمسمائة عام، وسكنوا غرب الإستوائية فى الجنوب السودانى، وتكتب كلمة مورو MORU وأحياناً MORO وقد تعمد الإنجليز ذلك فى أوائل القرن العشرين بهدف تفتيت القبيلة لكبرها وتأثيرها على القبائل الأخرى، وكان لِلّغة دورها فى هذا التأثير حيث يتحدث أهل قبيلة لولوبا ولوبارا لغة المورو، وتتشابه لغة المادي مع لغة المورو رغم وجودها فى شرق الاستوائية، مع وجود خلافات طفيفة تزول مع استمرار الاتصال بين القبيلتين[٢].

---

(١) هذا الرقم مصدره شفهي.

(٢) لقاء مع أزبوني منديري، وهو شخصية سياسية له تاريخ سياسى فى الجنوب حيث شغل أكثر من منصب وزارى فى الحكومة الإقليمية، وحالياً مسئول عن مشروع (أنزارا) لتصنيع الزيوت فى الجنوب.

ولأهل المورو تاريخهم وعاداتهم التى يتميزون بها عن غيرهم ، و يتركز هذا التميز فى شخصية الملك الذى تلاشى دوره الآن ، وحل محله السلطان ، بتأثير الوجود الإنجليزى ، فقد كان للملك هيبته ودوره فى توحيد القبيلة ، وكان يُعامَل معاملة خاصة حيث يرفع على الأكتاف وهو جالس على سر يره (العنقر يب) .

ومن التقاليد الملكية فى القبيلة أن الملك هو الذى يعين خليفته من أحد أبنائه أو أشقائه أو أقر بائه قبل أن يموت ، و يقوم بتوز يع نسائه المقربات إليه على أولاده وإخوته ، أما اللائى يكون غير راض عنهن فيترك لهن حر ية الاختيار فى البقاء أو العودة إلى أهلهن ، أو يتزوجن بآخر ين من أفراد أسرته ..

وربما تكون هناك علاقة بين بعض تقاليدها والتقاليد المصر ية القديمة ، وخاصة فى طر يقة دفن الموتى ، فعندما يموت الملك يدفن فى غرفة الملك حيث تحفر حفرة على عمق ثمانية أمتار وفى عمقها ينحتون كهفاً بعمق جانبى لمسافة متر ين ، وارتفاع متر ين ، يضعون فيه سر يره و يفرش فوقه « حصيرة » ويمددون عليه جثمان الملك ، و يوضع حوله طعامه وشرابه وغليونه ، ثم تغلق هذه الغرفة الجانبية ــ التى تشبه الكهف تحت الأرض ــ بالحجارة ، ليفصلوا بينها و بين الحفرة التى يقومون بردمها لتتساوى بعد ذلك مع الأرض . ولازال نظام دفن الموتى بهذه الطر يقة باقياً حتى الآن للأفراد العاديين مع اختلاف طفيف هو أنَّ الجثة لايوضع تحتها سر ير و بعضهم يضع حصيرة .

كان للملك حرسه الخاص وسلاحه وعساكره ، ولذلك كثيراً ما كان يتصارع مع القبائل الأخرى بهدف الاستيلاء على أبقارهم ونسائهم ، فمثلا إذا أعجبته امرأة ، أو سمع عن جمالها فى قبيلة أخرى حتى لو كانت متزوجة يُحرِّض على خطفها ، وهنا تبدأ المشاكل .

وقد وجد الإنجليز صعوبة فى البداية كي يقضوا على هذه الظواهر فلجأوا إلى حيلة ، وهي مصادرة أسلحة القبيلة عن طريق إقناعهم بتسليم أسلحتهم ليستبدلوها لهم بأسلحة جديدة ، وعندما سلمت القبيلة أسلحتها فوجئوا بأن من سلم مائة قطعة أخذ عشر ين قطعة جديدة بدلاً منها ، ومن سلم مائة وخمسين قطعة أخذ مقابلها ٣٠

قطعة ، أى أن الإنجليز خفضوا أسلحتهم بنسبة خمسة إلى واحد، وبهذا أمكن لهم تقليص قوتها مما مكنهم من القضاء على النظام الملكي فى القبيلة ، وقد ساعد فى هذا ظهور تجارة الرقيق فى أواخر القرن الماضى ، حيث هرب الناس لينجوا بأنفسهم ، فضعفت هيبة الملك ، ثم تلاشت تماماً ، وكان الإنجليز قد أبطلوا بعض الأحكام القاسية التى كانت تفرضها قوانين المملكة ، ومنها إلغاء قطع ذكر الرجل الذى كان يضبط متلبساً فى خيانة مع إحدى زوجات الملك أو بناته .

كان للملك الحرية المطلقة فى الزواج بمن يشاء من النساء ، و يذكر أن آخر ملك فى القبيلة كانت له خمس وخمسون زوجة ، أقام لهن مساكن من الأكواخ (القطاطي) وهي عبارة عن مستوطنة ملكية كبيرة ، وكل كوخ (قطية) يكتب عليه اسم الزوجة ، وَعَيَّن على كل عشر زوجات امرأة من القبيلة ترعى شئونهن وتنظم العلاقة بينهن و بين الملك ، فإذا طلب امرأة معينة أو أكثر أبلغ رئيسة العشرة بذلك لتقوم بتجهيز من سيقضين الليلة معه .

و يعزى تعدد الزوجات لرغبة الملك فى كثرة الإنجاب للمحافظة على سلطاته وهيبته واستمرار نظام الملكية فى القبيلة كي تخشاها القبائل الأخرى ، ولن يجد صعوبة فى الزواج من أيِّ امرأة أو فتاة بطبيعة الحال فهو الملك ، وإذا وقعت عيناه على امرأة فى أيِّ مناسبة وسأل عنها ، فهذه إشارة الى أنه أعجب بها و يريدها زوجة له ، فيقوم من كانوا معه وسمعوا سؤاله بإبلاغ والد الفتاة بأن الملك اختار ابنته ، وما على الوالد إلاّ أن يجهز ابنته ويحضرها إلى الملك ، وتضم إلى حريمه ، و يعد لها كوخاً (قطية) و يكتب عليه اسمها ، و بعد أن يعاشرها يأمر فى اليوم التالى بإرسال كمية من البقر لا تقل عن مائة بقرة كمهر لزواجه من تلك البنت .

ألغى الإنجليز نظام الملكية فى قبيلة المورو واستبدلوه بنظام السلطنة وعينوا أبناء الملك وأقاربه كسلاطين ، وفرقوهم فى مناطق متباعدة ، ثم اختار هؤلاء السلاطين مساعدين لهم من بين أفراد أسرهم ، وهكذا تفتت تماسك الأسرة المالكة حيث استقل السلاطين فى مناطقهم ولم تعد الأسرة قادرة على استعادة تماسكها .

وقبل عام ١٨٢٠ لم تكن القبيلة قد عرفت الأديان السماوية بعد، وفي ذلك العام عرفت المسيحية على يد القسس والمترجمين، الذين تحولوا إلى مدرسين يعلمون أبناء القبيلة الدين المسيحي واللغة الإنجليزية، كما دخلها الإسلام عام ١٨٢٤ على يد التجار العرب وحملة محمد على، وبهذا انتشرت المسيحية والإسلام، وظل عدد منهم لا دينيين يبلغ عددهم في الوقت الحاضر نحو ثمانين ألف نسمة.

وقد عانت القبيلة من تجارة الرقيق في القرن التاسع عشر التي جاءت مع التجار الفرنسيين والبلجيكيين والأتراك والانجليز والهنود الذين كانوا يجمعون الصغار من الأولاد والبنات في منطقة تركاكا، و يشحنونهم في صنادل نيلية عند منطقة الشُّلك في أعالي النيل لتصل بهم إلى أم درمان حيث يوجد هناك سوق للرقيق. وكان لهم وكلاء يقومون بتصديرهم للأسواق الأوربية والأمريكية ليعملوا في زراعة الأرض، وذهب معظمهم إلى أمريكا كقوة بشرية عاملة، لأن الأوربيين الذين قدموا إليها لم يستطيعوا العمل في المناطق الحارة، فجاءوا بهؤلاء حيث يتشابه المناخ الأفريقي مع بعض المناطق الحارة في أمريكا مثل كاليفورنيا وتكساس.

و يقال إن أصل تجارة الرقيق في أفريقيا بدأها القسس الكاثوليك في السنغال وتمكنوا من الدخول إلى جنوب السودان، ونجت قبائل النوير والدينكا من تجارة الرقيق، لوجودها في مناطق المستنقعات والجداول المائية حيث تصعب مطاردتها و يتعذر الوصول إلى مناطقها، أما الزاندي والمورو فأرضهم مكشوفة و يسهل الوصول إليها، وقد أدت تجارة الرقيق إلى نقص عدد قبيلتي الزاندي والمورو أكثر منه في قبيلتي النوير والدينكا اللتين نجا أهلهما من هذه التجارة.

ولقد استمرت هذه التجارة حتى مجيء بعثة كتشنر إلى السودان عام ١٨٩٠.

ورغم ذلك فإن مناطق القبيلة كان لها نصيب كبير من الخدمات منذ عام ١٩٢٠ زاد عن غيرها من المناطق، ففي ذلك العام وفد إلى المنطقة مبشر إنجليزي يدعى «فريزر» ومعه زوجته الأسكتلندية، وأنشأ في «لوي» ــ مركز المورو ــ مدرسة ومستشفى وكنيسة. وكثرت الخدمات التعليمية، حيث أقام بين كل ثمانية أميال مدرسة وعيادة صغيرة بها ممرض يطوف على القرى بدراجته، وزادت

العيادات الصغيرة حتى بلغ عددها خمسا وعشرين عيادة فى منطقة المورو، واهتم الدكتور فريزر بالتعليم، فوضع فى المناهج تدريس اللغة الإنجليزية والرياضيات والعلوم، والعلوم الزراعية التى أقبل عليها أبناء المورو.

وفى «لوي» تبلغ نسبة الذين تخصصوا فى العلوم الزراعية بعد شهادة الدراسة الإبتدائية نحو عشرين بالمائة، هذا بالإضافة إلى الاهتمام بتعليم الدين المسيحى.

يوجد فى قبيلة المورو أكثر من ألف شخص تخرجوا من الجامعات، و يتخرج كل عام نحو ألفين من المدارس الثانوية، و يلتحق نحو مائتين منهم بالجامعات فى يوغندا وكينيا ومصر، إذ يحصل نحو خمسة وعشرين طالبا على منح حكومية للدراسة فى مصر، و يذهب عشرات آخرون للدراسة على حسابهم، وقد أفاد وجود بعثة الرّي المصرية فى ملكال أهل المورو ليتعلموا و يتدربوا.

والكثيرون منهم يدرسون فى الجامعات الأوربية والأمريكية، وقد درس السيد أسبوني مانديري ــ الذى أجريت معه هذا اللقاء ــ بجامعة الخرطوم عام ١٩٥١، وتخرج فيها عام ١٩٥٥ حيث درس الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والقانون باللغة الإنجليزية، كما درس قوانين الشريعة الإسلامية باللغة العربية.

ولاشك أن برامج التعليم والاختلاط بالثقافات الحديثة أثّر على عادات المورو القديمة، حيث تلاشت الآن عادة إزالة الأسنان السفلى لدى البنات، وقلت عادة وضع علامات على الصّدغ، وهي عبارة عن أربعة خطوط عامودية فى منتصفها خط مستقيم هكذا //// كعلامة لتميز أفراد القبيلة عن القبائل الأخرى.

ومن تقاليد الزواج عند المورو أن الشاب الذى يريد أن يتزوج فتاة معينة عليه أن يذهب أولاً إلى والدها أو أخيها، وعندئذ يتحدث الوالد أو الأخ مع الفتاة لمعرفة رأيها، و يتردد الشاب على المنزل نهاراً بعلم الأهل وبحضورهم، أي إن تردده لا يتم سراً، وفى الزيارة الثالثة على الفتاة أنْ تقول رأيها، فإذا أعرضت عن الزواج من الشاب يبلغه أهلها بأن عليه أن يكف عن زيارتهم لأن ابنتهم رفضت الزواج منه، وإذا وافقت يبدأ الحديث عن إجراءات الزواج، وبعد ذلك يحضر مع أبيه أو أخيه أو أتي أحد من أسرته ليتحدث فى موضوع الزواج ودفع المهر المطلوب من

البقر، وإذا اكتشف الشاب بعد الزواج أن زوجته ليست بكراً فمن حقه أن يعيدها إلى أهلها و يسترجع مادفعه من مهر، وفى هذه الحالة تَـلْقى الفتاة العقاب من أهلها الذى يصل إلى حد طردها من البيت، و بعد ذلك قد تتزوج أو لا.

والمرأة لا ترث شيئا، وقبل الوفاة يقسم الأب مايملكه من نساء وأبقار وأكواخ على أولاده، وإذا لم يكن لديه أبناء يوزع الزوجات والبقر على إخوته الذين يقومون بواجبهم نحو البنات.

وسلاطين القبيلة هم أصلاً أحفاد الملك الذى ألغى الإنجليز وضعه، وعندهم سلاطين للمطر، و يعتقدون أن هؤلاء السلاطين ينزلون المطر عن طريق صلوات يؤدونها لإله القبيلة، وسلطان المطر يُنَصَّبْ بالوراثة، وهو يتعرض لما يتعرض له سلاطين المطر فى القبائل الأخرى، فإذا لم يسقط المطر يعاقب بالجلد أو إيقاد النار بالقرب منه، وقد شوهد سلطان المطر عام ١٩٧٤ فى جوبا مربوطاً بجوار النار فاستغاث طالباً إعطاءه فرصة حتى الساعة الثانية ظهراً، وأعطوه الفرصة، قائلين له: ــ «إذا مطر ماجا الليلة دا إتَّا مافي»، أي إنه إذا لم يسقط المطر اليوم فلن يكون على قيد الحياة، وقد هطل المطر وأُنقذت حياته، وتقديراً لدوره فى إنزال المطر، يرسل له كل بيت نصيبه من المحصول الزراعى سواء كان فولاً أو ذرة. وأهل المورو يزرعون الفول والذرة واللوبيا وقصب السكر، والخضروات والفواكه مثل المانجو والباباي والأناناس والليمون.

وبجانب سلطان المطر، هناك سلطان «الكيجور» الذى يشفي الأمراض ويحل المشاكل عن طريق السحر.

ومن الأشياء التى عرفتها عن قبيلة المورو أنّها كانت تستخدم أصداف البحار التى تعيش فيها الحيوانات المائية كقطع مالية تعادل قرشا أو قرشين، كما كانت تصنع من النحاس والحديد عملة نقدية يتداولونها مع الأصداف فى البيع والشراء أما عن كيفية استخراج النحاس والحديد وعزله عن الشوائب، فتتم بوضع خام المعادن فى غرابيل عالية مُثَقَّبة ثقوباً صغيرة، و يشعلون تحتها ناراً حتى ينصهر المعدن و يسيل من الثقوب لتستقبله قوالب صغيرة ذات أحجام مختلفة، من بوصة

إلى قدم ونصف ، وكل قطعة ذات حجم معين تساوى نقوداً بمعدلات مالية متفق عليها ، كما كانوا يصنعون من النحاس عقوداً وخلاخيل للنساء ، و يصنعون من الحديد الأسلحة والحراب والآلات الزراعية مثل المالودة[1] ، وكان قالب الحديد الذى يعادل قدماً ونصفا يقدم مهراً للزواج وهو يعادل خمسَ مَالودات .

وهكذا حَوَّلَ أهل المورو الحديد إلى مال يدفعونه كمهر للزواج و يصنعون منه أدواتهم الزراعية وحرابهم وأسلحتهم ، و يبتاعون به الذرة ومايلزمهم من احتياجات ، استمر ذلك حتى عام ١٨٩٩ ، عندما جاء الأتراك والمصريون وأدخلوا العملة المصرية ، كما أبطل الإنجليز استغلال المعادن بقانون عام ١٩٣٠ ، ومن يضبط يوضع فى السجن .

وفى عام ١٩٣٥ عرفوا العملة الورقية الإنجليزية ، ثم استغل الانجليز الحديد المتوفر فى مناطق المورو لأهدافهم الصناعية ، ومازالت هذه المنطقة تتمتع بثروة معدنية لم تستغل ، حيث يوجد بها الحديد والنحاس واليورانيوم والرخام والذهب .

وأثناء الحرب الأهلية فى الجنوب كانوا يستخرجون الذهب من الجبال و يبيعونه فى الكونغو و يشترون به سلاحاً . وفى عام ١٩٤٥ قامت شركة من جنوب أفريقيا بالتعاون مع بريطانيا لاستخراج اليورانيوم من جبل « مالانجا » ، إلا أن هذه العمليات توقفت بسبب حوادث توريت عام ١٩٥٥ . وفى عام ١٩٥٨ قامت شركة أمريكية بالتنقيب عن اليورانيوم ، وأوقف الفريق إبراهيم عبود[2] عام ١٩٥٩ أعمال تلك الشركة .

* * * * *

(١) المالودة آلة تصنع من الحديد وتستخدم فى الزّراعة .

(٢) أطاح بحكومة السيد إسماعيل الأزهرى فى انقلاب عسكرى عام ١٩٥٨ .

خاطرة ...... قُبيل الطبع

... قُدّر لي أن أطلع على هذا (المُؤَلَّفِ)

.. قُبيل الدّفع به إلى المطبعة

... أكثر ما كان له أثرٌ فى نفسى الجهد الذى بُذِل فيه .

... فالكَاتب قد رضي بالحياة فى ذلك الجزء النّائى من الوطن زهاء عقد من الزّمان ... تَعايش مع أهله .... ارتبط معهم ...

... خلع رداء الدبلوماسية وتحلّل من قيودها والتزاماتها

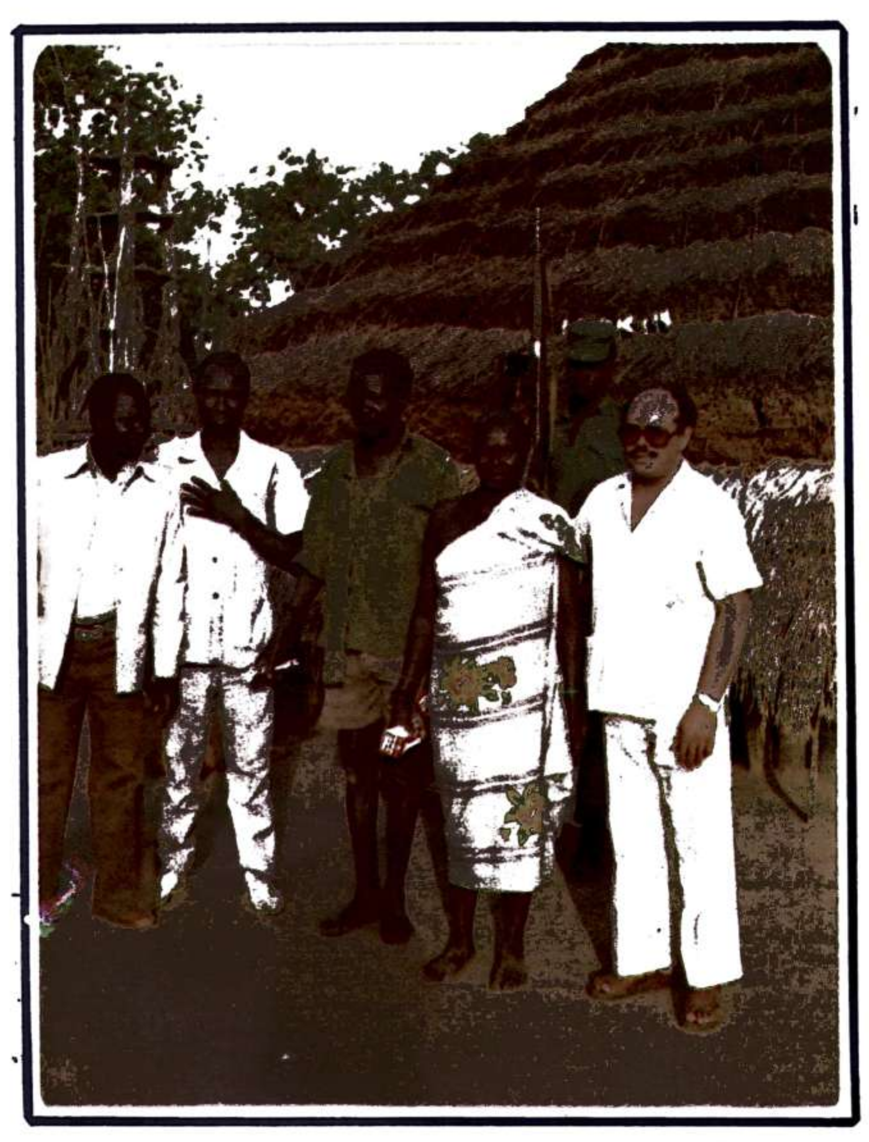
... وشقّ الفيافى والوِهاد ليقف على حياةِ قبائلٍ على الطبيعة ....

... ثُمّ بعد أن حطّ الرِّحال ... أمسك اليراع ... لرسم مسيرة جهادٍ طويل ... وتجربة انسانية فذة ..... ولمست عن كثب اهتمام الكاتب بكتابه .. حقائق ... أسلوباً .. وعرضاً .

عبد القادر محمد أحمد
جامعة الخرطوم ــ كلية الآداب
الدراسات الاسلامية
١٤ سبتمبر ١٩٨٥م

مجموعة صور
الجزء الثاني





مع ملكة قبيلة اللاتوكا فى فناء « الحوش » منزلها وإلى يمينها زوجها وبجانبه السلطان



صورة جماعية لسلاطين قبيلة الآشولي وبينهم سلطان المطر، والمؤلف يقف فى الصف الثانى خلف المفتش.



مع مفتش قبيلة الآشولي وماريًا التى تقول إنها متخصصة فى الكجور (السحر) وهي بواسطة هذه التى تحملها بيدها تستطيع أن تساعد الآخرين.



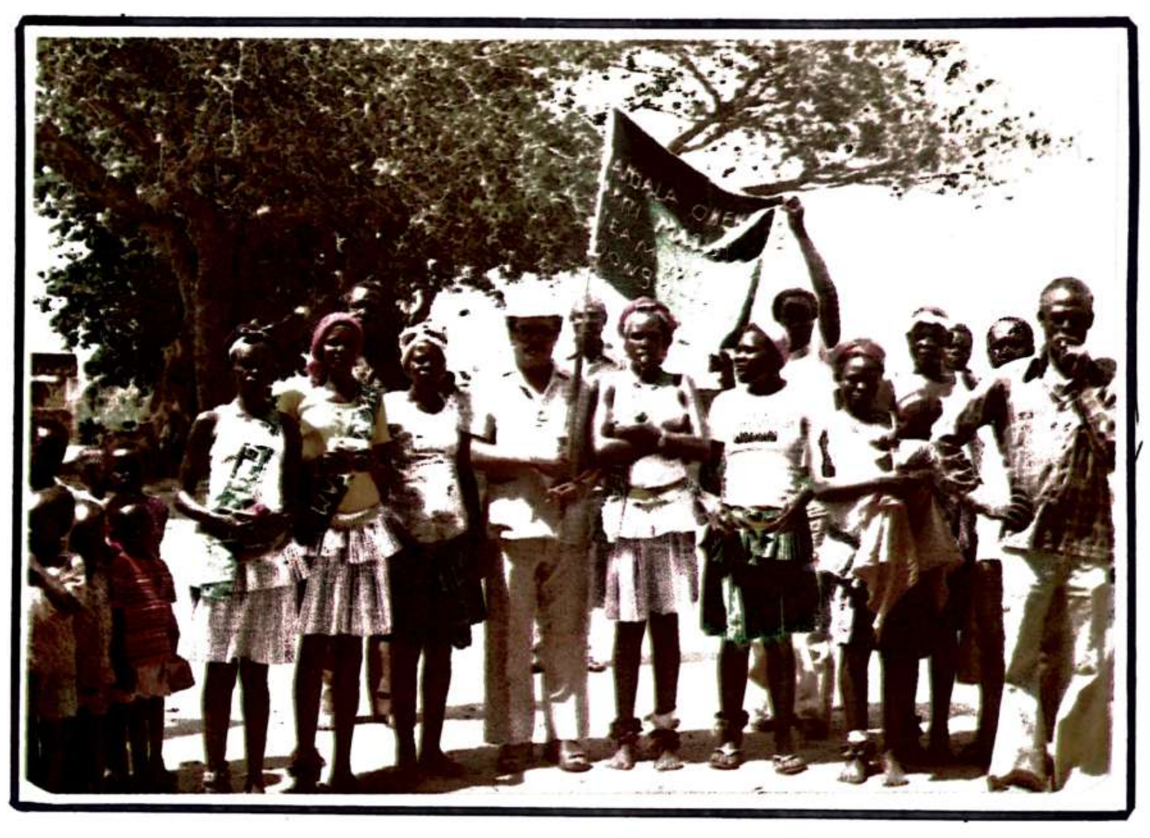
قبيلة الآشولي ترحب بالمؤلف .



ولأنهم يرقصون كثيراً ، يندر أن تشاهد بدينا فى جنوب السودان .



ذراع المؤلف ورقصة شعبية من قبيلة الآشولي .



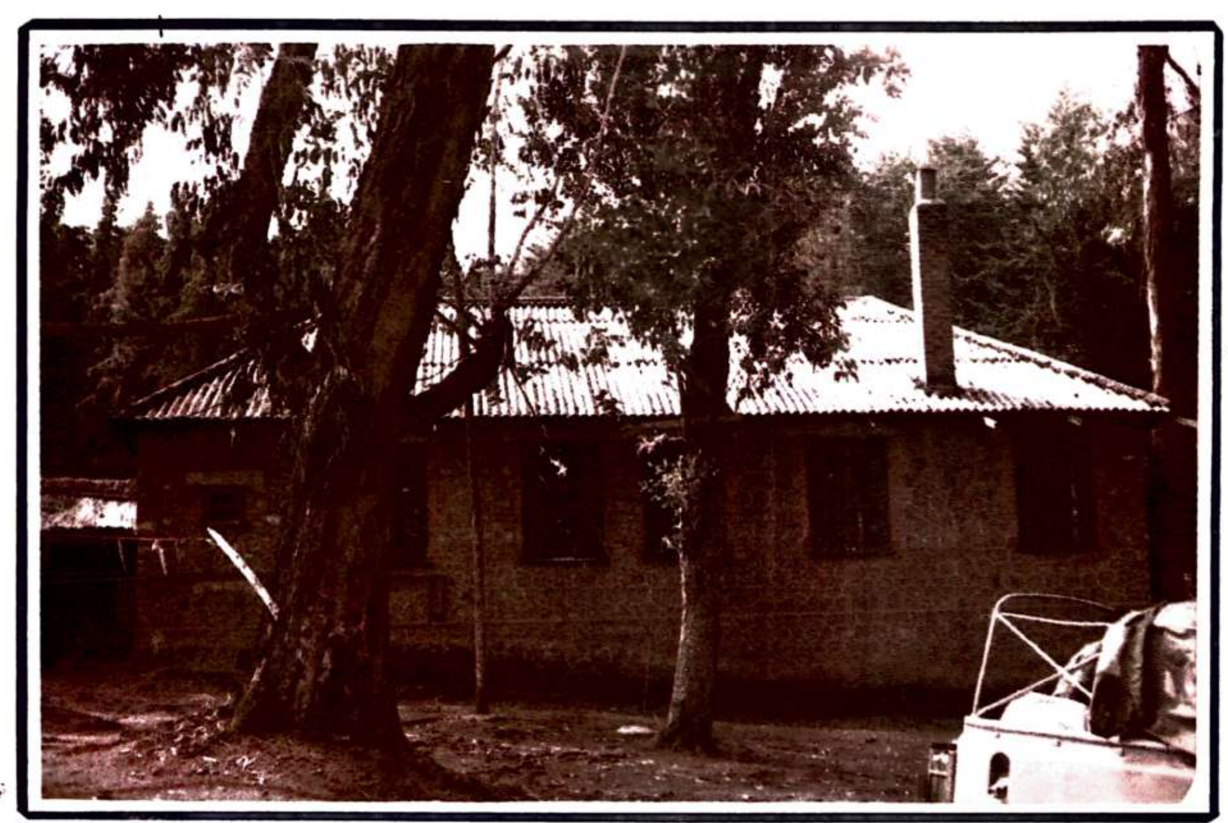
فرقة الفنون الشعبية فى آشولي يتوسطها المؤلف .



القطاطي (العشش) أو الأكواخ كما هي فى أحضان الطبيعة وحولها سلسلة جبال توريت إحدى قرى الآشولي .



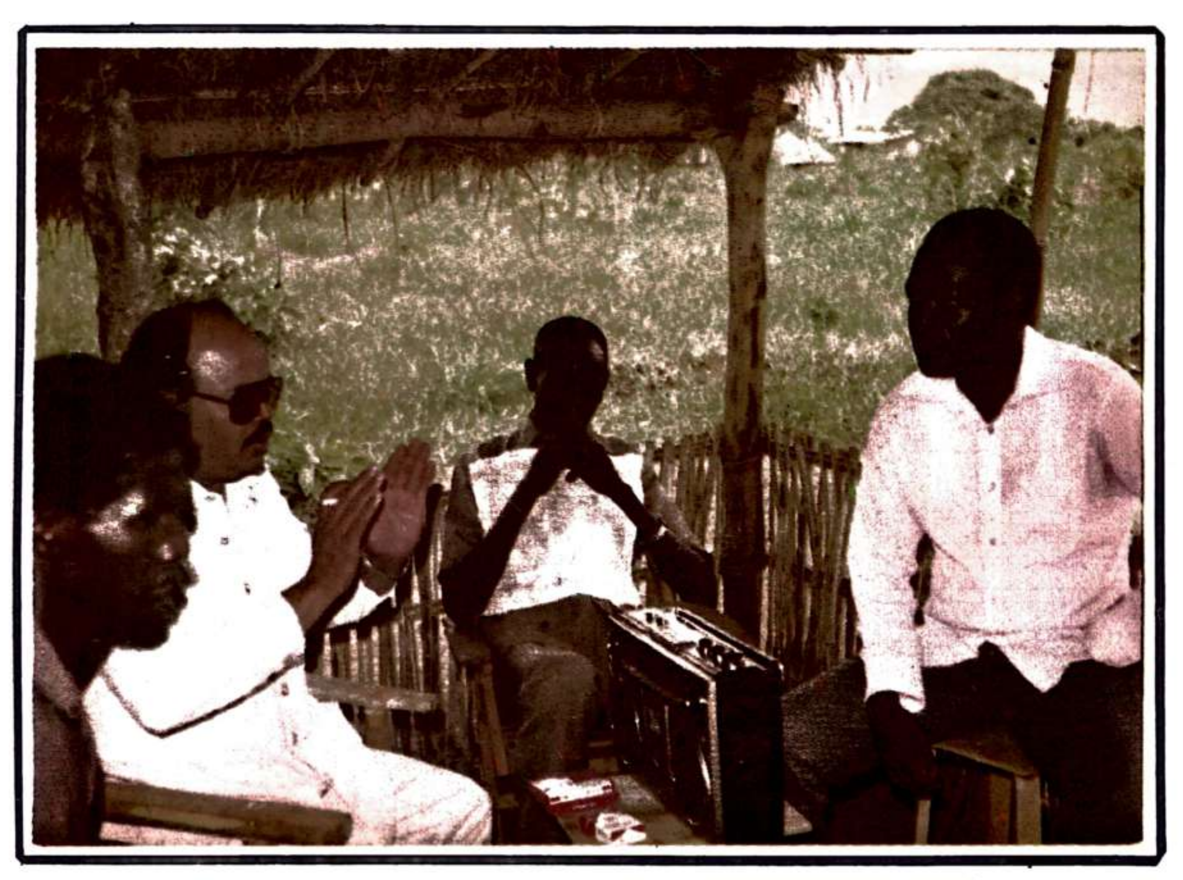
الطريق إلى قمة جبل جيلو.



الاستراحة التى بناها البريطانيون فوق قمة جبل جيلو لتكون مقراً لاجتماع قادة الجيوش البريطانية فى دول شرق أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية ــ تحولت الآن إلى استراحة حكومية .



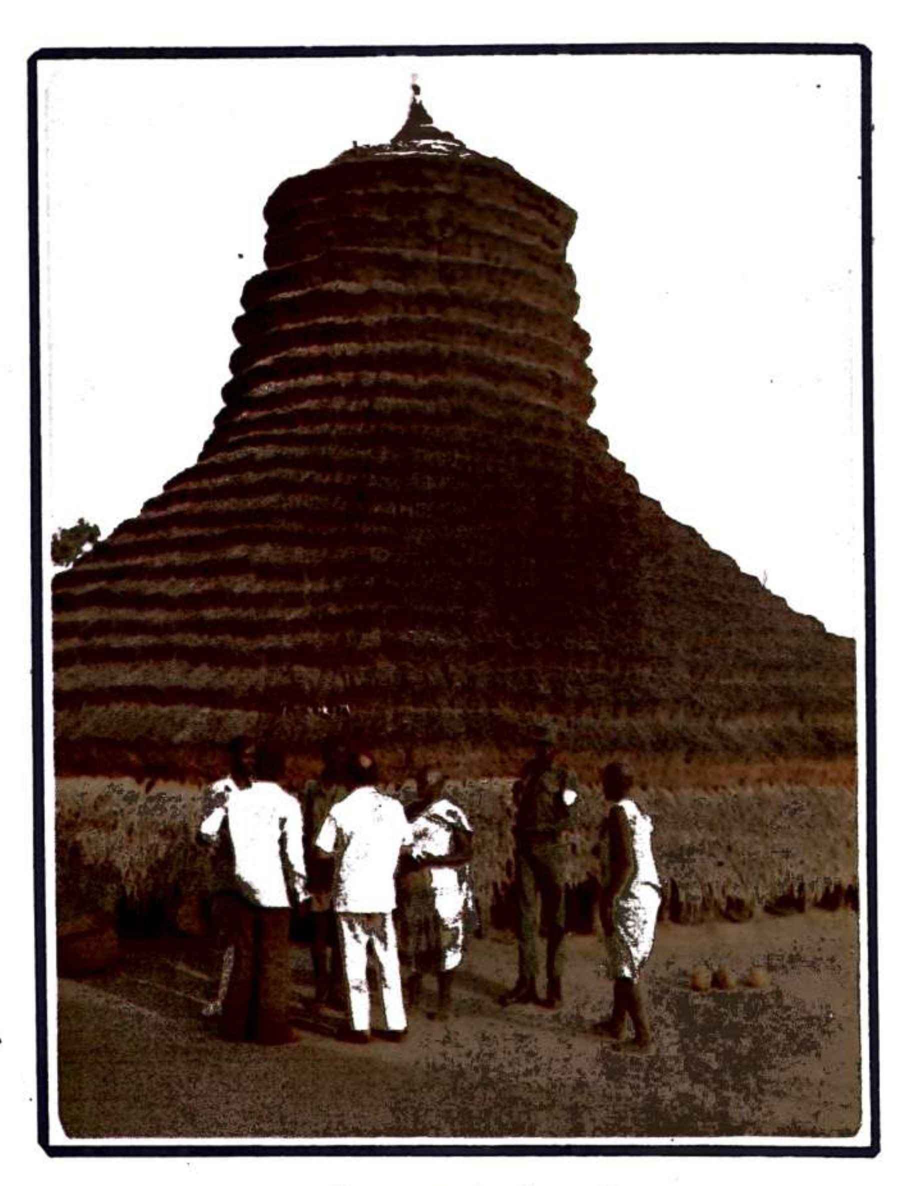
الطبيعة والغيوم تغطي جبل جيلو.



هكذا أشرح قبل التسجيل وجهاز الراديو « المسجل » في الوسط على الطاولة .



إلى يميني يجلس عضو مجلس الشعب الإقليمي وإلى شمالي يجلس مساعد المحافظ والواقف ذو البدلة « البيج » والطربوش هو كبير السلاطين في قبيلة الدادينجا في شُكُدُمْ والذين معنا هم سلاطين القبيلة .



قصر ملكة قبيلة اللاتوكا .
أكبر كوخ رأيته حتى الآن فى جنوب السودان ، يتم هدمه وإعادة بنائه فى يوم واحد .



المؤلف بين الدكتور باسيفيكو رئيس مجلس الشعب الإقليمي وخلفه وزير المالية الإقليمي أجودي دي، وسط أفراح قبيلة اللوكايا في يوم الحصاد.



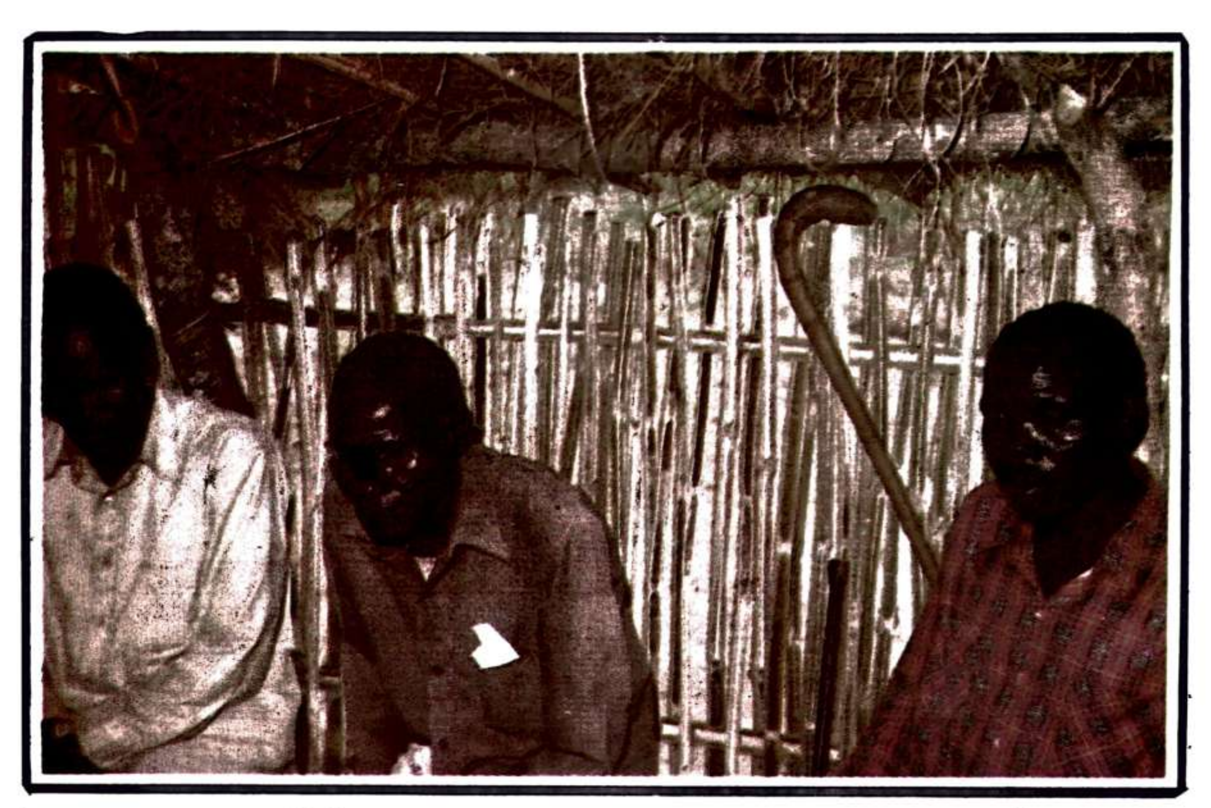
وحتى النسوة والأطفال يشاركون في هذه الاحتفالات.



المؤلف وإلى يمينه كبير السلاطين يوسف إيكو وبعض سلاطين قبيلة التابوسا وإلى يساره مفتش مركز كابويتا .



صورة أخرى تبرز كبير السلاطين يوسف إيكو، سبعون عاماً وعشرون زوجة على قيد الحياة وعدد كبير من الأبناء والأحفاد (ماشاءالله) .



كبير سلاطين قبيلة الدادينجا يتوسط سلاطين آخرين فى شُكُدُمْ .



الذى حارب مع الإنجليز وساق سيارة جومو كينياتا ، إنه من قبيلة الدادينجا فى شُكُدُمْ .



فى شُكُدُمْ وسط أحضان الطبيعة الخضراء، يحرث الأهالى الأرض لزراعتها وسيدة تبذر البذور وأنا أحمل طفلها.



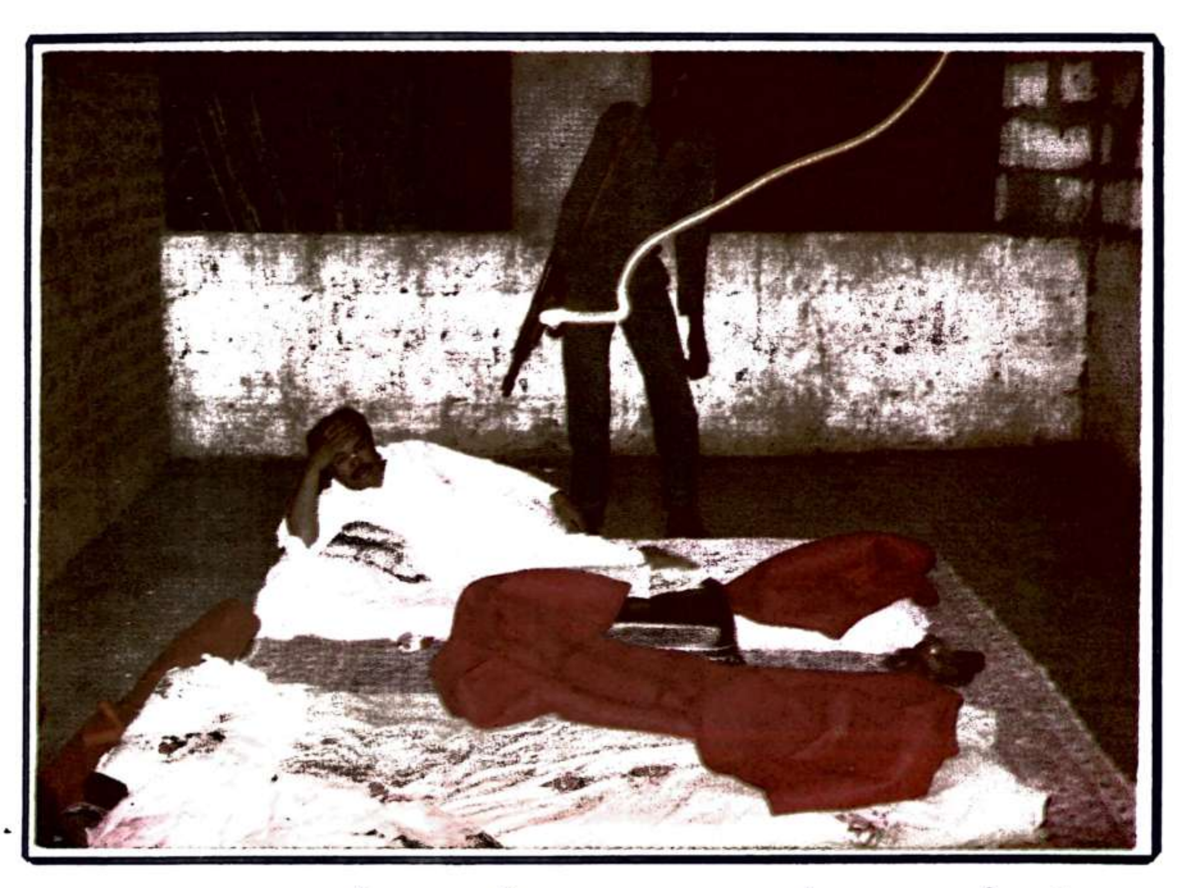
رقصة مع كبير سلاطين الدادينجا وروزا ولوسيا ــ شُكُدُمْ.



الشارع الرئيسى فى مدينة توريت .. مقر محافظ شرق الاستوائية .



صورة جماعية مع بعض من افراد قبيلة الدادينجا فى شكدم



هكذا أنام فى الليل أثناء تجوالى ، إن الخط الأبيض ليس أفعىً ، إنما هو عود عشبة « قشة » يابس لصق بعدسة الكاميرا فظهر كما لو كان أفعى .



الفهــرس

الموضوع | **الصفحة**



المــؤلف :

- عبد الله سَرِيّع عبد الرحمن السَرِيّع (عبد الله السَرِيّع) .
- ولد عام ١٩٣٤ فى حى الصالحية بالكويت العاصمة .
- متزوج .
- بدأ حياته العملية موظفاً .
- انتدب من وزارة التخطيط عام ١٩٧٤ للعمل مديراً لمكتب دولة الكويت بجنوب السودان للإشراف على المشاريع المهداة من الكويت للإقليم التى تمولها الهيئة العامة للجنوب والخليج العربى .
- عين فى فبراير ١٩٨٤ سفيراً بوزارة الخارجية ثم سفيراً للكويت فى السودان ٨٤ ـ ١٩٩١م .
- منحه الرئيس نميرى عام ١٩٧٨ وسام النيلين من الطبقة الثانية ، عندما كان يعمل فى الجنوب .
- منحته جامعة جوبا عام ١٩٨١ شهادة الدكتوراه الفخرية بالآداب بمناسبة تخريج أول دفعة من طلابها مع عدد من الساسة السودانيين ومعهم المناضل ويلسون مانديلا ، تسلمها نيابة عنه سفير تنزانيا فى الخرطوم .
- منحته (واد مدنى) عاصمة الإقليم الأوسط حق المواطنة ، وذلك بمناسبة احتفالات الإقليم لدولة الكويت فى يونيو ١٩٨٩م .

من أعماله الأدبية :

- أصدر عام ١٩٨٦ كتاب (سنوات فى جنوب السودان) ، ما كتب عنه يحتاج لمجلد ضخم .
- ألف عدد من المسرحيات ذات الثلاثة فصول والفصل الواحد ، أخرَجَ منها المرحوم صقر الرشود مسرحية (الأول تحول) فى دولة الامارات ، ومسرحيتان اخرجتا فى السودان الأولى مسرحية (عروس حسب الظروف) اخرجتها الفنانة نعمات حماد والثانية مسرحية (جارة السوء) وقد أخرجها الفنان الفاضل سعيد .
- ألف فيلماً سودانياً إسمه (قبل فوات الأوان) فكرة الأستاذ عثمان حميدة ، تعديل وتأليف الكاتب ، كتب له السيناريو الأستاذ أحمد النمر ، وشارك فيه المؤلف ، (لم يُخرَج بَعد) .
- يصدر له قريباً ديوان بعنوان (وحى الخاطر) يحتوى على قصص قصيرة وخواطر وتأملات وألوان من الشعر .
- كتب للتليفزيون ، كما قدمت له اذاعة الكويت الكثير من التمثيليات القصيرة .